دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

الجنرال
ج . ف . ث ڤولر

أثر التسلح في التاريخ

من حروب القرون الوسطى لنهاية الحرب العالمية الثانية

عصر الجرأة - عصر البارود - عصر البخار - عصر النفط
وعصر الطاقة الذرية

نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية نخبة من أسرة
دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية
عن اللغة الانكليزية

سلسلة عيون التاريخ العالمي
٣

دار اليقظة العربيّة للتأليف والترجمة والنشر بسوريّة

الجنرال
ج. ف. ث فوللر

أثر

التسلح في التاريخ

من حروب القرون الوسطى لنهاية الحرب العالمية الثانية

عصر الجرأة - عصر البارود - عصر البخار - عصر النفط
وعصر الطاقة الذرية

نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية نخبة من اسرة
دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية
عن اللغة الانكليزية

سلسلة عيون التاريخ العالمي
٣

دمشق – سورية
١٩٥٤

المقدمة

المشتمل

(١)	المقدمة	للجنرال ل . م شاسان	١
(٢)	الفصل الاول	التسلح والتاريخ	١٣
(٣)	الفصل الثاني	عصر الجزئة	٣٤
(٤)	الفصل الثالث	عصر الفروسية	٥٧
(٥)	الفصل الرابع	عصر البارود	٧٧
(٦)	الفصل الخامس	عصر البخار	٨٩
(٧)	الفصل السادس	عصر النفط	١٠٨
(٨)	الفصل السابع	عصر الطاقة الذرية	١٥٧

الجنرال فولر
وكتابه
في أثر التسلح في التاريخ

للجنرال ل . م شاساين

« مما لاريب فيه أن الجنرال فولر سيحتل فيما بعد المقام الاول بين كبار قادة القرن العشرين » هذا ما كتبه ج . ر . لستر ، ونضيف الى هذا انه لابد أن يحتل مكاناً مرموقاً بين طائفة الكتاب الذين عالجوا فن الحرب اذ سيكون للجنرال فولر المزية الكبرى في أنه أحد المفكرين العسكريين النادرين الذين أتيح لهم تطبيق نظرياتهم عملياً في ساحة القتال .

ولد ج . ف . فولر في ١ ايلول ١٨٧٨ ، وأتم دراساته في لوزان قبل ان يلتحق بكلية ساندهرست في ١٨٩٦ ، حيث لمع بذكائه الحاد وطرافة تفكيره السليم . ثم ألحق لدى تخرجه بالمشاة الخفيفة ، وخدم في انكلترا وارلندا ، واشترك في حرب البوير من ١٨٩٩ الى ١٩٠٢ وأحرز معلومات متينة في تجارب الحرب . وبعد إقامة له في الهند ، عاد الى انكلترا ، وكان في كلية الحربية بكامبرلي في ١٩١٤ ، لدى بداية الحرب العالمية الاولى .

وقد بدأ حرفة الكتابة منذ كان في كلية كامبرلي ، فكانت كتاباته نبوءات مدهشة جعلت منه « نبياً » حقيقياً في القضايا التعبوية . وفي عهد كان لايزال فيه الرشاش قليل الاستعمال ، كتب يقول « إن قوات المشاة المعدة للهجوم الحاسم يجب أن تنظم حول هذا السلاح » ثم أضاف بقوله : « لما كان مدفع الميدان هو خير سلاح لرمي القذائف ، فقد أحدث ثورة في نظرية الحرب بالاستعاضة بالاختراق عن التطويق . »

وقد أيدت حرب ١٩١٤ - ١٨ نظريته هذه واتاحت له ان يلعب دوراً كبيراً في تقدم التسلح .

والزعيم فوللر بالتعاون مع الرئيس مارتل والرئيس هاتبلاك ، هو الذي أدخل على الجيش الانكليزي الاصول التعبوية في استعمال السلاح الجديد الذي أحدث ثورة في الفن العسكري ، وهو الدبابة ، التي اخترعها في وقت واحد كل من الزعيم إيتين الفرنسي والزعيم سوينتون الانكليزي . ويعود الفضل في وضع خطة هجوم كامبري الشهير في ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٧ ، الى الجنرال فوللر وقد كان إذ ذاك رئيس شعبة العمليات لفيلق الدبابات الملكي ، حيث قامت ٣٥٠ دبابة بريطانية بأول عملية اختراق حقيقة للجبهة الالمانية . وقد كتب الجنرال فوللر عن هذه المعركة : « يالها من معركة غريبة ، « لم يسبق لها مثيل في اهميتها ، ومع أنها اقترنت بالفشل ، الا أنها كانت بداية الثورة في الحرب البرية ، من الوجهتين النظرية والعملية . »

ومما يؤسف له أن قادة الحلفاء العسكريين كانوا أقل جرأة في هذا الانقلاب ، اذ لم تستخدم الدبابات وفقاً للافكار الحديثة قبل عام ١٩١٨ . ومع هذا فقد كان لدى الحلفاء في الاشهر الثلاثة الاخيرة من الحرب اكثر من الفي دبابة عاملة في الجبهة الغربية . وقد تبنى المارشال فوش في هجوم الربيع الحاسم لعام ١٩١٩ ، خطة حربية ثورية كانت من وضع الزعيم فوللر إذ ذاك .

وتقوم الفكرة الرئيسية في هذه الخطة على شل الجيش الالماني بسحق مراكزه العصبية : وهي مراكز القيادة واجهزة التموين . وتتم هذه العملية بواسطة الاختراق من قبل الدبابات الثقيلة ، يقذف بها دون تمهيد من المدفعية ، ويساندها قصف جوي على المناطق الخلفية لقوات الخصم . وبعد شن هذا الهجوم الاول يتلوه عملية اكتساح من طراز كامبري ، قوامه الدبابات والمشاة ينتهي بهزيمة العدو .

لم تسمح الظروف بوضع « خطة فوللر ١٩١٩ » موضع التنفيذ . ولاريب في أن أفكار هذا « المحارب المبدع » قد طبقت بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ من قبل هيئة الاركان العظمى الالمانية ، في حين أنها اهملت في كل من انكلترا وفرنسا .

وقد أشغل الزعيم فوللر عقب الحرب العالمية الاولى مراكز عالية . وعلى

الأخص حين أصبح مديراً للتعليم في كلية كامبرلي الحربية ، ثم مساعداً لرئيس الأركان العامة الامبراطورية في ١٩٢٦ و ١٩٢٧ ، ثم أحرز رتبة جنرال سنة ١٩٣٠ ، وترك الخدمة الفعلية في ١٩٣٣ وكان فخر بلاده .

بدأ هذا الرجل الذي لايعرف الكلل حرفة ثانية ككاتب عسكري ،فتابع حرب الحبشة وايطاليا في ١٩٣٥ - ٣٦ كمراسل للديلي ميل ، والحرب الاهلية الاسبانية في ١٩٣٦ - ١٩٣٨ وكان يسافر دون انقطاع في اوربا يقابل هتلر وموسوليني وفرانكو . وقد كتب خلال الحرب العالمية الثانية اكثر من خمسمائة مقال للصحف الاميركية والانكليزية .

ولقد واتاه النجاح بسرعة كبيرة . وقد جعلته مزاياه الفكرية الخارقة ، واتساع نظره الثاقب لحجب المستقبل ، وطرافته وصراحته وصدقه ، واسلوبه الصاعق ، واتساع افقه في الامور العسكرية كل هذا جعل منه كاتباً ذا شهرة عالمية . وله حالياً ٢٧ مجلداً تتعلق بالفن العسكري ، بعضها كتب مذكرات ، وبعضها الآخر ذو قيمة تاريخية بحتة ، كتاريخ المشاة الخفيفة الانكليزية في القرن الثامن عشر ، والمعارك الفاصلة للولايات المتحدة ، وأهم مؤلفاته هذه وأذيعها صيتاً تلك التي تتعلق بنظرية الحرب . ومن هذه الكتب كتاب حرب المدرعات ،وهو أحد الكتب الثلاثة التي أوصى المارشال تيموشنكو بجعل دراستها إلزامية لجميع ضباط الجيش الأحمر ، والكتاب الثاني هو كتاب الحرب لكلوزويتز ، والثالث هو كتاب السيطرة الجوية للجنرال الايطالي دوهيه .

ولاشك أن كتاب أثر التسلح في التاريخ هو من اعمق الكتب التي كتبها هذا المفكر العسكري العظيم ان لم يكن أهمها . ففي الوقت الذي يبلغ فيه الجدل البشري أشده ، في هذا الموقف الحرج الذي خلقه نمو الآلات هذا النمو الهائل ، يهيب بنا هذا الكتاب ، بسمو المواضيع التي يضعها على بساط البحث ، والطرافة والصراحة التي يعرض بها الموضوع ، الى فحص الضمير الانساني فحصاً عميقاً .

يبحث المؤلف في الماضي عن القوانين العامة ، متبعاً المنهاج المدرسي . وقد

استعرض التاريخ العام بطريقته الخاصة كي يظهر الأثر الجوهري للتسلح ، منذ الحروب الميدية (١) حتى يومنا هذا ، مبتدئاً بعصر الجرأة ، ثم عصر الفروسية فعصر البارود ، فالبخار ، فعصر النفط ، منتهياً بعصر الطـــاقة الذرية الذي دخلنا فيه .

هذا العرض الشيق الذي يعتمد على وقائع ثابتة،وتأملات فلسفية ، يستوعي انتباه القارىء فيه مظاهر الحوادث التي لم يلفت الأنظار الى اهميتها أحد قبله .

وفي هذا التاريخ الزاخر بالحياة الذي يشبه القصة ، يكشف الجنرال فوللر عن عدد من القوانين التي اثبت الاختبار صلاحيتها كأساس للنبوءات المتينة .

وأول هذه القوانين هي التفاعل المتبادل بين الحرب والحضارات. فمن جهة نرى ان الصفات الرئيسية للحضارة هي التي تطبع الحرب بطابعهـــا . وهكذا أتت الحضارة المسيحية في القرون الوسطى بحروب الفرســـان ، كما اسفرت الحضارة الصناعية للقرن التاسع عشر عن حروب العتـاد التي خضناها بأنفسنا . ومن جهةأخرى نرى الحرب تورث الحضارات تسارعاً في سيرها . فهذه الحاجات الضخمة التي تخلقها الحرب ، تنشط التركيز الصناعي العظيم ، وتضع أسس نظام الآلة . وفي الحقب التي يتيح فيها التسلح رجحان كفة الهجوم ، تشجع الحروب على خلق الأمبراطوريات العظمى . ومن أهم ملاحظات الجنرال فوللر العميقة قوله : « إذا كان على الحرب في الماضي أن تتلاءم مع الحضارة السائدة ، فإن مما يؤسف له اليوم اننا دخلنا المرحلة الثانية : حيث أصبحت الحرب هي التي تأمر وعلى الحضـــارة ان تلائم نفسها مع مقتضيات هذه الحرب . » وهكذا يلوح المستقبل ، على ضوء هذا القانون الاول ، حالكا بالنسبة لاولادنا .

والقانون الثاني الذي اكتشفه المؤلف يقتصر مفعوله على نطاق الحرب المحضة فقد أعلن عن فكرة سبق أن رددها خلال النزاع العالمي الاول ، وهي ان كسب الحرب رهين دوماً بالتسلح الممتـاز ، أو أنه يدخل في كسب الحرب بمعدل ٩٩٪ .

وهذه الملاحظة الجريئة تخالف عدداً من التصريحات التي أدلى بها كثير من

---

(١) حروب الفرس واليونان في القرن الخامس قبل المسيح .

كبار القادة العسكريين عن أهمية العوامل المعنوية : كالانضباط ، والشجاعة ، وقيمة القيادة . هذه الملاحظة قد أصبحت حقيقة مخيفة ، وقد برهن عليها ظهور القنبلة الذرية .

وظهور القنبلة الذرية إن هو الا ظـاهرة خارقة ، تؤيد القانونين الذين أتينا على ذكرهما . إذ أن الميزة العلمية للحضارة الحالية لابد أن تقود الى الاسلحة العلمية ، وتؤول الى عهد حروب المخابر ، تلك الحروب التي تقوم بها الآلات التي تحير العقول . في حين تجعل هذه الفاعلية الهائلة للاسلحة المصنوعة ، تجعل العوامل المعنوية شيئاً لايذكر .

ويبدو مقدماً ان القنبلة الذرية أصبحت حجر عثرة في وجه القانون الثالث الذي وضعه فوللر قانون . « العامل التعبوي الثابت » وهو يعني أن ظهور أي سلاح جديد ، كان يتلوه دوماً ، تحسين مضاد لسلاح آخر ينازع الأول تفوقه المفرط الذي تمتع به في برهة ما ، سيان أطال الفاصل الزمني بينهما أم قصر . وليس من الضروري أن يكون هذا التحسين المضاد سلاحاً دفاعياً . إذ قد يكون أداة هجوم جديدة لاتقل قوة عن الأول . وهكذا استحال منع قذائف المدفعية من اصـابة اهدافها . الا انه أمكن رمي المدافع بمدافع اخرى . والبارودة التي كانت سلاحاً حاسماً ، أصبحت سلاحاً عادياً منذ اللحظة التي عم استخدامها العالم أجمع ، دون ان يكون ثمة درع يمنع الرصاصات من اصـابة القطعات العدوة . والنتيجة الوحيدة المحققة ، هي أن تقدم السلاح المستمر جعل الخسائر في الأرواح تزداد من قرن لآخر .

ماعسى أن يكون نصيب الأدوات الحربية الجديده التي ستتمخض عنها مخابر العلماء ، وكيف يفقد السلاح الذري أهميته الحاسمة ؟

يصف لنا الجنرال فوللر بصورة مقدمة حرب المستقبل التي يقوم بها الانسان الآلي (١) . الهائل ، إذ يقاتل تلك الآلات بعضها بعضاً ، على ارتفاع مئات الكيلو مترات عن سطح الارض . « وقد تفلت بعض الصواريخ ، فتصيب لندن

---

(١) Robots

أو باريس ، أو نيويورك فتقذف بها في مهب الريح غباراً متناثراً ، ودخاناً متصاعداً في الفضاء السحيق وهكذا استمر الحرب الى ان ينسف آخر مختبر علمي . » وعلى الرغم من هذه اللوحة القاتمة فهو يرى ان قانون العامل التعبوي الثابت هو قانون ابدي ، واستخدام الطاقة الذرية في نفع الانسانية هو الترياق ضد القنبلة الذرية . اذ يتيح استخدامها صنع « وسائل نقل جوية تقطع آلاف الكيلومترات بالساعة ، حاملة في جنباتها آلاف الاطنان . » واسطول كهذا سيعيد الحرب الى شرائطها « العادية » ويتيح الاحتلال السريع لبلاد العدو . ولكن هذا لايحل المشكلة . اذ ان استخدام القنبلة الذرية ، وان لم يعد بعد ذلك حاسما ، إلا أنه على كل حال أشد فتكا بالعالم مما لو كان حاسما . وها نحن نصل الى صلب الموضوع . اذ ان العالم يواجه الآن مسألة مخيفة ، فالحرب المقبلة توشك ان تكون نذيراً بسلسلة من الاضطرابات والهزات العنيفة الهائلة تندثر فيها حضارتنا الآلية .

فهل بوسعنا إلغاء الحرب ؟

يجيب الجنرال فولار بالنفي ، ولكنه يرى أن من الممكن جعلها إنسانية ، اذ ان المفهوم الوحيد المعقول للحرب هو ان تكون ذريعة لسلم أصلح بدلا من ان تكون مشروع تدمير من اجل التدمير فقط ، ديانة فناء مخيفة .

يقابل الجنرال فولر بين هذين المفهومين اذ ينعت الأول « بالمفهوم الكلاوزويتزي » ، والثاني « بالمفهوم التشرشلي » وهو يؤكد امراً هاماً وهو ان الحرب بالنسبة لكلاوزويتز » هي بصورة حصرية وسيلة تستخدمها السياسة للوصول الى هدفها وهي بلا ريب الوصول الى كسب البلاد . او بالحرى كما يقول كلاوويتز « ان اخضاع وجهة النظر السياسية لوجهة النظر العسكرية هو امر مخالف لما يمليه العقل السليم ، فالسياسة هي التي تعلن الحرب . والسياسة هي العقل الواعي المميز ، والحرب ليست سوى مجرد وسيلة فقط ، لا العكس وينتج عن هذا أن اخضاع وجهة النظر العسكرية لوجهة النظر السياسية هو الأمر الوحيد الرشيد . »

أما المفهوم « التشرشلي » ، فعلى العكس ، هو مفهوم حرب حتى الموت ، تكون الاولوية فيه لوجهة النظر العسكرية التي تسمح بارتكاب أشد الأجرام

بشاعة ضد الحضارة ، بحيث تتوارى عن الانظار الغاية السياسية التي دعت الى الدخول في الحرب .

وبقدر مايبدو لنا الامر خارقاً للطبيعة لاول وهلة ، الا ان الامر الذي لاريب فيه هو ان هذه الشعوب المسماة « المتمدينة » قد ظهرت خلال الحرب الاخيرة اشد بربرية وهمجية مما كانت عليه القطعان العريقة في الوحشية في القرون الخالية . فاعمال النفي بالجملة والاشغال الشاقة ، والمذابح العنصرية ، والحرب الجوية الشاملة التي استهلت بمآسي هيروشيما التي هي من فعل الابالسة ، لاتقل شناعة وبشاعة عما ارتكبه المغول وبرابرة الشمال ، اذ لم يسبق منذ عهد المسيح أن رأينا الشعوب الغربية تدرس باقدامها أشد قواعد الاخلاق قدسية ، باسم السخرية التي أطلقوا عليها لقب « الضرورات العسكرية » نعم قد يستشهد المرء في التاريخ بفظائع الحرب التي ارتكبت في حرب الثلاثين سنة ، كمذبحة الثلاثين الفاً من سكان مدينة ماجدبورغ ، أو سواها من المجازر البشرية . على ان هذا التطرف كان نادراً ، وكان مستهجناً ممقوتاً على العموم من قبل الرأي العام ، حتى من قبل كل قائد عام ، اذ ان هؤلاء القادة كانوا يفهمون جيداً مصالحهم ، ويعلمون حق العلم أن من العبث تحطيم ماتحلم الدول بضمه الى بلادها في النهاية . وعلى العكس ، فإن الصحافة والرأي العام في مختلف البلدان قد دعمت خلال الحرب الاخيرة الرأي القائل بالحرب « دون قيد او شرط » . حتى ان بعض الكتاب ذهبوا الى القول بأن القصف الجوي الثقيل ، — وهو سبب التدمير الهائل لكثير من المدن الكبرى — يمكن اعتباره منقذاً للحضارة! ومما يؤسف له ان القصف الجوي الوحش لم يعد كونه زاد صلابة اعدائنا وضاعف كراهيتهم وبغضهم لنا مما دعم ارادة المقاومة لديهم ، فكانت هذه البغضاء المتأصلة سبباً لاثارة الحرب في المستقبل

في هذا السقوط الاخلاقي المريع ، اجد مبرراً كجندي لابداء الملاحظة التالية وهي أن الجنود لوحدهم عرفوا خلال النزاع العالمي الاخير احترام قوانين الحرب ، وفيما خلا بعض الظروف النادرة ، كانت جميع التدابير التي تقعشر

هولها الأبدان والتي سبق ان اشرنا اليها ، تقرر من قبل كبار الرؤساء من المدنيين ، وتنفذ من قبل اجهزة بوليسية لاعسكرية . وحتى في اشد الظروف العصيبة ، كانت الجيوش في الميدان تمارس هذه الاساليب بصورة نظامية صحيحة مع خصومها ، فتعنى بالجرحى ، مهما كانوا ، وتعامل الاسرى معاملة انسانية . ولا شك بان المثل القائل : « عامل الغير بما تحب ان يعاملوك به » هو شيء من هذا القبيل ، وهذا مما يعيد الاعتبار لكثير من القادة العسكريين الذين انتقص منهم لما نسب اليهم من تهم مفتراة في هذا الصدد .

وهذا مايجعلنا نفهم الجنرال فوللر حين ينتصب مهاجما بقوة لاهوادة فيها أحكام الموت ، التي تصدر على القادة العسكريين المغلوبين ، كمجرمي حرب ، إذ يعتبرون هم وحدهم كبار المجرمين . ولاريب في أن مديري دفة السياسة من كبار رجال الدولة المدنيين لدى الحلفاء ، يحملون مسؤولية جسيمة امام التاريخ لما صدر عنهم من اوامر بتدمير وتخريب مدن العدو الكبرى ، تلك المدن التي تمثل جزءاً هاما من اسس الحضارة والثقافة الاوربية .

وبرأينا أنهم على السواء قد اجترحوا سيئات لاتغتفر . واذا قدرنا ، كمافعل فوللر ان القصف الجوي السوقي كان إفلاساً للحضارة ، حق لنا ان نفكر بان نقاط أهدافها كان يمكن أن يكون اختيارها افضل مما كان عليه ، اذ كانت تستهدف الاحياء والشوارع الكبرى في المدن ، حيث توجد بوجه عام المتاحف والكنائس والجوامع ، والجامعات ، وغرف التجارة ، والمعاهد ، بدلا من ان تستهدف المعامل او مستودعات المواد الحربية .

يضاف الى هذا ان الحلفاء بتدميرهم المدن ، قد خربوا بلاداً اصبحت اليوم عبئا ثقيلا عليهم ناهيك عن النتيجة السياسية التي حصلت في النطاق الدولي وهكذا لم يعد المفهوم « التشرشلي » ان جعل الظافرين يشتغلون في خدمة المقهورين ، فيا لها من نتيجة محزنة لمذهب لاخير فيه !

فالحرب ينبغي ان يكون لها في آن واحد معاً هدف ظاهر سياسياً ، وقابل

لتحقيق بواسطة الاسلحة عمليا . ولمثل هـــذا يجب ان يعمل ويفكر رؤساء الحكومات .

على ان تصور الأهداف الطاهرة سياسياً يقتضي من هؤلاء شعوراً اخلاقيا سامياً . وفي الحقيقة اذا نحن فكرنا تفكيراً مجرداً عن الاهواء . سرعان ما يتضح لنا بان الحرب لا يمكن ان تسفر عن نتائج طيبة الا اذا انتهت بمعاهدة يطبقها الفريق المنكسر . وهذه البداهة التي غابت عن الانظار مدة طويلة ، كانت معروفة جيداً من قبل الرؤساء الذين نحط من شأنهم بتسميتهم « برابرة » ، ففي عام ٥٠٣ م ، انتصر كلوفيس ملك الفرنجة على الالمان ، وهم القبائل الجرمانية على نهر الرين اذ ذاك ، فأراد ان يستأصل شأفتهم ، ولكن تيودور ملك القوط كتب اليه يقول : « اقبل النصح من رئيس مجرب ، ان حروبي التي اقترنت بخير النتائج هي تلك التي اقترنت نهايتها بالرفق والاعتدال . » وقد قبل كلوفيس نصح تيودور ، فكان بذلك أشد ذكاء وأبعد في النبل الاخلاقي من كبار رجال الدول الحديثة .

اذن لكي تكون السياسة قيمة ، يجب ان تستوحى من اهداف ذات قيم اخلاقية سامية ، فهل هذا ممكن في عصر تسوده المادية كعصرنا هذا ؟ في عهد نبدو فيه وقد دسنا بأقدامنا كل فكرة للعدالة والرحمة ، حيث حيا الجماهير مذابح كافنتري وهامبورغ بالتهليل في صحف المدن الكبرى للعالم « المتمدين » حيث نشهد اليوم بدلا من نزع السلاح العام ، تسابقاً جنونياً في التسلـــح ، والبحث عن وسائل التدمير الاشد هولا وفاعلية ؟

لا شك أن دارس التاريخ العام لا يرى الا ظاهرة شد ما تكررت في تاريخ العالم . ولا ريب أننا نشهد نهاية حضارة مصيرها الانتحار ، لانها فقدت الحس بالقيم التي تجعل الانسان خليقاً بتسمية ســيد الخليقة ، وتجعل منه شيئاً آخر يختلف عن البهائم . ولابد لنا من أن نتخيل أن هذا الانتحار المخيف للامم التي تقطن الجزء الواقع بين درجة عرض ٣٠ و ٦٠ من الكرة الارضية ، لابد أن تعقبه ولادة بعث روحي جديد يؤدي الى خلق حضارة جديدة ، تنطلق من منطقة مختلفة تام الاختلاف من هذه الارض : كالهند ، والصين ، أو أفريقيا

الجنوبية . ولا شك أن هذه الحضارة الجديدة ستبقى كما بقيت حضارتنا ، الى ان يأتي اليوم الذي تفقد فيه المفتاح الذهبي للوجود : وهو القانون الاخلاقي .

ومن الثابت اننـــا لسنا أكثر ثقة من الجنرال فولار بقدرة منظمة الامم المتحدة على تفادي نزاع وشيك الوقوع . كما وان السلم الذي يقوم على اسس من القواعد والاعراف وقوانين الحرب ، كما هو الحال في القرن الثامن عشر ، لا يمكن أن ننظر اليه بشيء من التفاؤل ، كثر هذا التفاؤل أم قل .

ومن حسن الحظ أن هناك حلول اخرى . الاول هو السلم الذي تفرضه روسيا السوفييتية أو اميركا ، في حالة تغلب احدى هاتين الدولتين على الاخرى وقهرها ، فيصبح الحال كما كان عليه ايام الامبراطورية الرومانية ، حيث بسطت سلطانها على العالم المتمدن بأسره . ولكن هذا الحل يفترض في ذاته مقدماً وقوع حرب عالمية ثالثة لا تطيقها حضارتنا ، لهذا فهو حل غير مرض .

أما الحل الثاني فهو الحل الذي سلكته بريطانيا في القرن التاسع عشر ، اذ اتاح لها تفوقها البحري ان تلعب دوراً هاماً في سياسة التوازن ، بان تحصر النزاع في البقعة التي ترغب في حصر النزاع فيها .

والقصد الآن هو ان نعيد بنـــاء قوة ثالثة في اوربا الغربية ، تستطيع اذا انحازت لاحدى الكتلتين ، أن ترغم مسبب الحرب على التراجع . ولكي يكون لهذه القوة الثالثة وزنها ، ينبغي أن يكون لديهـــا قوات مسلحة واسلحة أهل لترجيح احدى كفتي الميزان على الاخرى ، وان تكون لها حكومة مؤلفة من رجال سياسيين لديهم فكرة سليمة عن حقيقة الحرب لا تشوبها شائبة .

ويمكن القول بصورة مقدمة أن هذه الفكرة قابلة للتحقيق ، ولكن لابد قبل كل شيء من أن تخرج الامم في أوربا الغربية من هذا الانحلال الذي القتها فيه نتـــائج النزاع الاخير ، إذ يبدو أن عهد الصعوبات لابد ان يكون أطول بكثير مما نتصوره .

فهل هناك فرصة اخرى تمكن حضارتنا من تفادي الانتحار؟ ليس ثمة أدنى شك في اننا على أبواب حروب المخابر ، الحروب العلمية التي يلعب فيها عدد قليل من العلماء دوراً يزداد اهمية من يوم لآخر في مستقبل هذا الكوكب السيار .

فها نحن قد أوشكنا على الخروج من حروب الكتل الجماعية البشرية . فالأمركما قال يوليب في حديثه عن ارخميدس : « هناك لحظة يمكن فيها لعبقرية رجل واحد أن يجعل الفشل نصيب، جمع غفير من الاعداء . »

فمنذ اللحظة التي يغدو فيها مصير الحروب في يدي نفر قليل من كبار العلماء، شريطة أن لاينصاع هؤلاء الى رغبات رجال السياسة ، اذن ظن خيراً ولا تسأل عن الخبر .

إذ أن العلم الحديث في القسم الاعظم مشبع بالافكار ذات الصبغة الاخلاقية السامية ، بعد أن نزع عن مذهب السببية العلمية المطلقة كل ماران عليه من أخطاء وفتح ابوابه على مصراعيها للمذهب الروحي . ونحن لاننكر أن بامكاننا ان نتصور العلماء في بعض البلدان يميلون الى تفضيل مفاهيمهم السياسية على افكارهم الاخلاقية .

وتقضي الضرورة اذ ذاك باللجوء الى حرب هائلة اخيرة ، تكون آخر حرب أهلية في قلب حضارتنا الغربية .

أما أنا فلا أرى ضرورة ذلك . فحتى في البلاد التي تكلمنا عنها سابقاً قد نأمل أن لايدوم النصر طويـــلا للمـادية . واذا كان (ر قاص) نواس الفن العسكري يتأرجح بانتظـــام من الهجوم الى الدفـــاع ، فان نواس الاخلاق البشرية ليست اقل انتظاماً في تأرجحها من الروحية الى المادية . ونحن نأمل أن يكون اتجاه نواسه في طريق التبدل باتجـاه معاكس من المادية نحو الروحية .

اذ ليس لنا خيار في ذلك فمن جهة إما أن تندثر حضارتنا برمتها ، أو على الاقل ، نسير في سنن التطور الروحي . ومن جهة اخرى خضوع عام لفئة قليلة من العلماء المتنورين الذين هم على جانب كبير من القيم الخلقية السامية ، ينشرون السلام في ربوع الارض ويسود مايسميه أحد المؤلفين بعهد النسر الذهبي .

وهكذا فان مستقبل عرقنا الاوربي أصبح في ايدي أعلى طبقاته وهم العلماء وقد لمسنا ان هذه الطبقة المستنيرة أخذت تشعر بازدياد اهميتها فهي لابد ان تعمل في الاتجاه التي تتجه اليه آمالنا ويحقق امانينا .

والطاقة الذرية هي كلســان ايزوب (١) يمكن ان تكون في آن واحد مصدراً للخير أو الشر . وقد لاتقل أهميتها في تقدم انســانية عليا عن اهمية اكتشاف النار بالنسبة لحضارتنا . كما يمكن أن تكون أداة اندثارنا .

أعط طفلاً ناقص النمو العقلي شعلة ملتهبة ، تراه غير أهل للاستفادة منها . اذ قد يستخدمها عبثاً ، فيحرق أخاه الصغير في مهده ، أو يشعل النـــار في البيت الذي يأوى اليه اهله . وعلى العكس اذا كان اكبر عمراً ، استطاع الاستفادة منها بتعقل ، في تدفئة البيت ، وطهي الاغذية اللازمة لحياة العائلة .

وها نحن الآن أمام الاكتشـــاف الهام الذي انتزعه العلماء الملتفين حول اينشتاين وبوهر وفرمي من صميم الطبيعة المغلقة فلمـــاذا يجب ان يستعمل هذا الاكتشـــاف لاغراض تخريبية ؟ لان الامر كان كذلك منذ ان استعمل الانسان الاول اول أداة كسلاحه الاول . ولان عبقريته المبدعة قد افسدت حسه بالقيم الخلقية ، وهي اذا لم يحترز منهـــا قد تقلبه الى مجرد قطعة من قطع الآلات .

من الجدير بنـا ان نفهم هذا حق الفهم . وأن نرى بوضوح وندرك الاثر الكبير الذي كان للتسلح في تاريخ الانسان في كل الأزمان .

---

(١) ايزوب : شاعر يوناني ، (القرنين السابع والسادس قبل المسيح) كان عبداً ثم استرد حريته ، وقصة السنة يزوب هي ان سيده زانتوس امره بان يبتاع له من السوق خير مافي هذا السوق من اشياء ، فلم يبتاع ايزوب سوى السنة وحجته في ذلك ان اللسان هو خير الاشـياء وافضلها ، لانه صلة الحياة المدنية ، ومفتاح العلوم ، وأداة الحقيقة والفكر ، والصلاة الخ . ثم أراد سيده ان يحرجه ، فأمره في اليوم الثاني أن يبتاع له من السوق أسوأ مافيه ، واذا بايزوب يقدم لسيده مائدة عليها السنة قائلا ان اللسان هو أسوأ واقبح مافي الدنيـا فهو أم الجدل والخصام ، وينبوع التفرقة والخلاف والحروب ، وأداة الخطأ والرزيلة ، والكفر والفحشاء .

الفصل الأول

التسلح والتاريخ

يقول الفيلسوف الالماني كلوزويتز : « الحرب بمعناها الدقيق هي القتال .... وإن ضرورة القتال دعت الانسان بصورة ملحة للتفكير بالمخترعات التي تستهدف بصورة خاصة ضمان النصر وكسب المعركة ولقد تنوعت طرائق القتال تبعاً لذلك . ولكنها بالرغم من هذا التنوع . فقد بقى المبدأ كما هو لم يتغير ، وبقيت المعركة هي العنصر الاساسي في الحرب .... فالمعركة هي التي تحدد كل ماله علاقة بالأسلحة والعتاد وهذه بدورها تعدل من طريقة القتال » فهناك إذن تأثير متبادل بين كل منهما .

يمكننا إذن أن نلخص فن الحرب بقولنا إنه عبارة عن آلات من جهة ، وطرق استعمالها من جهة أخرى . فالشق الأول يشمل الأسلحة وصنعها وإعدادها والثاني يشمل العمليات العسكرية والسياسة . ويعرف كوينسى رايت (١) فن الحرب بأنه « فن إعداد الآلات العسكرية لدحر كل عدو عارض بأدنى خسارة ممكنة ، حتى اذا ما ظهر عدو ما ، استخدمت هذه الآلات العسكرية بأكبر فعالية ممكنة .... أما من ناحية الاعداد ففن الحرب قضية تتعلق بأنواع الاسلحة ،

---

(١) مؤلفات كتاب دراسات في الحرب . المطبوع عام ١٩٤٢ بالانجليزية

وبالعتاد والتنظيم . ومن ناحية استخدام الأسلحة ، فالأمر يتعلق بالتعبئة وبالأصول الستراتيجية والتكتيك الحربي »

هذا مع أن كلمة « تسلح » بمعناها الكامل تشمل كل اسباب الحرب ، من قوى بحرية وبرية وجوية لبلد ما ، الا أنني سأقصر البحث على دراسة التسلح بمعناه الضيق ، أي مايتعلق بالأسلحة والوسائل الاضافية المساعدة التي تخاض بها المعارك ، وتشن بها الحروب . فالأداة العسكرية ، كما يقول كوينسي رايت « هي ماهية اجتماعية أو مادية تستخدمها الحكومة لتحطيم أو الحد من قوة حكومة أخرى عن طريق الوعيد أو العنف ، أو لصد مثل هذا التحطيم أو السيطرة . » وقد قال الأميرال برادلي (١) « إن كل أداة تستخدم في الدفاع أو الهجوم فهي سلاح ، فالسلاح هو عبارة عن أداة تستعمل في الحرب » أما أنا فأفضل من ناحيتي تعريفاً أدق من هـــذا فأقول ان السلاح هو « آلة تتصف بقوة مدمرة » فالدروع والخوذات ليست أسلحة ولكنها وسائل للحماية من الاسلحة ، كما وأن السفن والدبابات والطـائرات أسلحة ايضاً ، وانما هي بواخر وعربات تستخدم في نقل الأسلحة . والخطوط الفاصلة بين مجالات الهجوم والدفـــاع والحركة شديدة الارتباط ببعضها ، وستزداد هذه الرابطة شدة بتقدم الآليات .

وإن اسهل الطرق في تتبع تقدم التسلح هو أن نبدأ منذ البداية أي الصراع التي يقوم بين رجلين أعزلين لاسلاح لديهما سوى الاطراف الأربعة والأسنان . يتضح لنا إذ ذاك أن الضرب ، وتفادي الضربات والمقاومة والحركة هي التي تشكل عناصر التكتيك ، يضاف اليها العناصر المعنوية : كالارادة ، والصلابة ، والرعب ، ثم يضاف اليها بالتالي عنصر التموين الاقتصادي ، عندما يبدأ المتحاربان بقذف الحجارة ، وهو التموين بالمقذوفات (الذخائر) ثم الامداد بالرجـال ، وأخيراً بالأرزاق .

ويمكننا أن نعزو الى هذه العناصر بالذات « قوة هجوم حقيقية » اذ يمكن الحط من معنويات العدو بالتهديد والصراخ واعمال العنف والشراسة ، كما يمكن تعريضه للمجاعة عن طريق السلب والتخريب وفرض الحصار .

---

(١) صاحب كتاب فن القتال ، ظهر كتابه سنة ١٩٢٠

ومن المفيد أن نذكر بهذا الصدد أن الأسلحة المعنوية التي كانت تستعمل في القرن الحادي عشر وهي اللعنة ، والفصل عن الكنيسة ، والحرمان ، كان لها قوة تفوق الأسلحة العادية ، وأن الحصار الذي فرضه الحلفاء في الحرب العالمية الأولى كان أحد الأسلحة الهامة وأشدها أثراً في انهيار الدول المعادية.

والرجل الأعزل ، من وجهة تعبوية (تكتيكية) ، هو أقل اهمية من كثير من الحيوانات اللاحمة أو آكلة العشب ، إذ ليس له قوة الثور ، أو جلد الكركدن ، أو أنياب النمر ومخالبه . ولكنه استطاع قهر هذه الحيوانات بذكائه .

وسواء أخذنا برواية التوراة أو نظرية داروين في أصل الانسان ، فإن الانسان ساكن الجنان ، والانسان القرد ساكن الغابات لم يكن لديهما وسيلة دفاعية ، ولولا ذكاؤه الحاد - وهو أمضى سلاح - لما استطاع البقاء . وهذا الضعف التعبوي بعث فيه الدهاء والحيلة الى أن تطور من طور الدفاع الخاص بالطريدة ، الى طور الحياة الهجومية للصياد . ولقد قال توماس كارليل : « ليست الحيوانية الوحشية شيئاً يذكر ، بل الروحية المبدعة هي كل شيء . » ولقد كان الفيلسوف برغسون على حق حين جعل ظهور الانسان الحقيقي « في الحقبة التي صنعت فيها الأسلحة الأولى ، أي الآلات الأولى . » وهذا هو رأي كارليل إذ يقول على لسان استاذه الخيالي في أحد كتبه : « الانسان هو حيوان يستخدم الآلات . . . وهو أضعف الحيوانات ذات الرجلين ، فثلاثة قناطير من الوزن تسحقه ، ويستطيع العجل أن يقذف به في الريح كرقعة . ولكنه مع هذا يستطيع استخدام الآلة في صنع الآلات . وبفضل هذه الآلات تتحول جبال الصلب الى غبار خفيف ، وهو يلين الحديد فيصبح كالعجين ، وما البحار بالنسبة له سوى طرق متحدة ، والريح والنار طوع أمره . وقلما تجده بدون آلات ، فهو لا شيء بدون آلات وهو كل شيء بوجود الآلة . »

ماهي آلة الانسان الأولى ، وسلاحه الأول ؟ لأن الصناعة والحرب كانا في البداية شيئاً واحداً ، كما هما الآن على وشك الاتحاد من جديد . يأخذ الكثيرون برأي المفكر الالماني لويس مامفور (١) ، إذ يذهب هذا « الى أن أول

(١) في كتابه الفن والحضارة .

آلة فعالة . . . هي عبارة عن قطعة من الحجر استخدمتها يد الانسان كالمطرقة »
غير انه يمكن أن نأخذ بفرضية أخرى . وهي أن اكتشاف النار قد سبق اكتشاف المطرقة الحجرية . وقد كتب الدكتور نيكولا يقول : « ان النار هي التي جعلت الانسان سيد العالم وليست الحيوانات الداجنة . فعندما تمكن الانسان لأول مرة من استخدام كافة حرارة الشمس المخزونة في النباتات في توليد النار تيسرت له امكانيات جديدة تزيد من قوته ، مما مهد له طريق التقدم في تحويل الطاقة ، الأمر الذي يبيح لنا أن نقول أن الأشياء قد تغيرت تغيراً تاماً منذئذ . وقد ذهب مافور هذا المذهب اذ قال : « أن إله النار إذ وهب الانسان النار كان الدافع الأول للفتوحات ، لأن النار لم تتح طهي الأطعمة وسهولة هضمها فحسب ، بل لقد (أبعد) لهيبها الحيوانات المفترسة ، وكانت في الفصول الباردة وسيلة لتنظيم الحياة الاجتماعية حولها بدلاً من أن ينطوي المرء على نفسه خلال فصل الشتاء .

وهناك فرضية ثالثة : وهي أن إنسان الغابات ظل خلال عشرات آلاف السنين يرقب الحيوانات ذات الاوكار كالأرنب مثلاً ، وهي تخرج من أحجارها . ويبدو أن أسهل طريقة لاقتناصها ، هي في التقاطها اثناء خروجها زاحفة من حجرها . وقد قاده هذا الى حفر الارض ، بيديه أو بأصداف البحر ، أو بالحجارة أو بكسر العظام أو قطع الاخشاب ، ليصنع منها حفراً تكون بمثابة فخ لفريسته .

نحن الآن إذن أمام ثلاث أصول ممكنة للآلة المستعملة كسلاح وهي : المطرقة ، والنار والمنكاش . ويصعب علينا أن نقول أيها كان الاول استعمالاً ، ولكن الأمر الثابت هو أن الانسان أخذ منذ البدايه في تحسين طريقته في الضرب واشعال النار ونصب المصائد تحسيناً تدريجياً .

ومنذ أن ظهرت الأدوات والأسلحة يصعب علينا أن نتصور قبيلة أو عرقاً استطاع البقاء مدة طويلة دون اقتناء سلاح ولا لكان عرضة للانقراض وهذا مايثبت لنا ان الانسان قد اضطر الى التسلح منذ البداية كيما يتمكن من البقاء حياً . وهذا الشرط لم يتغير كما سنرى ، وكان له تأثير عميق في مجرى التاريخ . ولما أصبح لدى القبائل اسلحة ، أي أدوات ، أضحى في مقدورها أن تفرض

احترام لقوانين وسيادتها لديها . فكما يقول ماكيافيللي (١) « لاتوجد قوانين صالحة الاحيث توجد أسلحة صالحة ، وحيثما وجدت اسلحة صالحة ترى قوانين صالحة . » وبعبارة اخرى لقد أتت سلطة الضابطة عن الاسلحة . واذا كان على حارس القانون أن لايتمرد على هذا القانون ، فلا بد قبل ذلك من ان يقتنع بصلاحه . وهكذا تقدم البشر نحو الحضارة كان بقوة السلاح وليس بفضل الزراعة والفلاحة . وقد أدى هذا التقدم الى اقامة اسس مجتمع لم يكفل للمرء قوته فحسب ، بل ادى الى خضوعه للقانون .

ومن المحتمل ان تكون الادوات الزراعية والاسلحة قد بقيت متشابهة خلال قرون عديدة متتالية ، ولم يكن هذا التشابه وقفاً على العصر الذي كان الانسان يحرث الارض فيه على الطريقة البدائية الاولى ،وقدقال احد المؤرخين الثقات : « لقد كان يستحيل في ذلك العهد الاول أن ترى حداداً واحداً في أرض بني اسرائيل ، فقد كان الفلسطينيون يقولون : « ينبغي أن لايصنع العبرانيون سيوفاً ورماحاً . » بل لقد كان الاسرائيليون كافة يذهبون الى الفلسطينيين لشحذ محاريثهم وفؤوسهم ومعاولهم .

وهناك أمثلة كثيرة من هذا القبيل . وحتى في سنة ١٩٤٠ ، عندما استولى الذعر على بريطانيا من غزو المظليين الالمان ، فقد كنت ترى عمال المزارع مسلحين بالمدارى والفؤوس والسواطير ليقاتلوا بها جنود المظليين الالمان في حال هبوط هؤلاء في أراضيهم .

وهناك مثال نموذجي على الثورة الشعبية وهو تمرد مازانيللو الايطالي على حكومة نابولي سنة ١٦٤٧ ، وهو التمرد الذي لم يطل امده الا أنه كان حدثاً هائلًا من نوعه : وقد ذكر التاريخ « ان الجنود كانوا يسيرون وسيوفهم مشرعة وبنادقهم ذات الزناد الصواني مسددة ،وكانوا مسلحين ايضاً بالرماح والتروس ..

---

(١) في كتابه : الامير .

وكان الفلاحون ينطلقون نحو المدينة بجموع مسلحة بنصال المحراث والمعاول والفؤوس والاوتاد والادوات الاخرى ... في حين ان النسوة كن يسرن بجموع كبيرة مسلحة « بكريكات النار وادوات المطبخ . وكنت ترى الاولاد ايضاً يلوحون بالعصي متوعدين للنبلاء وهم يحرضون آباءهم على القتال . »

يتضح مما ذكر ان عدد الادوات التي يمكن استعمالها كسلاح ، كبير لايحصى ، لان كل مايصلح لحمله باليد والتلويح به أو قذفه فهو صالح للقتال . الا انه يمكن تصنيف مجموع الاسلحة في فئتين رئيسيتين : الفئة الاولى وهي التي تصلح للضرب المباشر ، والثانية وهي المقذوفات ، وتستخدم الاولى في القتال القريب ، والثانية في القتال على مسافات . وأشهر اسلحة الفئة الاولى هي العصي ذات العقد والعصي ذات الرأس الحديدي ، والرمح والسيف والفأس والحربة ، واسلحة الفئة الثانية هي الحجارة والسهم والنبل والرصاص والقذيفة والقنابل . ويمكن ان نسمي بعضها أسلحة بسيطة أو فردية تتوقف قوتها التدميرية على قوة عضلات الرجل ، في حين تتوقف قوة الثانية على الطاقة الآلية والكيميائية كالشد والتوتر والانفجار وهي التي تعطي لأسلحة الفئة الثانية قوة الدفع والانطلاق .

ويمكن تقدير قيمة كل من الاسلحة المذكورة على ضوء النقاط التالية :

ا — المدى

ب — القوة التدميرية

ح — الدقة

د — كثافة النار

ه — سهولة الاستعمال .

ويمكن تعريف هذه الخصائص بما يلي :

آ) ــ المدى : كلما زاد المدى او منطقة العمل كلما ازدادت سرعة تأثير القوة التدميرية .

ب) ــ القوة التدميرية : كلما ازدادت القوة التدميرية لسلاح ما ، كلما ازادت فعالية الاصابة .

ج) ــ الدقة : كلما ازدادت الدقة في تصويب السلاح وتسديده او قذفه ، كلما ازداد احتمال رمية للهدف .

د) ــ كثافة النـار : كلما زاد عدد الطلقات في فاصلة زمنية معينة ، كلما كان النتيجة عظيمة .

ه) ــ سهولة الاستعمال : بقدر مايكون نقل السلاح أو جره أو تغيير موضعه واستعماله سهلا ، يكون استعماله اسرع .

والخاصة الاولى من هذه الخصائص هي اهمها ، وهي وحدهـا ذات الدور الاكبر في المعركة .

اذن فالسلاح الرئيسي يحدد الدور الذي تلعبه باقي الاسلحة الاخرى . وبعبارة اخرى أن السلاح ذو المدى البعيد أو ذو منطقة واسعة من العمل يجب ان يكون اساس التركيب التعبوي . فلو وجد محاربون وكانوا مسلحين بالاقواس والرماح والسيوف : فالتكتيك عندهم يجب ان يقوم على اسـاس مرمى النبال ؛ واذا كان المحاربون مسلحين بمدافع وبنادق ورماح ، فان المدافع هي التي تؤخذ بعين الاعتبار ، واذا كانت الاسلحة طائرات ومدفعية وبنادق كانت الطائرات اساس التكتيك لهذه الجماعة المحاربة .

وليس من الضروري ان يكون السلاح الرئيسي هو السـلاح الاقوى او الاكثر دقة والاغزر ناراً أو الاسهل نقلا ، وانما هو السلاح البعيد المدى والذي يمكنه بفضل خاصته هذه ان يكون أول الاسلحة في دخول المعركة من أجل تغطية باقي الاسلحة الاخرى ريثما تستعد هذه الاسلحة لدخول المعركة تبعـاً

لخواصها الفنية والتعبوية وشروط استخدامها ،وعلى العموم كلما توفرت في السلاح الدقة و كثافة النار وسهولة النقل وقوة التدمير كلما ازدادت اهميته الحربية .

وقنابل الطائرات اليوم هي ابعد مدى واكبر قوة تدميرية واسهل نقلا من كافة الاسلحة الاخرى ، وهي السلاح الرئيسي ، نعم يقابل هذه المزايا في قنابل الطائرات المآخذ التالية : وهي ان دقه رمي الهدف من الطائرات ضعيفة ، كما وانها لاتشكل كثافة نارية كافية ، والنقص الثاني يتعلق بكمية القنابل المحدودة التي تحملها الطائرة مما يضطرها الى العودة بعد افراغ شحنتها الى قاعدتها للتمون بالقنابل من جديد . ولو امكن معالجة هذه النقائص لاصبحت الطائرة بحق سيد الاسلحة ، أي السلاح التي يتميز بكافة الصفات الحربية . لقد كان يظهر من آن لآخر اسلحة من هذا النوع ، ولكنها لم تعمر طويلا ، فاللهب المقذوف والمدفع والدارعة ، والبارودة كلها بلغت هذه الدرجة المثالية في الاسلحة أو اقتربت منها .

هذا ويجب أن تبقى خصائص الاسلحة هذه في الذهن حين نتطرق الى بحث الناحية التعبوية أي استخدام الاسلحة المتعاونة . فهذا الاستخدام يطرح على بساط البحث مسائل الحماية والمقاومة والصمود والتوقف والحركة والتنقل .

لقد كان الانسان ضعيفاً في الادوار الاولى لايملك وسائل حماية ، فكان فريسة للوحوش تطارده ولايملك مطاردتها لهذا اضطر بحكم الطبيعة الى ابتكار الوسائل التي تضمن حمايته قبل اختراعه للاسلحة بزمن طويل .

وكانت هذه الوسائل البدائية لضمان حياته تقتصر على التخفي والاختباء والتفتيش عن غذائه ليلا والعيش في المغاور والكهوف أو فوق الاشجار ، والاستفادة من صوته في تقليد اصوات الحيوانات ، واستخدام الكلام كسلاح معنوي ، وارتداء جلود الوحوش ...

ولم تكن حياته مقتصرة على الحذر والخيطة فحسب ، بل كان عليه ايضاً ان

يبقى على أهبة الاستعداد للقتال والصراع وحماية نفسه بصورة مستمرة ، وكان عليه ان يحيط مسكنه أو قريته الأولى بسور من الجذوع أو حاجز من الاغصان أو أن يقيم مسكنه أو قريته بين المستنقعات أو الجزر أو على ضفاف البحيرات أو فوق قمم التلال . ثم حاصر أخيراً في الحصون والقلاع ، وخلف سد الصين الكبير وخط ماجيز وكانت الغاية من هذه المنشآت تمكينه من الصمود ومنع العدو من الوصول اليه قبل نفاد مؤونته وتمكنه من الزود عن نفسه ، ولم تعد قريته المنيعة وحصنه الحصين ومدينته المسورة قواعد عسكرية فحسب ، بل غدت مراكز حضارته ايضاً .

ثم ظهرت فكرة الحماية هذه في ساحة القتال ايضاً : فكانت في البدء بشكل عصى ، أو غصن ، أو عظم حيوان ، ثم لما بدأت الادوات بالظهور ، أخذت شكل ترس ، وخوذة ثم ظهرت بالدرع حتى وصلنا الى فرسان القرون الوسطى المسلحين من رأسهم الى اخمص قدميهم كالسرطان البشري ، الى ان ظهرت الدبابة مؤخراً .

ولاريب في ان الرجل المسلح بسيف لا يمكنه ان يقارع خصما مسلحاً بسيف وترس معاً . وان كانا متساويين في النواحي الاخرى . وهذا يعني أن القوة الهجومية اذا لم ترافقها قوة دفاعية كانت أضعف من هاتين القوتين مجتمعتين .

ولا بد من التعمق في هذه الحقيقة البسيطة اذا اردنا ايضاح الحقيقة التالية وهي انه عندما تحل القطعة العسكرية محل المقاتل الفرد ، يجب ان تقسم القطعة الى فئتين : الاولى هجومية والاخرى دفاعية ،وتكون الثانية بمثابة قاعدة انطلاق محمية تعمل منها الاولى لتعود اليها بعد قليل وهكذا دواليك . وهكذا يقوم من الوجهة التعبوية أول تقسيم تكتيكي بين المحاربين : جماعة تكيل ضربات وأخرى تقاوم وتصمد للضربات . فاذا تقدمت الجماعة الاولى تمركزت الثانية وحافظت على هذا التقدم .

وكما ان مدى السلاح ومنطقة عمله هما من أبرز مميزات السلاح الهجومي ، فكذلك السرعة وقابلية الحركة في الهجوم هما الخاصتان الاساسيتان للهجوم . وقد عبر الجنرال لويد(١) عن هذه الفكرة بقوله : « ان اول مشكلة في التعبئة هي ترتيب عدد معين من المحاربين بشكل يستطيعون معه اقتحام المعركة والتنقل بمنتهى السرعة الممكنة . لان نجاح العمليات العسكرية تتوقف بصورة خاصة على هذه السرعة . فالجيش الاسرع حركة يتمكن دوماً من شل حركة العدو الأبطأ حركة منه ، وهو اسرع في زج اكبر عدد من المحاربين في المعركة وفي أي نقطة من الجبهة ، حتى ولو كان جيشه أقل عدداً من جيش عدوه ، وهكذا فان عامل السرعة على العموم هو العامل الحاسم في ضمان النصر . »

ان ترويض الحصان واستخدامه في الجيش سواء للركوب أو لجر العربات أحدث تغييراً اساسياً في قابلية حركة القطعات . وسنرى كيف ان هذا الحدث قد قلب اساليب الحرب رأساً على عقب ، لانه ساعد القائد الاعلى للجيش على استخدام فيلقين مختلفين احدهما متحرك يقوم بالضغط على العدو والثاني ثابت يقاوم اندفاع العدو .

ثم تبع هذا التقدم تقدم آخر ، اذ قسم كل فيلق الى مجموعتين . ففي الفيلق المتحرك مجموعة « استطلاع » ومجموعة « قتال أو صدم » وفي الفيلق الثابت مجموعة « مقاومة » ومجموعة « حماية » . وما كاد يمضي وقت قصير حتى تمثلت هاتان المجموعتان بالخيالة الخفيفة والخيالة الثقيلة والمشاة والمدفعية . وهي تتمثل في يومنا هذا بالطائرات والدبابات والمشاة والمدفعية بما فيها المدفعية المجنحة أي القاذفات .

وصفت الحركة بانها « روح الحرب » وهذا الوصف في محله لان الحركة هي العنصر الاساسي في القتال ، فهي في المعركة كالقوة في مدى السلاح . وحين

---

(١) صاحب كتاب تاريخ الحرب الاخيرة في المانيا

كانت قوة العضلات مصدر القدرة التي تقوم عليها الحركات العسكرية ، استند التنظيم التعبوي على امكانيات الخيل ، لان قوة الحصـــان العضلية هي اقوى بكثير من قوة الانسان ، وســـاد هذا الامر زمناً طويلا اذ لم يكن مدى الاسلحة وحجم نار المقذوفات شيئاً يذكر أذ ذاك ، وبظهور البارودة اشتدت قوة مقاومة جندي المشاة وكاد يتفوق على الفارس . وهذا التطور الذي طرأ في القرن التاسع عشر كان سبباً في انحطـــاط التنظيم التعبوي الذي لم يعد يستند على خاصة الحركة بل على عامل الضرب وأضحت كثافة النـــار الشغل الشاغل للرؤساء العسكريين .

وبظهور المحرك ذو الاحتراق الداخلي برزت الى حيز الفعل قدرة تفوق قدرة الانسان والحصان باضعاف مضاعفة ، ثم ظهرت السلاسل الحديدية التي لاتقل اهمية عن المحرك من الناحية العسكرية ، اذ ســـاعدت العربات ذات المحركات على التنقل والحركة في كافةالاتجـــاهات ،ومختلف الاراض من وعرة ومعبدة . وبتغليف هذه العربات بقشرة من الفولاذ وجدت الدبابة ،أي الحصان الآلي الجديد الذي يقاوم الرصاص ، ويفوق في قابلية الحركة جنود المشاة ، والذي أحرى به ان يكون محور التنظيم العسكري هذه الساعة .

ولو استثمر الرؤساء العسكريون هذه الفكرة الاساسية ، لما اكتفوا بايجاد دبابات وسيارات تقاوم الرصاص، وتجوب الاراض وعرها وسهلها ،بل لأوجدوا عربات تموين قادرة على الحركة في مختلف انواع الاراض ايضـاً . ولما كانوا اقتصروا على قطر مدفعيتهم الى الجرارات مصفحة كانت او غير مصفحة ، بل لكانوا ركبوا المدفعية على عربات مدرعة وذات سلاسل . وكان بوسعهم ايضاً ان ينقلوا المشاة في عربات من هذا النوع . والخلاصـة كان بامكانهم تشكيل جيش جديد من نوعه ، آخذين بعين الاعتبار الامكانيات التي أتت عن المحرك ذي الاحتراق الداخلي والتصفيح والسلاسل ، كما كانت الجيوش في عصر العضلات تنظم على أساس خواص الحصان ، والدرع ، والدواليب .

وسنرى ان الرؤساء العسكريين لم يفعلوا شيئاً من ذلك البتة ، ولم يفكر منهم أحد بان الحركة هي العنصر الاول الواجب اخذه بعين الاعتبــار في مسائل التنظيم .

وبكلمة موجزة تتشكل عناصر التسلح من قوى الاسلحة وامكانياتها من جهة، ومن التنظيمات التي تتيح الافادة منهـا من جهة أخرى . ولننتقل الآن لدراسة أثر التسلح في التاريخ بصورة عامة .

ان اول مايسترعي الانتباه هنا هو أن الحضارات تمر بأدوار تعيد نفسها . ومع ان كل حضارة ذات فردية خاصة الا ان مجموعهـا يمر بأطوار متشابهة في الولادة والنمو والتدهور والانحلال ، وتلعب الحرب دوراً هاماً في كل طور من هذه الاطوار . « ومما يلفت النظر ان الحرب البدائية لم تحدث اي تطور هام خـلال مئات الالوف من السنين ، في حين ان الحرب المتمدينة احدثت تبديلات واسعة خلال بضعة قرون وانسجمت هذه التبديلات مـــع مختلف مراحل الحضارة . وهذه التطورات التي نجمت عن الحرب عدلت بدورها من طبيعة الحرب . وهكذا انسجمت الحرب انسجاماً كلياً منذ البداية مع اطوار الحضارة التي مرت فيهـــا ، وقد عرفت هذه الحضارات في حداثتها ونضجها وشيخوختها نفس انواع الحرب . وقد كانت وظيفة الحرب الاساسية بلا ريب تأمين تتابع اطوار الحياة المختلفة لكل حضارة .

واذا كانت الحرب قد بدأت بتوحيد الامم فانها تنتهي بالتفريق بينها . فهي طالما تبقى أداة تطور وتبدل تقلب الحقل الاجتماعي كالمحراث فتجعل منه حقلا خصيباً لنماء بذر التجدد والتطور . وهكذا كلما طالت الحرب واستفحل شرها كلما كانت التبديلات التي تحدثها اكبر . غير انه اذا أعقب كل تغير حرب اشد هولا من التي سبقتها نشأت عندئذ عقلية حربية تسيطر فيها الروح العسكرية عندئذ تغدو السياسة اداة للحرب « فاذا كافح الجندي في سبيل السيادة ، ادى

الى خلق عرق من العبيد » كما يقول سامفورد . فاذا تم التبدل والنمو أعقبه الانحطاط ثم الانحلال التام ، وهذه هي اللحمة التي ينسج عليها التسلح سداه .
واذا انتقلنا من ادوار الحضارة الى التاريخ العام الذي ليست هذه الادوار سوى فصول فيه بدا لنا أن نتساءل عن اثر التسلح فيه .

ولو تأملنا التاريخ بنظرة فاحصة أي درسنا أي مرحلة من مراحله لكان أول ما يسترعي انتباهنا ان الحوادث تمر بصيغة مضاعفة من سلم وحرب .

والسلم ـ باستثناء بعض الشواذ ، ليس سوى فترة استعداد وتفريغ للحرب . وقد عالج كثير من المؤرخين والفلاسفة هذه الناحية بكتاباتهم ، ونخص منهم بالذكر ويليام جيمس الأميركي الذي يقول : « إن الحرب والسلم في المعجم الكامل يعنيان شيئاً واحداً بعينه ، تارة في طور القوة ، وأخرى في طور الفعل ، ومن الجائز القول بحق ان الحرب الحقيقية المستمرة هي الاستعداد الشامل للحرب ، حيث تتبارى الشعوب . وما المعارك سوى اختبار علني للتفوق المكتسب في فترات السلم (١) .

والأمر الثاني الذي يسترعي الانتباه هو أن طبيعة الحرب تتطور تبعاً للتقدم المدني وتغير المعتقدات ، كلما تكونت هذه المعتقدات حول الفكرة الأساسية لكل دور من ادوار الحضارة . فالدين في القرون الوسطى كان يضع للحرب حدوداً ثابتة ، وكان هذا التحديد عملاً أساسياً للعالم الروحي ، اما اليوم فإن الذي يضع حدوداً للحرب ، هو العلم ، الذي هو حادث أساسي في العالم المادي .

والأمر الثالث الذي يسترعي الانتباه وإن لم يكن على جانب من الوضوح هو أن الحرب وان كانت تتطور مع التقدم البشري الا أنها تؤثر بدورها في هذا التقدم ، فهناك تأثير متبادل بينهما . ومهما كان العامل المسيطر في هذا المرحلة التي ندرسها ، دينياً أو تجاريا أو صناعياً ، ومهما يكن النظام السياسي

(١) عن كتاب خواطر ودراسات لويليام جيمس الفيلسوف الأميركي .

والاجتماعي في هذه الفترة فالحرب تبقى ذات أثر فيها ، فقد يمكن قامة شتى النظم الاجتماعية ، من تيوقراطية ، وإلحادية ، وبلوتو قراطية ، واشتراكية ، وديموقراطية واوتوقراطية... الخ ، ولكننا حتى الآن لم نر مجتمعاً بدون حروب . ومع ان بعض النظم السياسية والدينية ، والاقتصادية والاخلاقية ، لايتطور فحسب بل قد يزول برمته من الوجود ، ومع ان النظم العسكرية بذاتها تتبدل ايضاً ، الا أن البشر لم يتوصل الى الغاء الحرب .

ولقد كان تطور الاسلحة وأساليب الحرب ، بتقدم مستمر ، باستثناء بعض الفترات القصيرة . فعبقرية الاختراع التي كانت تدفعها الحرب باستمرار نحو الابداع ، ساعدت بدورها التقدم الفكري . وقد تساءل مامفورد قائلا : « الى أي عهد يجب ان نرجع كي نثبت ان الحرب هي التي ساهمت اكثر من اى شيء آخر في انتشار الآلة ؟ فلو استعرضنا تاريخ النشاط البشري لرأينا ان فترات السلم والحرب كانت تتعاقب بسرعة وانتظام ، وهذان الحادثان لايمثلان سوى الاضطراب والهدوء اللذين يسودان سطح المحيط الاجتماعي ، ثم تهب زوبعة النزاع من وقت لآخر : فتقع أزمة عالمية ذات نتائج ثورية . وليست تلك العواصف العالمية ايذاناً بولادة فكرة جديدة ، دينية ، أو اجتماعية أو اقتصادية فحسب ، بل تعزى احياناً الى كسب سلاح حربي جديد واضافة الى السجل الحربي .

ويرى المؤرخان الانكليزيان بيك وفلور في كتابهما « الحصان والسيف » ان اسباب الازمة الاوربية الكبرى التي سادت بين القرنين الخامس عشر والثالث عشر قبل الميلاد يمكن ان تعزى الى دخول الحصان والسيف الى اوربا من آسيا الوسطى .

ولسنا ندري ماهي الدوافع التي اهابت بالمحاربين الذين قدموا من الصحاري لاحتلال الهند واوربا وما بين النهرين ومصر وربما الصين ايضاً . وتعزو بعض النظريات سبب ذلك الى تبدلات المناخ التي حدثت اذ ذاك . والاحتمال الثاني

هو ان موهبة الفتح والتنظيم لدى تلك الشعوب الزراعية قد نمت بقوة بعد ان تقنت ركوب الخيل ، واستعمال المعادن ، ومما يدعم هذه الفرضية الشأن العظيم الذي أصبح للخيل في الهند وبلاد مابين النهرين ومصر واوربا اذ انتشر الحصان انتشاراً واسعاً .

وهناك اعتقاد سائد بأن دخول الحصان الى الديار المصرية احدث تبدلاً هاماً في تكوين هذه البلاد التي اصبحت امبراطورية واسعة الاطراف ذات مكانة عسكرية وتجارية ، بعد ان كانت تعيش من قبل منطوية على نفسها من الناحية الاقتصادية .

واذا كان كثير من الوقائع رغم استنادها الى المكتشفات الاثرية ليست افتراضات محتملة ، فهي تصبح مقنعة تماماً اذا ماقورنت بالازمات الكونية .

ويمكننا ان نلاحظ مثلا ان تسلح المكيدونيين مضافاً الى عبقرية الاسكندر الكبير اللذين سببا انهيار الامبراطورية الفارسية في القرن الرابع قبل المسيح ، قد ساعدا على خلق الثقافة الهيلينية ، وهذه بدورها كان لهـــا تأثير عميق على مقدرات روما . كما يمكننا ان نلاحظ ان تسلح القوط بعد خمسة قرون ، هو الذي عمل الى بعيد في دك الامبراطورية الغربيـــة ، ثم انقضى وقت آخر فاذا بالامبراطورية البيزنطية التي عاشت حتى عام ١٤٥٣ بفضل تسلحها ، اذا بها وقد ظهر سلاح جديد لاتسقط فحسب ، بل أدى ذلك الى محو مدينة القرون الوسطى . واخيراً لو نظرنا الى العصر الحاضر لرأينا ان تطور الاسلحة الذي قلب فن الحرب من أساسه ، فأحدث مشاكل اجتماعية وسياسية واقتصادية ، مما يجيز القول بأنه بدل المدنية الحالية برمتها تبديلا كلياً . فاذا كانت الحرب التي هي في الواقع قضية تسليح قد أثرت في التاريخ تأثيراً عميقاً اكثر من أي شيء آخر ، أمكننا ان نتساءل فيما اذا كان هناك قوانين او قواعد ومبادىء عامـــة تسيطر على ازدياد قوة الاسلحة .

وبما ان الاسلحة هي أشياء مادية أصبح تطورها بالمعنى الصحيح مسألة علمية وصناعية اي مسألة كيفية وكمية .

فاذا تحارب جيشان متساويان في التسليح والامكانيات فالغلبة للجيش الاكثر عدداً . وسنرى كيف ان هذا المبدأ الرياضي يلائم العصر الديموقراطي، وهو العصر الذي أعقب الثورة الفرنسية ، وكان العامل الاساسي لتطور الجيوش النظامية .

ويمكن القول ان « القوة الهجومية لقوة عسكرية ، هي على العموم بنسبة طردية مع مربع حاصل ضرب القيمة العددية بالقيمة الهجومية لوحداتها الفردية .

وقد عرض فريدريك انجل ، وهو المفكر الاشتراكي الالماني ، الشطر الثاني للمسألة بوضوح حيث قال في كتابه « علم الاجتماع » بأن « الغلبة ليست للكثرة بل للنوع ، و نصر يبقى من حظ « الجودة والكيف » وليس من حظ « الكم » وقد حاول ان يثبت « ان القوة ليست عملا ارادياً فحسب ولكنها تتطلب — قبل ان تتمكن من فرض نفسها — ان تقوم على أسس جد واقعية ، وبصورة خاصة أن تكون لديها أدوات يحل الكامل منها محل الضعيف ، اذ يتوجب قبل كل شيء انتاج مثل هذه الآلات ، مما يدل في الوقت نفسه على أن صانع هذه الآلات الكاملة يتفوق على صانع الاسلحة الرديئة . »

وتظهر هذه الحقيقة الاولية مباشرة من الصفات الخمس التي تتميز بها الاسلحة موضوع هذه الدراسة ، وبرأيي ان أنجل هو أول من اعتبر هذه الحقيقة كمبدأ أساسي في انتاج الاسلحة ، ومنذ ان حمل الناس السلاح تأكد لهم ان السلاح الجيد افضل من السلاح الرديء ومع ذلك فقد بقي تحسين الاسلحة حتى هذا الدور يأتي بدافع الصدفة ، او العبقرية الفردية ، مدنية اكثر منها عسكرية ، أكثر مما يتأتى هذا التحسين عن دراسات علمية تجري بناء على التعاون المشترك . ويبدو كما يقول الفيلسوف بيكون « ان الرجال حتى الآن مدينون بالجراحة

للعنز البرية ، وبالموسيقى للشحرور ، وبقسم من الفيزياء لبعض الجـــوارح من الطيور ، وبالمدفعية لغطاء القدر الذي يرتفع بتأثير ضغط البخار ، وبصورة عامة بالفنون والعلوم للحظ أو لأي شيء آخر أكثر بكثير من الاعتماد على المنطق .»

ولو لم يعرف بطء التقدم البشري لما أمكن تفسير كيف أن السروج بقيت مجهولة حتى القرن الرابع بعد الميـــلاد ، وأن الركابات لم تعرف الا في عهد الامبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢) ميلادية ، في حين أن اختراعاً عسكرياً هاماً لهذا وهو اللجام ، قد عرف في مطلع عهد البرونز ،ان لم يكن قبله .

وقد قيل الحق ان الحاجة أم الاختراع ، فلا بد من انتظار نشوب الحرب، كي توقظ الصعوبات عبقرية الاخـــتراع لدى العسكريين ، وفي كثير من الاحوال كان يصرف النظر عن الاختراع عند زوال الخطر ولقد استعمل المغول منذ عام ٥٤ قبل المسيح رصاصات من الخزف الملتهب لحرق معسكر يوليوس قيصر ، وفي عام ٦٩ ميلادية استخدمت القذائف المشتعلة أثنـــاء الهجوم على بلامانتا ، وفي عام ٦٣٠ عندما أقام الرسول محمد الحصار حول الطائف ،استعمل المدافعون مقذوفات شديـدة الحرارة . وفي عام ١٥٧٩ استعمل ملك بولونيا قذائف المدفع ذات اللهب الابيض لشدة حرارتها ، وفي عـام ١٧٨٢ تحطمت بطاريات أركون العائمة وقسم كبير من الأسطول الاسباني بالقذائف الشديدة الحرارة ذات اللهب الابيض التي قذفتها بطاريات جبل طارق . ومع ذلك لم تصبح المقذوفات المحرقة ، على ما اعرفه ، أسلحة ثابتة قبل ظهور الطائرات .

وفي غضون الحرب العالمية الاولى ، رأيت التواكل وعدم الحيطة ،فعرضت رأيي في مقال رسمي عن تطور الأسلحة كان عنوانه « سر النصر » اذ قلت فيه : « إنها الآلات والاسلحة ، عندما يتم اكتشاف المناسب منها ، هي التي تدجل بمعدل ٩٩ ٪ في كسب النصر ، فليست الستراتيجية ، ولا القيادة ، ولا الرؤساء ولا الشجاعة والانضباط ، والتمرين والتنظيم ، أو أي عامل فيزيائي أو معنوي في الحرب ، ليست كلهـا أشياء تذكر اذا ماقورنت بالتفوق الكبير في مضمار

التسلح . وهذه الخواص التي ذكرناها تدخل بمعدل ١٪ في الوحـدة التي تدخل فيها الأسلحة لكسب النصر النهائي .

« ومن الثابت في الحرب ، ولا سيما الحرب الحديثة التي تتبدل فيها الاسلحة بسرعة لا يمكن لأي جيش وجـــد قبل خمسين عاماً من تاريخ معين ان يقهر جيشاً موجوداً في ذلك التاريخ .

ولنأخذ الأمثلة التالية :

آ) كان نابليون قائداً أعظم بكثير من اللورد راغلان ، ومع هذا فقد كان بإمكان اللورد راغلان عام ١٨٥٥ ، أن يقهر أي جيش من جيوش نابليون ، لان جنود راغلان كانوا إذ ذاك مسلحين ببواريد من طراز مينييه .

ب) كان بوسع مولتكه ، بعد مرور احدى‌عشر سنة على انكرمان ، ان يهزم جيش‌اللورد راغلان ، لا لأن مولتكه اعظم من راغلان كرجل عسكري بل لان جنوده كانوا مسلحين ببواريد ذات ابرة .

* * *

« لقد رأينا خلال الحرب الاخيرة عدة لوحات حية تمر أمام أعيننا ، فيحل بعضها محل الآخر بسرعة وعلى مقربة منا حتى ليبدوا أن الكثيرين منا يعجزون عن قراءة ماتنطق به قراءة مضبوطة ، وذلك أنها تدل على القوة التي تربح الحرب ليست قوة الرجل بل قوة الآلة ، وأن الحرب هي قبل كل شيء قضية أسلحة ، وان المعسكر الذي يسبق غيره الى تحسين أسلحته ، هو المعسكر الذي يكتب له النصر .

وبالرغم من هذه الحقيقة الأولية لم يكن لدى الانكليز والفرنسيين الا القليل من الروح العلمية ، لانهم من ١٩١٩ حتى ١٩٣٩ لم يقوموا الا بمحاولات ضئيلة لتحسين أسلحتهم ، مستلهمين هذه الحقيقة . وفي عام ١٩٤٠ كانت معركة دونكرك وسقوط فرنسا نتيجة لهذا الاستعداد السيء .

وحتى ولو كان لدى الانكليز وحـــدهم جيشا ممتازاً ، وكان هذا الجيش لايعادل سوى ثلث العدد الذي أرسل الى فرنسا ، لكان من المحتمل أن لا تكون هناك هزيمة دونكرك ، بل ربما كان هناك « سيدان » جديدة للالمان . وعلى العكس لو كان الانكليز يملكون جيشاً كبير العدد لجباً ، يفوق الجيش الذي أنزل بعدة مرات ، فقد كان بالامكان تأخير انهيار فرنسا ، وان كان من الثابت أنه لايمكن الحيلولة دون وقوع هذا الانهيار في النهاية .

يعود سبب هذا التقصير الى ان ازدياد القوة العسكرية الفرنسية والانكليزية بين الحربين الاخيرتين لم يكن يقوم على مسلمات علمية . فمن جهة لم تول الحقيقة التالية الاهتمام الكافي ، وهي أن الحرب في البلاد ذات الحضارة الغربية تبقى عنصراً دائماً في سلوكها ، ومن جهة أخرى يبدو أن هيئات الاركان العليا الانكليزية والفرنسية قد نسيت بان تطور الاسلحة خلال التاريخ كان يسيطر عليه قانون يمكن أن يطلق عليه « قانون التقدم العسكري » .

الكل يعلم عن تأثر الانسان بمحيطه ، فاذا رفض شعورياً الاستجابة لهـذا التأثير ، فهو متأثر لامحالة به بصورة لاشعوريه .

فقانون التطور يعمم هذا المبدأ ، ويعني أن اولئك الذين هم أسرع استجابة للتلاؤم بصورة تامة مع التغيرات المادية والفكرية والاخلاقية ، هم أكثر الناس حظاً بالبقاء . ويبقى هذا القانون سائداً بالنسبة للمنظمات العسكرية : ان الحضارة هي المحيط المحدق ، ولكي تبقى الجيوش على استعداد دائم للحرب لابـد لها من ان تتلاءم مع أطوارها المتبدلة .

ففي الوقت الذي كانت فيه الحضارة تقوم على السلب والنهب اكثر مما تقوم على التجاره ، كما كانت الحال في مستهل القرون الوسطى حينما كانت الطرق قليلة ويندر أن تسلكها العربات ، كان الخيالة الأداة الرئيسية للقوة العسكرية . ثم أعقب ذلك دور زراعي اكثر استقراراً ، فاصبحت المشاة السلاح المسيطر . ثم

ازدادت الصناعات فيما بعد عقب الثورة الصناعية ، وكان تقدم الصناعات على اساس العلم والاختراع ، كان لابد من توقع سلوك الجيوش للطريق نفسه آخذة بالمزيد من الآلية لتتابع الحرب . ولكنها بدافع الاهمال والروتين لم تسلك هذا السبيل .

ومن هذا القانون يمكن استخلاص المبدأ التالي الذي يمكن ان يسمى «بالعامل التعبوي الثابت » : « فكل تحسين يتناول الاسلحة بقصد مضاعفة قوتها فغايته تخفيف الخطر بالنسبة لاحد المعسكريين بزيادته بالنسبة للمعسكر الثاني — »

لهذا كان كل كمال ادخل على الاسلحة يتبعه دوماً تحسين مضاد يجعل الأول قديماً لاغناء فيه : فتطور قوة الاسلحة أشبه (برقاص) الساعة الذي ينتقل ببطء أو سرعة من الدفاع نحو الهجوم ، ومن الهجوم نحو الدفاع وفقاً لاطراد التقدم المدني ، وكل دورة تزيل الخطر بصورة محسوسة . وهكذا حين كان التقدم في العصر الحجري « بحكم العدم » ، كان تحسين الاسلحة ايضاً بطيئاً جداً بحيث يمكن القول انه كان دوماً على أتم حال . أما اليوم فان الاوضاع على النقيض تماماً ، اذ ان التقدم المدني سريع لدرجة بحيث يمكن التأكد اطلاقاً من انه يستحيل على جيش ان يبقى في زمن السلم مسايراً التقدم في آخر مرحلة بلغها هذا التقدم . لهذا سيكون التطور في ايام الحرب سريعاً جداً ، ويتبع ذلك ان الجيش الذي يكون من الناحية الفكرية اكثر استعداداً للتلاؤم مع التغييرات التعبوية ، سيكون اعظم تفوقاً على باقي الجيوش .

مثال ذلك المعارك الالمانية الخارقة التي سبقت غزو روسيا سنة ١٩٤١ . فليست الجيوش الكبرى هي التي احرزت هذه الانتصارات ، بل بالاحرى القوات الصغيرة المشكلة من قطعات تتأجج لديها الروح الهجومية . وهكذا فإن الالمان لم يستخدموا خلال المعارك الحاسمة ، كمعركة فرنسا ، اكثر من ١٠ فرق مدرعة ، وقد كانت هذه الفرق العامل الرئيسي في هزيمة فرنسا . يؤكد

هذا ان خسائر الالمان كانت طفيفة اذ بلغت - ٢٧٠٧٤ - قتيلا ، و - ١١١٠٣٤ جريحاً ، و - ١٨٣٨٤ - مفقوداً ، فكان المجموع - ١٥٦٤٩٢ - ، أي مايعادل ثلث خسائر بريطانيا في معركة السوم سنة ١٩١٦ .

فمن الهجوم الى الدفاع وبالعكس هذا هو الاطراد الطبيعي للتقدم التعبوي، وقد كان لهذا الاطراد تأثيراً عميقاً في مجرى التاريخ . وقد لاحظ كثير من المؤرخين أن تفوق الهجوم على الدفاع قد ساعد على التوحيد السياسي ، في حين ان تفوق الدفاع على الهجوم قد قاد الى الانقسام والتفرقة السياسية . يضاف الى ذلك ، ان الدفاع بإطالته أمد الحرب ، قد ضاعف قوى الدمـــار ، لا المادية فحسب ، بل المعنوية ايضاً . وفي النتيجة « لابد لـكي تحتفظ الدول ببقائها من ان تربح الحرب ، وهذه النقطة الهامة كان من نتيجتها نشر الانضباط والنظام العسكري في كل البلدان عن طريق الفتح وروح التقليد » ، الى أن تصبح في النهاية ، جميع الامم في حالة حرب وتقف القسم الأعظم من نشاطها الصناعي على انتاج الاسلحة . فاذا حصلت هذه النتيجة ، أصبحت الحرب التي كانت وسيلة الى غاية ، هذه الغاية في ذاتها .

فالحرب بدلاً من ان تهب الحياة ، تنشر الموت ، ويقتل المنتصر والخاسر بعضهم بعضاً .

الفصل الثاني

عصر الجرأة

اذا نحن القينا نظرة الى الوراء واستعرضنا الحرب كما تدور رحاها في الغرب قبل ظهور الاسلحة النارية ، لرأينا ان أفضلية الشجاعة على الخدعة كانت أبرز فارق في هذه الحرب . فلقد بني تاريخ اوربا على الشجاعة ، وكان السيف والرمح شعار هذه الحروب . وليس القوس والمزراق كما هي الحال في آسيا .

والرجال الذين هم أعظم شجاعة هم الذين اصبحوا القادة ، لا الرجال الاكثر تجارب . وقد كانوا يسيطرون على المعركة ، بشجاعتهم اكثر من مهارتهم . فالحرب هي صراع بين رجلين ، لاتنازعاً بين دماغين . وقد تفوق السلاح الابيض من وجهة نفسية على المقذوفات ثم كان مع تعاقب الاجيال ان انبثقت عن هذه الفكرة المثالية الغربية ، ثم الواقعية في النهاية .

وقد تكونت من جهة ديانة السيف ، ومن جهة اخرى سياسة القوس ، فالارستوقراطيـــة والديموقراطية ؛ والكيفية والكمية ، والقصر والمدينة ، والمقاتل والتاجر ، والجندي والصانع اليدوي ، والراهب والسياسي ، وقد نجد كثيراً من تداعي الافكار المتنافضة اذا بحثنا عن القيم المعنوية التي أوجدها القوس والسيف بالتدريج .

فلنقتصر البحث على التأثير الذي احدثه التسلح خلال النصف الاول من العصر الرومانتيكي ، أي منذ بداية الحروب الميدية الآسيوية في القرن السادس قبل الميلاد حتى سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية ، بحيث نتعرض فقط لأهم النقاط البارزة لاظهار اثر الاسلحة والنظم العسكرية في التاريخ .

إن اول مايظهر لنا هو القرية المحمية بالحواجز ، التي تحولت بالتدريج الى مدينة محصنة ، وانتهت باقامة المدن الريفية حولها . وقد كانت هذه المدن في حالة حرب بعضها مع بعض ، وبما انها كانت محمية بجدران منيعة ، فقد كان ثقل الحرب يتركز اذ ذاك على الهجوم والدفاع عن موارد التموين ، وكانت المحاصيل الزراعية هدف الغالب ، لذلك لم تكن الحرب تدوم اكثر من بضعة شهر في السنة دون ان تحدث اية معركة في فصل الشتاء .

كانت الجيوش تجمع من سكان المدن ، وكان تدريب هذه الجيوش بمنتهى البساطة ، لايتطلب الا تكتيكا بسيطاً ، وكان نظام الصفوف اسهل هذه التشكيلات التعبوية ، وكانت مشكلة من المشاة المدرعة وهي عبارة عن خط عميق من المشاة الثقيلة ذوي الدروع والمسلحين بالترس والرمح .

وفي الهجوم تقف المشاة المدرعة على نسق متراص ، ملتصق بعضهم ببعض ، وتتقدم على خط مستقيم نحو العدو . فكان الهجوم تبعاً لهذا يجري بنظام الصفوف المتوازية ، وهذا يتطلب من المتحاربين جلداً ومراساً اكثر مما يتطلب مهارة . وهكذا بقي اليونان يتحاربون حتى معركة ماراتون عام ٤٩٠ ق.م. وهو تاريخ بدء العلوم التكتيكية .

أخذ الاسبارطيون بهذا الاسلوب وحسنوه ، فكانوا شعباً عسكرياً يخضع لنظام عسكري قاس ، فقانونهم ينص على ان « على الجندي المواطن ان ينتصر أو يموت . » فكانت الحرب بالنسبة للاسبارطي عيداً يبرهن فيه عن مدى

شجاعته ، وكانت المعركة بمثابة مباراة يعبرون فيها عن شجاعتهم ، فهم يعتبرون الصف الاول ساحة شرف .

وبما ان تجهيزات الجندي الاسبارطي كانت تبلغ في وزنها مايقارب الـ ٣٣ كغ ، فكان يتبعه شخص آخر يحمل له ترسه ، وفي معركة بلاتيه التي وقعت عام ٤٩٩ ق .م. كان يرافق جندي المشاة المدجج بالسلاح سبعة من عبيد اسبارطا ، تشكل منهم الصفوف الاخيرة مما يجعل صفوف الوحدة ثمانية لاسبعة . فكان العبيد يجهزون على العدو الجريح بضربات عصيهم القصيرة ، ويعنون بأسيادهم اذا أصابهم مكروه . ولكي يبقى هؤلاء العبيد في خطوط المعركة كانوا يسيرون بخطى موزونة على نغم موسيقي من عاز في القصب .

وفي هذه المعـارك الخافلة كان فن التعبئة يقتصر على شق الطريق بواسطة الرماح القصيرة الى أن يلحق المقاتلون وحدات القطعات الخفيفة . ولو لم تكن الشجـــاعة ديدن هؤلاء القوم ، لكان من الثابت أن هذا الالتحاق يتم منذ البداية . وحتى في الحرب البيليبونيزية (٤٣١ — ٤٠٤) ق.م. التي نشأت بين سبارطا وآثينـا ، فان اليونانيين كانوا ينظرون بازدراء الى القطعات الخفيفة ، باستثناء قبائل الشمال نصف البرابرة . وقد كسر الاثينيون من اتباع ديموستين شر كسرة من قبل الايتوليين المسلحين بالرماح القصيرة الذين رفضوا القتـال القريب ، وحطموا وحدات الاثينيين عن بعد .

وقد كان هذا التبدل وشيك الوقوع بقوة الأشياء . ففي مطلع القرن الرابع قبل المسيح ، شكل الجنرال الأثيني ايفيكرات فيلق مشـاة خفيفة حقيقي ، دربه على المناورات السريعة ، وكان جندي المشاة يرتدي سترة من الجلد كما كان مسلحاً بسيف ورمح قصير وترس . وقد برهن القـــائد ايفيراط على قوة هذه التشكيلة عام ٣٩٠ قبل المسيح ، إذ استطاع ابادة فوج اسبارطي .

وقد يعجب المرء كيف أن الأثينيين وهم شعب تجاري يعادل عنده الدهاء

الشجاعة ، لم يفكروا قبل ذلك التاريخ باستعمال هذا السلاح الضروري . فقد كان لهم منذ زمن طويل فيلق فعال من البحارة رمـــاة النبل ، جند من بين المواطنين الذين لايملكون مايجهزون به حصانا . وقد استخدم هؤلاء الرماة بنجاح اثناء الحرب البيليبونيزية في الحملات التي جهزت ضد اسبارطة ، بما اضطر الاسبارطيين الى ابتكار طريقة للصمود في وجه أعدائهم ، وذلك بان أعدوا فيلقاً من الرماة مع ـ ٤٠٠ ـ فارس .

وخلال العشرين سنة الاولى من القرن الخامس قبل الميلاد ، عندما اضطر اليونانيون للوقوف في وجه غزوات الفرس المتتابعة التي قادها دارا وزركسيس كان التساليون خير فرسان اليونان ، ولكنهم لم يلعبوا أي دور هام خلال هذه الحروب ، لتفوق فرسان العجم عليهم تفوقاً تاماً .

ومن المستغرب ان يتأخر اليونان باستعمال هذا الســلاح رغم ان بلادهم كانت جبلية ، فقد أدرك الاسبارطيون في ٥١١ قبل الميلاد ، أي قبل عشرين سنة خلت ، اهمية هذا السلاح حين هزموا قرب أثينا من قبل فرسان التساليين . وقد ذكر المؤرخ دلبروك أن « الحروب الميدية في آسيا تمتاز بالذعر الذي بعثه فرسان العجم في قلوب اليونان . »

ومما يجب ملاحظته في الحروب اليونانية أن كافة التطورات أتت عن قوة الامر الواقع فقط ، لان الشجاعة كانت تستخف بأهمية العبقرية المخترعة . ولم تظهر تباشير التقدم الا في خلال حرب الحصار في النصف الاول من العصور القديمة اليونانية حيث امكن للفارس ان يلعب دوره . وقد استخدم البلاتيون في حصار بلاطيه عـــام ٤٢٩ ق . م . أسهماً ملتهبة لاحراق آلات المحاصرين الحربية . وقد جرى اثناء حصار دليوم هجوم بالغازات ذات الدخان الكبريتي وفي عام ٤١٣ ق.م. دافع السيراكوزيون عن أسوارهم بالسوائل المشتعلة .

ولو لم تكن شجاعة العسكريين دافعاً لهم لاستخدام ذكائهم وتفكيرهم ،

لتمكنت اسبارطة من تغيير مجرى التـــاريخ بفضل تحسن الأسلحة النسبي والتحصينات التعبوية . ولعدم وجود مثل هذه المزايا ، فان هذه المهمة الشـاقة انتقلت الى شعب مغمور نصف بربري ، يقوده ملكان يتحليان بذكاء وشجاعة فائقين : وهما فيليب المكدوني الثاني وابنه اسكندر الكبير .

ومما لاشك فيه ان طاغية صقلية دينس الاول (٤٣٠ - ٣٦٧) ق ٠م ٠ هو أول يوناني شكل القوى المحاربة المركبة ، غير ان معاصره فيليب المكدوني (٣٨٢ - ٣٣٦ ق م) وهو العبقري الكبير ، قد احدث نفس الاصلاح ، اذ شكل اول جيش منظم على اساس علمي في القارة الاوروبية .

وما قام به فيليب يثبت – كما يقول كارليل – « ان التاريخ هو في الحقيقة تاريخ مشاهير الرجال » ، لأن مكدونيا بلاد فقيرة ، يسكن الجزء الأكبر منها قرويون ورعاة ، والطبقة الغنية فيها قليلة العدد جداً ، لا يمكنها تقديم عدد كبير من المشاة المسلحة .

وبما أن فيليب لم يكن لديه العدد الكافي من الرجال فقد عمل جـاهداً على استبدال الكيفية بالكمية ، فأنشأ أول جيش صغير دائم طوعه من بين رعاياه الخاصة . وبفضل هذا الجيش الدائم ، تمكن من خرق القاعدة التي تقضى بعدم القيـام بحرب الا في فصل الصيف . فهو بحسب الترتيب الزمني أول من شن حرباً شاملة .

زد على ذلك أنه جعل من جيشه هذا أداة جديدة كاملة ، واذا كانت اسلحته تختلف الى حد مـــا عن الاسلحة الشائعة الاستعمال في ذلك الحين ، الا أنه استخدمها استخداماً علمياً بانشائه قوة هجومية مركبة .

وقد استخدم وحدات المشاة وفق تكتيك جديد ، وجعل من هذا السلاح الهجومي قوة دفاعية للاحتفـــاظ بالأرض . وسلح قسماً من وحدات المشاة بالرماح الطويلة . ولم تقتصر ميزات هذا السلاح الجديد على أنه كان يسمح للوحدة

صابة العدو عن بعد ، بل كان يزيد عدد نصال الرماح المسددة في الجبهة ،وهذا نظام كان يضاعف في آن واحد قوة المقاومة والهجوم ، واذا كان يفقد شيئاً من قابلية الحركة ، فهذا أمر غير هام ، اذ لم يكن يطلب الى المحاربين الانقضاض في الميدان بالجري أثنـــاء الهجوم وأما المباديء التي كان يرتكز عليها نظام الوحدة التقليدي فهي :

آ) ــ العمق الذي يعطي الثقل

ب) ــ الطول الذي يسمح بالالتفاف حول العدو واختراق جناحيه .وقد صرف فيليب النظر عن هذا المبدأ الأخير لما رأى من ضعف نظام وحدة المشاة، ي صعوبة البقـــاء في صف واحد خلال المعركة ، فالاضطراب هو من أعدى عداء تلك الوحدة . واستحالة تشكيل جبهة قوية على أحد الجانبين، أو مطاردة العدو على صف واحد ، مما يعرض جناحي الوحدة للخطر ، لاسيما حين يستهدف الجناحان لهجوم الفرسان . ولمعالجة هذا الضعف دور فيليب خيالته الثقيلة على جناح وحدة المشاة الأيمن ، فأصبح هذا جناحه الهجومي أو جناح الصدم،وضم قلب خيالته المساعدة الى جنـاح وحدة المشاة الأيسر فأصبح جناحه الدفاعي . ووضع أخيراً بين الخيالة الثقيلة وبين وحدة المشاة مجموعة جديدة من الجند وهم حملة الترس الكبيرة ؛ وكلفهم بحماية الجناح الأيسر للخيالة الثقيلة أثناء التقدم بينما يحول قواته الخفيفة لنفس الغـاية الى يمين الفرسان . وقد كانت هذه التشكيلة بمجموعها دفاعية وهجومية في آن واحد . فبينما كان الجناحان يتحركان ، كان القلب قويا كالصخر .

والخيـالة الثقيلة : ويطلق عليهم اسم الرفاق أو الأتباع ، ويؤخذون من الطبقة الارستوقراطية المـكدونية ، وسلاحهم السيف والرمح القصير الذي يستعمل في آن واحد كسلاح للهجوم والقذف ، وكانوا يرتدون درعاً ويحملون اسلحة ثقيلة ، وهم النواة الحقيقية للخيـالة الاوروبية الثقيلة ، وقد شكل فيليب

ايضاً فيلق الرماحة ، وسلحهم بالرمـاح الطويلة ، فكانوا طليعة لابسي الدرع ؛ وأجداء فرسان القرون الوسطى . هؤلاء الفرسان يؤخذون اكثر مايؤخذون من تساليا أي شمال اليونان ، وهم أشبه بالرفاق في سلاحهم وتجهيزاتهم.

أما حملة الترس الكبيرة ، فكانوا يشكلون فيلقاً دائماً من مشاة الحرس وهم مدربون على القتال القرب ، وقد أبلوا بلاء حسناً في حرب الجبال في عبور الأنهار ودعم الخيالة .

أما القوات الخفيفة فكانت مشكلة من المقلاعيين ورماة القوس ، ومن حملة الرماح القصيرة ، وقد جهز فيليب رحبة حصار مع منجنيقات ترمى سهاماً مشتعلة ، وآلات لقذف الحجارة وكباش لدك الحصون ، مع كل الأدوات الأساسية الشائعة في عصر المدن الحصينة في ذلك الحين .

لم يكن جيش فيليب بمجموعة الا حصناً حقيقياً متنقلا ، وكانت تشكيلة وحدة المشاة مخصصة لتشكيل جبهة دفـاعية لا يمكن خرقها حتى تخرج الخيالة للاغارة . وكانت مهمتها ايضاً اختراق خط العدو في الهجوم . ولكنها لم تكن على وجه العموم لتهاجم خيالة الخصم ، فقد انيطت هذه المهمة بالخيالة المساعدة الى جانب مهاجمتها جناحي العدو .

تلك هي الآلة الحربية الجبارة التي تركها فيليب لابنه الاسكندر ، (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م.) وقد استطـاع هذا الاخير أن يفتح بها العالم المعروف وقتئذ مغيراً بذلك مجرى التاريخ . ولم يمض على الاسكندر اكثر من ١٢ سنة حتى حقق هذه المهمة وبرهن عن عبقرية خارقة . وهو كقائد ورجل دولة سبق عصره ، وهو مايزال يحتل مكانا مرموقاً في التاريخ . وقد ربح كافة المعـارك التي خاضها واحتل كافة المدن التي حاصرها . واتبع كافة الدروب والطرق التي اختطها نفسه في السهول والجبال أو الصحاري ، في الصيف أو الشتاء ، وعرف كيف يفيد من الانتصارات ، من النواحي السيـاسية والستراتيجية ، إذ جمع بين الستراتيجية والسياسية . وكان الاسكندر محاربا يتحلى بأخلاق الفروسية ، كما

كان بالنسبة لرجاله أشجع الشجعان ، والأستاذ الذي لايجارى في الفن العسكري فلأول مرة في التاريخ وجد التسلح القوي في خدمة العبقرية الفذة ولمذين العاملين معاً يعزى التغلب على كافة الصعاب ، فجيشه هو أول « وحـــدة استراتيجية معروفة ، فكانت تحمل في نفسها حقيقة النصر » كل هذا بفضل الاسكندر .

ففي ربيع سنة ٣٣٤ ق م. ، وعلى رأس ٣٠٠٠٠ جندي مشاة و ٥٠٠٠ فارس اجتاح الاسكندر آسيا وكسر دارا نهائياً في جوجاميلا عام ٣٣١ ق. م. وكان نظـــام المعركة الطبيعي الذي اتبعه من اليمين الى الشمال حسب الترتيب التـــالي : المشاة الخفيفة ، حملة الرماح ، حملة القوس ، وحدات المشاة المدرعة ؛ فالخيالة المتحدة ، ثم خيالة شمال اليونان من التساليين .

كانت الخيالة سلاحه الرئيسي ، وكان يقف اثناء المعركة على رأس رجاله والى الخيالة يعزى نجاحه في خمس عشرة معركة من أصل ٢٢ معركة ، وقـد قال الجنرال دودج : « لو لم يكن الاسكندر أحد مشاهير القـــادة العظام المعروفين ، فهو على الاقل خير حامل سيف نموذجي في التاريخ . »

وتأتي المشاة من حملة التروس الكبيرة . والقوات الخفيفة في الدرجة الثانية بعد الخيالة . وقد ذكر الاستاذ تارن (١) عن هذه القوات الأخيرة أنهـا لم تستعمل مطلقاً بصورة جدية قبل الاسكندر كما أنه « لم يسمع بانهـا سجلت من بعده أعمالاً جديرة بالاهتمام . » ومـــا يجدر ذكره أن حملة القوس مـن سكان جزيرة كريت كانوا من أبرز من يستحق الاجلال بين قوات الاسكندر .

وفي المعركة كانت وحدة مشـاة الاسكندر المتكتلة على ستة عشر صفاً بالعمق تلعب دوراً من الدرجة الثانية ولكنه لايخلو من الأهمية . وكانت مهمتها رئيسية المحافظة على تماسك الجيش تاركين للتساليين وللخيالة المتحدة أمر تأمين الدفاع عن هؤلاء المشاة ، وبطالتها لخط الجبهة كانت تحمي مؤخرة الجناح الأيمن ضد هجمات العدو ، وبمقاومتها هذه كانت تسمح لهذا الجناح بأن يقـاتل برباطة

(١) صاحب كتاب التقدم العسكري والبحري عند الاغريق .

جش واطمئنان ، ولم يفكر الاسكندر قط بدمول المعركة بواسطة وحدة لمشاة وحدها ... لأنها عبارة عن ظل على لوحة معركة الاسكندر في حين ان لجناح الأيمن هو بمثابة النور » .

كان المنجنيق سلاحاً اساسياً في الحصار ، وقد استعمله الاسكندر أكثر من مرة بمثابة وحدة مدفعية ميدان . وهكذا غطى انسحاب رجاله على احدى الضفاف في اول معركة خاضها في ايليريا « مستخدماً كافة انواع القذوفات التي قذفها بآلاته » وكان يستعمل المنجنيق كمدفع جبلي . وقد استخدمت هذه المدفعية بنجاح كبير أثناء حصاراته ، لاسيما في صور ، وكان حصار أبرز حصار في التاريخ . وقد انشأ الاسكندر في الهند فيمابعد جسراً من المراكب .

وقد كان على الاسكندر بعد انكسار دارا ان يحل مشكلة تعبوية جديدة ، وهي « النضال ضد ثورة وطنية بدلاً من المقاومة المنظمة » فقسم جيشه الى عدة أرتال ، وقوى خيالته ومشاته الخفيفة ، ورماة القوس تقوية مهمة . وقد قاد بحكمة تلك الحروب القليلة الاهمية التي خاضها ضد برابرة الشمال والقبائل الجبلية كما كان في معاركه الكبرى ، ولم يتقاعس قط عن تطبيق وسائله في مهماته ، ويواجه المصاعب ضمن الشروط التي يجب ان يواجهها بها . وقد كانت طريقته الحربية جديدة ، لأنها تتميز بحسن الادارة . ويبدو أنه هو المكتشف الاول للمبدأ القائل : « سيروا منفصلين وقاتلوا مجتمعين . » وكان اول قائد غربي في التاريخ طارد العدو بعد معركة كبرى ، وعرف كيف يتنقل بسرعة خارقة عندما تسنح له الفرص .

وهكذا قطع الاسكندر (٦٤٠) كيلو متراً بمعدل ٥٨ كم في اليوم ، ؛ فيها التوقفات ، عندما طارد دارا ، ولما حرر سمرقند تقدم رتل الاسناد مقدار ٢١٦ كيلو متراً خلال ٧٢ ساعة تقريباً ، وقد كانت غايته الدائمة قهر جيش العدو بأكمله ، لاخيالته فحسب . ثم شاعت هذه الطريقة من بعده . فاذاما صمم

على الهجوم ، فهو يلتزم خطة الهجوم حتى يدمر العدو ويبيده ، فكانت معاركه حرباً صاعقة .

هذا ومع ان الجيش الذي أورثه لخلفائه من بعده نظم من اجل حفظ النظام في امبراطوريته ، الا انه اصبح في ايديهم اداة لنشر الفوضى في هذه الامبراطورية اذ لم تعد رحى الحرب تدور ضد برابرة الشمال وانما اخذت تدور بين جيوش متساوية في التنظيم ، بقيادة قادة لهم نفس الأهمية والقيمة . وبالرغم من ادخال عدة تحسينات فنية عليها ، فقد اخذ التكتيك والروح المعنوية تسيران بسرعة نحو الانحطاط . اذ اخذ القادة يعتمدون على المرتزقة الذين كان بالامكان شراؤهم وبيعهم . ثم اخذ الذهب يصبح العامل التعبوي الحاسم . وزادوا في طول الرماح المكدونية الشديدة الطول ، وقل عدد القطعات الخفيفة ، وقد عجز اليونان عن الصمود في وجه المغول عندما اكتسح هؤلاء شمال اليونان ومقدونيا عام (٢٨٠) ق.م ، ثم اخذت الخيالة تستعيد مكانتها السابقة ، واستخدمت تحصينات الميدان في ساحة المعركة . غير ان اهم تجدد ادخل على التعبئة هو استعمال الفيلة كسلاح هجومي .

ويمكن القول ان الفيل كان اكبر معضلة تعبوية في ذلك الوقت ، ولم يدر احد كيف أمكن التوفيق بين استخدام الفيلة والمشاة والفرسان .

وقد وجد الاسكندر نفسه لأول مرة امام فيلة الحرب في معركة أربيل ثم على نهر الجيلام بالهند عام ٣٢٧ ق.م ، ولما رأى ان خيوله تحجم عن الهجوم ، عزم على تطويق الجناح الأيمن مجتازاً الضفة ، ومع ادراكه لأهمية الفيلة لم يستخدمها ، في حين ان خلفاءه استخدموها على نطاق واسع ، حتى ان سلوقوس كان يعلق عليها اهمية دفعته للتنازل عن المقاطعات الشرقية لامبراطورية الاسكندر لقاء قطيع مؤلف من (٥٠٠) فيل ، وبفضل هذا العدد استطاع الانتصار في معركة عام ٣٠٢ ق.م ، وقد كانت معركة فاصلة .

واذا كانت القوات المجربة ، بوجه الاجمال قد توصلت في النهاية لقهر الخوف الذي احدثته الفيلة ، الا ان من المحقق ان ظهورها لأول مرة قد أحدث تأثيراً معنوياً فاصلا ، وقد تمكن انطيوخوس الاول من ايقاف الغوليين بفضل فيلته. وقد قال بهذا الصدد : « إنني استحي اذ افكر اننا مدينون بسلامتنا الى هذه الحيوانات الستة عشر . »

وفي معركة رافيا سنة ٢١٧ ق.م . تقابلت فيلة انطيوخوس الثالث الهندية مع فيلة بتوليميه الافريقية فقهرتها . وقد استعملت الفيلة لآخر مرة في معركة مانيزيا عام ١٩٠ ق.م . حيث عجز انطيوخوس عن السيطرة على فيلته فدب الذعر فيها وكانت سبب فشله . وبنفس الطريقة عرف هانيبال الانكسار في زاما عام ٢٠٢ ق.م . وفي ظروف مماثلة تقريباً .

ولهذا وضعت خطة جديدة مضادة للفيلة ، اذ اخترعت آلات لجرحها في ارجلها ، وقد استعمل هذه الطريقة سكان مدينة مغارا اليونانية ، اذ كانوا يطلقون على فيلة انتيغون خنازير مطلية بالقار بعد اضرام النار فيها . وقد افسد انتيغون عليهم خطتهم هذه بان أمر ساسة الفيلة من الهنود بان يتركوا الخنازير بصورة دائمة بين الفيلة لخلق الالفة بين هذين الحيوانين .

واذا كانت الاساليب التكتيكية قد تقلصت في ساحة القتال ، فقد تقلصت ايضاً في حرب الحصار ، باستثناء بعض التحسينات الفنية وكان السبب المباشر الذي ساهم بهذا التراجع الى حد بعيد هو فقدان آلات الحصار . واشتهر ديمتريوس وحده بين خلفاء الاسكندر بالاستيلاء على المدن ، ولكنه اخفق من الناحية التعبوية المحصنة عام ٢٠٥ ق.م . في حصار رودس ، وهو اهم حصار قام به في حياته . وقد قذف اهالي رودس اثناء هذا الحصار اكثر من ثمانمائة قذيفة مشتعلة ، فأضرمت النيران في ابراج ديمتريوس المحصنة . وفي حصار طيبة ، بنى ديمتريوس برجاً ثقيلاً للغاية ، قضى شهرين في نقله مسافة (٤٠٠) متراً .

كان لهذه الحروب التي دارت رحاها في ذاك العصر أبلغ الأثر في مجرى التاريخ . وقد ساعد الكنز الذهبي والفضي الذي استولى عليه الاسكندر في بلاد فارس ونثره خلال الحروب الأخيرة ، ساعد على انتشار المدنية الجديدة ، المدنية الهيلينية ، وكانت الاسكندرية المركز التجاري والفكري لهذه المدنية. وقد ساعد الذهب واليسر على انتشار المواهب الفكرية غير ان هذه المواهب الفكرية ، بسبب استمرار الحروب اكسبت بصورة خاصة على انماء ميكانيكية الحرب .

بلغ التقدم في القرن الذي اعقب موت الاسكندر شأواً بعيداً لم يبلغه من قبل خلال الفي عام . ولا تزال بين ايدينا مخطوطات تصف الآلات التي اخترعها هيرون (٢٨٤–٢٢١ ق.م) وفيلو (٢٠٠ ق م تقريباً) وغيره . ومما تصفه هذه المخطوطات ان المدفعية كانت في ذلك العصر تقذف قنابلها لمدى (٧٠٠) متر . وقد اخترع مهندس من مدينـــة الاسكندرية اسمه ديونيسيوس آلة تسمى البوليبولس ، وهي عبارة عن رشاش يقذف من خزانه مجموعة من السهام .

وكانت وطنية الرومان وحماسهم لخدمة بلادهم شديدين . وكان المتحدرون من اقدم العائلات هم المواطنون في مدينة روما ، وكانت الخدمة العسكرية من اهم واجباتهم ، اذ لا يحق لسواهم ان يحملوا السلاح . وكان الرومان « يطلبون رضا مارس إله الحرب من أجل هذا الفيلق المحارب المسلح بالرماح . »

وبما ان الخدمة العسكرية كانت طريق الوحيدة التي تقود الى المفاخر الاجتماعية ، فقد كان الرجال البواسل يؤلفون طبقة عسكرية ممتازة طبعت الشعب الروماني بطابعها الخاص . وقد كتب تيت ليف بهذا الصدد ما يلي : « لقد جبلت طبيعة الشعب الروماني بشكل يستحيل معه البقاء في حالة سلم حتى ولو هزم شر هزيمة . » وكانت الحياة بالنسبة لهذا الشعب الشغف بالحرب عبارة عن معركة ، كما كانت البطولة بمثابة دين له . »

كانت الوحدة العسكرية في الجيش الروماني عبارة عن فرقة او مجموعة قبلية

وهي في الاساس وحدة سلاحها من الطراز الاسبارطي القديم . وكانت تتألف في بادىء الأمر من ٤٢٠٠ رجلاً في ثمانية صفوف ، والصفوف الستة الأولى من المشاة المدججين بالسلاح ، في حين ان الصفين الاخيرين كانا من المشاة الخفيفة المسلحين كيفما اتفق . وكانا على الجناحين كوكبتان قويتيان من الخيالة ، قوام كل منها /١٥٠/ فارساً وكان الهجوم مبدأها تعبوي ، كما هي عليه الحال بالنسبة للوحدة اليونانية . الا انها لم تكن مزودة باحتياط ، لذا كان يصعب عليها مطاردة العدو .

ويعتقد البعض ان ماركوس فوريوس ، الجنرال الروماني الذي اشتهر بحروبه ضد الغول (٣٩١—٣٦٠ ق.م) ، هو الذي عدل التنظيم البدائي للفرقة تعديلاً كلياً في القرن الرابع قبل الميلاد . وهـذا الأمر محتمل الصحة لأن الرومان اضطروا الى قتال نوع جديد من الجيوش خلال هذه الحروب : وهي تشكيلات الملتيين المسلحة بالسيف . فقسمت الفرقة الرومانية اذ ذاك الى ثلاث فرق منفصلة ومرتبة بعمق ، وكانت هذه الاجزاء تعرف بالرماحة ، والقاعدة ، والصف الثالث . وكان رجال هذه الفرق الذين يتقاضون راتباً شهريا ، يعينون في هذه الفرق بحسب مدة خدماتهم في الجيش ، فكان حملة الرماح من الاحداث ، والصف الثالث من المحاربين القدماء . وكانت هذه الفرق تقسم الى سرايا ، وتتألف كل من السريتين الأوليين من /١٢٠/ رجلا والثالثة من /٦٠/ رجلا . وكانت تتشكل الكوهورت (١) من سرية من كل صنف ، من /١٢٠/ من المشاة الخفيفة ، وكوكبة خيالية من ٣٠ رجل ، وكان المجموع يبلغ /٤٥٠/ جندياً ، وفي تشكيلة القتال كانت السرايا تتخذ تشكيلة الشطرنج بحيث تسمح لسرايا الفرقـة الثانية بسد ثغرات السرايا الامامية ، ولسرايا الفرقة الثالثة بسد ثغيرات سرايا الفرقة الثانية

---

(١) تقسم الفرقة الرومانية الى [١٠] أجزاء كل منها يسمى Cohorte

، وكانت الخيالة (١٠ كوكبات) تشكل الجناح . وقد وصف المؤرخ بوليب تسليح الفرقة بصورة مفصلة في الفصلين ٢٢ و ٢٥ من كتابـــه الثاني . فكان رجال فرقة المشاة الخفيفة يحملون سيفا ورمحاً وترسا قطره ٩٠ سنتمترا وكان الرمح سلاحاً للقذف حاداً دقيقة النصل بحيث كان يلتوي منذ الصدمـة الأولى فيغدو عديم الفائدة اذا وقع بيد العدو .

وكان حملة الرماح يحملون ترساً بشكل نصف دائرة ، عرضه ٧٥ سنتمتراً وطوله (١٢٠) سانتيمتراً وكان يتألف من طبقتين من الخشب المنري غراقوياً والمغطى بالجلد تدعمه عصائب من الحديد وكان هؤلاء مسلحين برمح قصير لقذف وبحربتين ، وتقى رأسهم خوذة نحاسية ، وكاسيات فخذين ، ودرع نحاسي ، والاغنياء منهم يلبسون درعاً من نوع اجود . اما القاعدة والمصف الثالث فـكانوا من نفس التسليح ، ويختلفون في انهم يحملون رماحاً طوالا بدلاً من الحراب .

ويبدو ان الخيالة كانت مهملة تماماً ، اذ لم يكن لديهـا سلاح حتى في بدء حروب قرطاجه ، وكانت دروعهم من الجلد كما كانت سيوفهم ورماحهم هزيلة . والرومان بصورة عامة كانوا يفضلون القتال مشاة .

وكان القتال الفردي مفضلا عندهم على القتال الجماعي . وقد انقلب هجوم الوحدة المبدئي الى سلسلة معارك صغيرة متتابعة وخاطفة ، وقد ظهر الوجود تحصين المعسكر الخندق حتى ولو كان للاستراحة الليلية الواحدة . واحتفظو بالنظام القديم القاسي واطالوا مدة التمرين والتدريب . وقـــد وصف بعض المؤرخين الشعب الروماني بقوله : « انه شعب فتح العالم بمناورات الاسلحة فقط ووصف بعض المؤرخين المناورات الرومانية على انها معارك لادماء فيها وسمى معاركهم مناورات دامية .

أما من الناحية التعبوية فقد كان التطور اساسياً ، فالقتال القريب والدفاع والهجوم على مسافات قريبة قد امتزج بعضها ببعض ، وانشأت ، قوات الاحتياط

ووفق بين الدفاع والهجوم توفيقاً اكيداً . وقد كتب المؤرخ مومسن ، مؤلف تاريخ روما يقول : ان الاستعمال المشترك للحراب الثقيلة والسيف اعطى نفس النتائج التي اعطتها الحراب والبنـــادق في الحرب الحديثة . وان رشقة الحراب كانت تقدم الهجوم بالسيف كما تسبق النار الغزيرة اليوم الهجوم بالحراب .

وقد استطاع الرومان فيما بعد ، بطريقة تعسكرهم الكامل ، أن يوفقوا بين فوائد الدفاع والهجوم وان يرفضوا القتال أو يقبلوا به بحسب الظروف . وفي القتال كانوا يجدون انفسهم محميين في معسكراتهم كما ولو كانوا خلف جدران الحصون ، ويقول المثل الروماني : « ان الروماني يفتح البلاد وهو متمركز . »

بهذه الآلة الحربية العجيبة انطلقت رومـــا في فتوحاتها مبتدئة بايطاليا ثم قرطاجنة واخيراً مكدونيا .

وقد طبق الجيش القرطاجي نظام الوحدات اليونانية ، وعندما ضمن الرومان بعد مجهود نادر المثال السيطرة على البحار أبان الحرب البيونية الاولى ، وجدوا انفسهم وجهاً لوجه امام الجيش الذي كان يقوده هانيبـــال خلال الحرب البيونية الثانية .

كانت انتصارات هذا القائد العظيم باهرة اذا ماعرفنا ان القسم الاعظم من جيشه كان مؤلفاً من المرتزقة من مختلف البلدان ، وكان سلاحهم بالتسلسل : السيوف والرماح والقسي والمناجل ، وكانوا يستخدمونها دون ان يوفقوا بينها توفيقاً علمياً ، وكان احسن جنود المشاة هم حملة المقلاع . ويحمل كل فرد منهم مقلاعين ، الاول للمدى البعيد ، والثاني للمسافات القريبة . وكانت الخيـالة تشكل السلاح الرئيسي عندهم . وقد حاول هانيبال بعد معركة كان عـام ٢١٦ ق.م. ان يحمل الرومان على القتال في السهل حيث يمكنه الاستفادة من خيالته استفادة كبرى ، غير انهم استفادوا من التجربة وبقوا على رؤوس التلال ويلاحظ المؤرخ بوليب : « بان الفريقين طبقا بالتتالي خطة استراتيجية مشتقة

من ان كل من الفريقين كان يعلم بان خيالة هانيبال كانت العامل الرئيسي في هزيمة التروممان وانتصار القرطاجين .»

كان نظام المعركة لدى القرطاجين على الشكل التالي : تقف المشاة الثقيلة في الوسط (القرطاجيون ، الليبيون ، الفينيقيون ، الاسبان والمغول) ، وفي الصف الاول اصحاب المقاليع ، واحيانا الفيلة وتتمركز الخيالة الثقيلة على الجناحين مع فئاة من الخيالة الجزائريين ، وهذا الخليط المتنافر لا يمكن ان يؤتى نتائج طيبة الا بقيادة رجل عبقري كهانيبال .

وقد قاوم الرومان هذا الجيش المشوش خلال ستة عشر عاماً ومع ان قيمتهم العسكرية كانت عالية ، الا انهم لم يستطيعوا الغلبة على هانيبال في زاما عام ٢٠٢ ق.م . الا حين شكل سيبيون الافريقي فيلقاً من الخيالة وسلحه . وقد قضى هذا الانكسار على قوة القرطاجين ، حضرت قرطاجنة منذ ذلك التاريخ مجرد مدينة تجارية لا تملك الدفاع عن نفسها .

وقد اشار المؤرخان تيت ليف ويوليب بايجاز الى تأثير هذه المعركة الفاصلة ونتائجها ، فقال الاول : « كان ينبغي ان نعلم قبل مساء اليوم الثاني ايا من روما وقرطاجنة ستملي شروطها على العالم ، اذ لم تعد افريقيا او ايطاليا لوحدها مدار المعركة بل العالم باسره .» وقال الثاني : « اما القرطاجيون فكانوا يحاربون في سبيل ضمان حياتهم الخاصة وفرض سياداتهم على ليبيا ، واما الرومان فكانوا يحاربون في سبيل الاستعمار والسيطرة العالمية .»

هذه القوة التي بلغها الرومان ، مع نمو الثروة افسدت روما وتحول الجيش الروماني القديم بسرعة فائقة الى جيش من المرتزقة من الذين تطوعوا في المقاطعات من الطبقات الفقيرة . وحلت محبة الكسب والربح شيئاً فشيئاً محل حب الوطن الذي كان متأصلاً في النفوس ولم تعد الفتوحات تهدف سلامة روما وعظمتها بل اضحى المقصود منها اثراء طبقة الاغنياء الحاكمة وزيادة رواتب العسكريين .

وفي عام ١٠٤ ق.م الغى ماريوس شرط الملكية المفروض للتجنيد ، إذ لم يعد الجيش مؤلفاً الا من العمال من طبقة البروليتاريا ومن العسكريين المحترفين .

ولكي يتمكن ماريوس من الصمود في وجه المخاطر التي تعرض لها بسبب الفرج الكثيرة المتروكة في جبهة القتال ، من جراء نظام السرايا فقد أعاد تنظيم الفرقة من ثلاثة صفوف من الكوهورت ، ويتألف كل منها من خمس سرايا .

وعلى هذا الأساس كانت الوحدة التعبوية تتألف من (٦٠٠) جندي عوضاً من ١٢٠ ؛ وبما أن الفرقة كانت تتألف من عشرة من الكوهورت ، موزعة بصورة عامة على اساس اربعة في الصف الأول، وثلاثة في الصف الثاني ، وثلاثة في الصف الثالث ، فقد ازداد عدد جنود الفرقة من (٤٢٠٠) الى (٦٠٠٠) .أما الخيالة النظامية فقد الغيت واستعيض عنها بالخيالة الاجنبية الاضافية كما أنقصت الفرج بين وحدات الكوهورت بالتدريج وبالتـــالي عاد نظام وحدات المشاة الى الوجود .

ومـع ان الجنود كانوا يتطوعون من طبقات اجتماعيـــة دنيا ، الا أن مرتباتهم كانت آخذة بالازدياد ، وقد حل البخل والجشع محل الشرف . وغدت الجيوش تابعة الى الرؤساء الذين يدفعون لها مرتبات أكثر . وبازدياد تدني قيمة رجال الجيش كانت الحاجة الى قيادة حكيمة صارمة تزداد يوماً عن يوم .

وهكذا أفسح نظام الميليشيا القديم المجـال للجيش المحترف الذي أخذ يزداد آلية بالتدريج ، كما افسح المجـــال لفن الاعمال والتحصينات والحصار ، تلك الفنون التي اخذت تتقدم بشكل طفرات .

وقد كانت الجيوش التي من هذا النوع بحـــاجة الى قادة مثقفين وماهرين فإذا عثرت على مثل هؤلاء القادة ، اصبح النصر مضمونا . وقـــد قال المؤرخ مومسن عن جيش يوليوس قيصر : « لم يوجد قط جيش كجيشه يملك كافة الشرائط اللازمة لتأليف جيش قوي . » ومع هذا كله فقد كان هذا الجيش يحمل

في نفسه أسباب دماره ، كما يحمل في طياته أسباب انهيـــار الامبراطورية التي ينتمي اليها .

إن بنية الفرقه في عهد يوليوس قيصر غير معروفة الآن بالضبط . ويرجح أنها كانت تشبه وضعها في عهد ماريوس ، ويحتمل أن تكون قـــد طرأت على سلحتها ووسائل حمايتها بعض التغيرات وذلك بالنسبة للقطعات الخفيفة، وذوي لقاليع وحملة القوس ، الذين أصبحوا أكثر عدداً مما كانوا عليه في السابق .

والتجدد الأكثر أهمية هو مـا كان من ازدياد قوى الخيـــالة والمدفعية وعدد قطعـــات الهندسة . أما ازدياد الخيالة فيعود الى الاحتكاك بالقرطاجيين وغيرهم من الفرسان الجبليين الأجـانب ، واما ازدياد قوى المدفعية والهندسة فيعود الى الحروب التي دارت رحـاها بين اليونان والقرطاجيين ، بالاضافة الى الاحتكاك بمهندسي الاسكندرية .

عرف يوليوس قيصر ، وكان عبقرية عسكرية ، عرف كيف يـــدبر آلة الحرب على أحسن وجه ، فكان يدير الحرب بصورة علمية ويتوخى في ذلـــك لمثل الأعلى . كما كان يحول معسكراته المخندقة الى معاقل متحركة ، ويقطع خطوط مواصلات العدو . وكان سريعاً في وضع الخطط ؛ ويستحيل على عدوه أن يخدعه . ولكنه كان قاسياً ، تبلغ فيه القسوة حد التطرف . فمعاركه هي عبارة عن مذابح كبيرة ، وكانت مواقعه عبارة عن اقتتال وحشي دام .

تعرض عصر الشجاعة والجرأة الى الانحطاط ، وانحطت معه روح الفروسية وقد استغرب المؤرخ بوليب تهديم المدن وتخريب القرى « فتدمير الرومان للأشياء التي يحاربون من اجلها هو عمل جنوني ، بل جنون خطر . »

وعندمـا نشبت الحروب الأهلية التي كانت تنذر بتقويض الجمهوريـــة الرومـــانية ، اعاد او غسطوس (٦٣ — ق . م . — ١٤ ميـــلادية تنظيم الجيش على أساس ثلاث فئات : الفرق ، والمساعدون ، والحرس البريتوري .

أمـا جنود الفئة الأولى فكانوا يؤخذون من المواطنين الرومـان ولو أن ملايين ممن يحملون هذا اللقب كانوا في ذلك الحين اجانبا وأما المتطوعون الذين كانوا يشكلون الطبقة الثانية ، وهم الاجانب فكانوا من حملة القوس والخيـالة . وأمـــا جنود الفئة الثالثة فـكانوا يشكلون قوى الحرس ، ومجموعهم (١٠) كوهورتات تتألف كل منهـا من (١٠٠٠) مقاتل . وقد توقف التطوع عملياً في ايطـاليـا اعتباراً من سنة ٧٠ ميلادية ، وبقيت الخدمة في الفرق وقفاً على المواطنين الأصليين .

وبكلمة موجزة لقد اقام اغسطوس دولة عسكرية كان هو قائدها الاعلى، فـكان الجندي تبعاً لذلك يقسم يمين الولاء للامبراطورية .

والمشكلة التي واجهت اغسطوس وخلفاءه حتى (٢٥٠) ميلادية هي حفظ لامن الامبراطوري ، الامر الذي لم يكن يتطلب جيوش ميدان قوية فحسب ، بل يتطلب ايضاً اقامة ثكنات على الحدود . وقد حل اغسطوس هذه المشكلة بأن شكل جيشاً قوامه (٢٥) فرقة يقابلها عدد مساو من الفرق المسـاعدة ، حتى بلغ مجموع هذا الجيش (٢٨٠٠٠٠) مقـاتل ، قسموا الى (٢٥) وحدة حدود ، تتمركز كل منهـا في نقطة عسكرية قوية تشبه القلعة . وقـد عززت الحدود ، ووصلت هذه النقـاط بطرق . وبما أن القصد من تأليف هذا الجيش منذ ذلك التاريخ هو المحافظة على السلم اكثر منه شن الحرب ، فقد اخـذت الشجاعة الرومانية القديمة تخف بالتدريج ، هذه الشجاعة التي كان يغذيها الشعور الوطني والرغبة في الغنائم .

كان لهذا التبدل في القيم المعنوية نتيجتان : الاولى أنه نشر مبدأ حب السلام كنتيجة لاختفاء الخوف ، والثانية أنه خلق أبشع صورة للمبدأ العسكري ، بأن ربط مصير الامبراطور بالجيش .

وقد وصف احد الكتاب الرومان في عهد نيرون ، الشرائط الاجتماعيـــة التي سادت نتيجة زوال الخوف فقال : « ان حب المال هو سبب هذه الثروة ،

فنحن الذي وهبنا وقتنا للنساء والشراب ، لم يعد لدينا شجاعة للاشتغال بالفنون التي ابرزها غيرنا للوجود ! ولم يعد لدينا شيء نتعلمه أو نعلمه للغير سوى الفساد . فلا تعجبوا من انحطاط فن الرسم ، مادامت كتلة من الذهب تساوي في نظر الآلهة والبشر شيئاً اجمل بكثير من تحف اليونان الفنية التي نعدها من عبث المجانين . »

وفي عام ١٧٥ دب الانحلال الى الشجاعة الرومانية ، ولم يبق لأخلاق البطولة من اثر حتى أن السفسطائي اليوناني أريستيد كتب يصف الحالة التي وصلت اليها اخلاق العصر بقوله : «

الآن وقد أخلد الناس جميعاً الى الراحة والسكينة وخلعوا عن انفسهم الثياب الفولاذية القديمة ، واختاروا بملء ارادتهم ضروب الزينة والملذات . وتركت المدن خصوماتها القديمة وحصرت همها في التنافس بشيء واحد : وهي الرغبة في أن تصبح أجمل واكثر جاذبية من سواها . وقد اقيمت الاندية الرياضية في كل مكان ، وعيون الماء ، والاقواس والهياكل ، والمصانع ، والمدارس . واستعاد العالم المريض منذ الخليقة صحته .... فيكفي أن تكون رومانيا كي تعيش بأمن ودعة . »

وقد تحملت الفرقة الرومانية والحرس البريتوري بصورة خاصة نتائج هذا الميل للسلم ، فتضاؤل عدد المتطوعين في الجيش من المواطنين قضى بضرورة تجنيد البرابرة من خارج الامبراطورية من المالين للحرب . وقد ادى تطوعهم بأعداد كبيرة الى قلب الجيش الروماني الى جيش غير وطني ، وغدا هؤلاء هم الذين ينصبون الاباطرة ويخلعونهم . هكذا نتج عن تفشي الميول السلمية أن نشأت الحكومات العسكرية حيث اختفى الانضباط الروماني القديم من الوجود .

وفيما كان هذا الانحطاط يزداد ، اكتسحت قبائل الجرمان والفرنجة بلاد الغال عام (٢٥٠) . وكان هذا بدء الغزوات الكبرى . وبما أن الامبراطور ديوقليس لم يعد بوسعه الاعتماد على الدفاعات

لمقاومة وتكنات الحدود وكان قوامها (٢٥٠٠٠٠) من المشاة و (١١٠٠٠٠) خيال - فقد شكل جيشاً قوامه (١٥٠٠٠٠) مقاتل ، و (٤٦٠٠٠) حصان بمثابة قوة احتياطية مركزية . ولكي يجعل هذا الجيش اكثر حركة ومرونة خفض مجموع رجال الفرقة وجعل منها وحدة قوامها الف مقاتل ، وضاعف عدد رماة القوس ، وحملة المقلاع ، والآلات الحربية .

ومع هذا كله واصلت القبائل الجرمانية تقدمها ، إلا ان فالانتينيان استطاع في وقت ما ان يقهرها (٣٦٤-٣٧٥)م ، وبعد ان انتخب امبراطوراً عين أخاه فالانس مساعداً له وعهد له بحكم المقاطعات الشرقية . وقد أخذ يتصرف بلا ترو حتى فتح باب الدانوب الى الغزو الكبير الذي قام به القوط .

وذلك أن فالانس حين علم بأن القوط طلبوا الترخيص لهم بعبور الدانوب ، اجابهم الى طلبهم ، وقد رأى فيهم عنصراً صالحاً للتجنيد في جيشه . ولكن هؤلاء بعد ان عبروا الدانوب ، عوملوا معاملة سيئة تمردوا على اثرها وخربوا تراقيا .

وقد وصف الاستاذ اومان في كتابه (تاريخ فن الحرب) وصف تسلح قبائل الجرمان بقوله :

« كان الجنود يحملون تروسا مغلفة بالحديد ، وحراباً وسيوفاً قصيرة حادة ، وسيوفاً طوالاً قاطعة ، وكان البعض منهم يحملون البلطات العريضة المخيفة ، او مناجل القتال ، وكانت اذا قذفت او رميت اخترقت الدروع الرومانية ، وشقت الترس .

وطريقة القتال عند القوط تقوم على استعمال حاجز من العربات . وكان سلاحهم الرئيسي عبارة عن فيلق قوي من خيالة الهجوم . ولعدم وجود آلات حصار عندهم ، لم يستطيعوا الاغارة على المدن المحصنة ، مما جعل حصولهم على الانتصارات الحاسمة أمراً صعباً للغاية .

وعندما حل الخراب بتراقيا ، كان فالانس في انطاكية . فقفل مسرعاً الى القسطنطينية ، وعهد الى سباستيان ، وهو عسكري ممتاز ، بقيادة الجيش الذي

سيحارب القوط . فاختـار سباستيان الفين من حيرة الجنود ، وبعد ان دربهم حسن التدريب أخذ ينهك العدو بهم .

وسار فالانس من القسطنطينية على رأس جيش كبير ووصل الى ادرنـة وهناك نصحه سباستيان بان يحتمي بجدران المدينة . ولكن فالانس لم يأخذ بنصيحته وتابع تقدمه ، وأصبح في ٩ آب سنة ٣٧٨ قرب الظهر على مرأى من عربات القوط .

ولما اخذ جيشه بالهجوم ، أغار عليهم فرسان القوط من سفوح الجبـال ، كانقضاض الصاعقة ، فدبت الفوضى في صفوف جيش فالانس وحطم بكامله ، وابيد في هذه المعركة مالايقل عن (٤٠٠٠٠) من رجاله . لم يسبق ان تعرض الرومان لمثل هذه الهزيمة المنكرة .

وقد قال الاستاذ مارتان بانغ صاحب « تاريخ كامبرج للحروب الميدية » : « لقد استولى الذعر والهلع على كل شيء يحمل اسم روما . وقـد استحال مجد روما وعظمتها الى مايشبه الرماد وقد اشتدت به الريح ، من قبل هؤلاء البرابرة القوط . وقد كانت معركة ادرنة آخر فصل في هذه المسرحية الكبرى كما تمخضت هذه المعركة عن نتائج لم يسبق للتاريخ ان شهد مثلها . وقـد دلت هذه المعركة دلالة واضحة على مايلي :

١ — ان الشجاعة هي اول ميزة مطلوبة في حرب الهجوم . وان العودة الى القوة الهمجية هو أمر لابد منه الى ان يكتشف مصدر معنوي جديد للالهام .

٢ — ان الخطط التعبوية القديمة للسرايا والفرق لم تعد صالحة مما يقضي بالأخذ باساليب تعبوية جديدة . —

كانت المشاة حتى ذلك التاريخ ، تحتل الصدارة في عهـد الرومان ، ومنذ ن اصبح لديها أسلحة هجومية صالحـــة ، لم يبق من سبب لتخوفها من الخيالة شريطة ان تحافظ على تماسكها ونظامها . ولكن استعمال القذائف الذي اخذ يزداد شيئاً فشيئاً ادى لامحالة الى بعث الفوضى في الصفوف . وحـل خط النار

بالتدريج محـــل الجدار المشكل من حملة الترس . لكن لما كان يتعذر على حملة القوس وحملة المقلاع ان يستخدموا بآن واحد الترس مع القوس او المقلاع ، وبما ان مدى هذه الاسلحة كان محدوداً جداً ، وان استعمال القوس كان غير فعال في الطقس الرطب ، فقد ازدادت اهمية هجوم الخيالة . وكان مشكلة الساعة اذ ذاك هي تنسيق قوة النار والحماية ضد غارات الفرسان . ولكن هذه لم تحل الا في منتصف القرن التاسع عشر .

وحين نهب القوط روما بعد (٣٢) عاماً من هـــذه المعركة أثر الحبر على القديس اوغوستان ، فالتهب غيرة على المدينة التي يعتبرها « بيت الله » فكتب مؤلفه العظيم « مدينة الرب » ، وكان هذا بمثابة الهام جديد خـلال تلك الحقبة الطويلة التي تفشت فيها الفوضى ، هـذا الالهام الذي بعث الشجاعة والجرأة من جديد في عصر الفروسية .

الفصل الثالث

عصر الفروسية

كان أثر الغزوات الكبرى عميقاً في مجرى التاريخ ، لايقل عن أثر الفوارق بين لحضارتين الاغريقية واللاتينية . كان من تأثير هذه الغزوات في الأمبراطورية الغربية ، ان زالت الفرقة الرومانية (١) من الوجود ، وذهب معها النظام الوثني لذي كان يدعمها ، مما أجبر الكنيسة اللاتينية ان تعيد التنظيم على اساس النظام البربري ؛ اما في الامبراطورية الشرقية فعدم حصول انهيار عسكري نهائي أبقى على النظام الوثني الذي تطور نحو المسيحية . وبزوال المنظمة العسكرية من الغرب اصبحت الشجاعة بشكلها البدائي الأم لي المثل الاعلى للجنود . وفي الشرق دخل تحسين كبير على المنظمة العسكرية ولعب ذكاء الجنود دوره في هذ التطور . وكانت النتيجة انه في الوقت الذي كانت التعبئة والتسلح آخذين بالتدهور في الغرب ، وصلا في الشرق الى درجة من الكمال لم يكن يضاهيها الا القرن التاسع عشر .

والغزوات البربرية في الغرب ، بارغامها الرومان على تبني خطط سوقية

(١) Legou Romaine

دفاعية اساسها الحركة ، أدت لى احلال الخيالة مكان المشاة . وبزوال الفرقة لرومانية نحو منتصف القرن الخامس ، اصبحت الخيالة السلاح الفعال الوحيد. وهكذا احل الرمح والقوس محل السيف والحربة (٢) ففي معركة حقول كتالونيا سنة ٤٥١ ميلادية التي وقعت بين الرومان والقوط بقيـــادة أتيوس وتيودوريك من جهة ، والهنس (٣)بقيادةاتيلا من جهة اخرى . كان الصراع يجري بين الرماحة ورماة القوس من كل من المعسكرين ، في حين ان المشـاة كانوا يقفون من القتال موقف المشاهد . فلم تكن وظيفة المشاةلتتعدى عمليات التموين ، أو عمليات القطعات الخفيفة في المعارك التي تقع في الجبال أو المناطق لمشجرة . كانت الدروع قليلة الاستعمال لباهظة ثمنها وبسبب ضعف صناعتهـا ، وكان سبب قلة استعمالها على الاكثر عوقها للحركة ، وقد ظهرت للمرة الثانية في القرن السادس الميلادي بشكل سترة من الزرد ، فكانت اكثر مرونة وأيسر استعمالاً من الدرع المؤلف من صفائح معقدة .

كان المجتمع الغربي في ذلك العهد يعيش في دور مظلم طافح بالجرائم المنكرة للفوضى اتي كانت تسيطر عليه . وفي وسط هذه الفوضى ، التي انبعثت عنهـــا المسيحية ، ظهر دور اجتماعي جديد انقسم فيما بعد الى فرعين متعارضين ومتممين لبعضهما في آن واحد : وقد تمثل الفرع الاول بالكنيسة المسيحية التي اكتشف فيها البشر الذين كانوا غارقين في دياجير الفزع والجهل كالانعام ، اكتشفوا فيها نظاماً اخلاقياً جديداً . وتمثل الفرع الثاني في هذا انظام الاجتماعي الجديد الذي خلقه الاقطاع ، الذي كان يؤمن ضمـــانة لايمكن للاخلاق الجديدة ان تنمو بدونها . وبما ان الكنيسة كانت تمثل القيم الدينية الخـالدة ، في حين ان الدولة كان تمثل السـلطة الزمنية ، فقد كان من نتيجة ذلك ان السيطرة الدينية المطلقة لم تكن ممكنة الا اذا نظمت الحرب والسلم وفقاً لقوانين الكنيسة .

(٢) Javelot ' Dard

(٣) برابرة من أصل فلندي غزو اوربا في القرن الخامس الميلادي .

من هذا السعي ووراء السيطرة خرج مفهوم القرون الوسطى عن الحرب التي تعتبر حكما يصدر عن الاسلحة ، تقف فيه الكنيسة موقف المحكم باسم الله : لم تكن الحرب محظورة ولم يحاول احد ان يجرب الغاءها ، لانها كانت تعد صفة ملازمة للطبيعة البشرية ، فهي ثمرة الخطيئة الاولى التي يقوم عليها سلطان الكنيسة . والسبيل الوحيد لوضع حدود للحرب والتلطيف منها هو اضفاء المبادىء المسيحية والروحية على حرفة السلاح ، وتقصير مدة المعارك .

وبما ان الحرب تلقن الرجال الموت بشجاعة فهي مدرسة البطولة : وهذ هو المثل الاعلى الوثني . ولما كان الموت هو الذي يفتح ابواب الحياة السرمدية فالحرب يجب ان تكون مدرسة الاستقامة ، والا فان الموت يقود الى الجحيم تلك هي وجهة النظر المسيحية . لقد اصبح الجندي الكلاسيكي فارساً مسيحياً مثالياً ، يجمع الى جانب القوة واندفاع المحاربين الاقدمين ، شيئاً من رقة شمائل وانسانية القديسين ... ومع ان هذا المثل الاعلى كان ، كباقي المثل العليا ، بدعاً من الخيال ، قلما ان يتحقق بصورة تامة في الحياة ، الا انه بقي القدوة والنموذج للسمو الحربي الذي تهفو اليه قلوب الاجيال العديدة ، كما ان اثره الملطف للسلوك يلمس في سجايا الجنتلمان الحديث . »

وبعد ان اضيفت النزعة الروحية على حرفة حمل السلاح ، وجب الحد من نشاطها بوضع جزاءات وقواعد لها . وكان « السلم الالهي (١) » اول تدبير متخذ بهذا الصدد ، وذلك منذ سنة ٩٩٠ ميلادية . وكان الغاية منه حماية الاملاك الكنسية ، والرهبان ، والحجاج ، والنساء ، والفلاحين ، والقطعان والادوات الزراعية ، ضد اذى الحروب . والتدبير الثاني كان « الهدنة الالهية (٢) » فكل عمل حربي يجب ان يتوقف منذ ظهر السبت حتى فجر يوم الاثنين ثم امتدت هذه الهدنة فيما بعد من ظهر الاربعاء حتى صباح يوم الاثنين ثم دعا البابا اوربان

---

(١) Paix de Dieu

(٢) Trêve de Dieu

الثاني ، المحرض على الحروب الصليبية ، في سنة ١٠٩٥ ميلادية ، دعا الى « هدنة اسبوعية لكل المسيحيين ، تضيف ضمانـــة سلمية لكل من يلجأ الى الصليب او المحراث . »

ووضعت عقوبات دينية كالفصل (١) ، والمنع من ممارسة الطقوس (٢) ، لتأمين نفاذ هذه الهدنة ، ومع ان النتائج كانت ضعيفة ، إلا ان هذه الجزاءات كان لها مفعولها ، لأنها وسمت المعتدي بميسم الاثيم ، في نظر المسيحيين .

ثم أتى النظام الاقطاعي بقيود (٣) ثانوية جديدة للحروب : اولاها هو قصر الحرب على طبقة النبلاء او تنظيمها بقوانين ادبية (٤) ، والحد الثاني هو ادخال نظام الفدية ، وهو الثمن الذي يدفعه الاسير لتخليص رأسه او استعادة حريته ، وتؤديها البلد لضمان عـــدم تعرضها للسلب وسفك الدماء ، وشراء السفينة ممن أسرها . وقد اعترف القانون بحق الفدية . ولم يقتصر الامر على تلطيف شراسة الحرب ، بل لقد اصبحت الفدية تجارة حقيقية ، لدرجة اصبحت فيها الحرب في ايطاليا خلال القرن الخامس عشر طمعاً بالفدية ، اصبحت ضرباً من المظاهر .

هذه القيود (٥) المختلفة ، يضاف اليها شرائط العصر الاقتصادية حدت من أضرار الحرب . حتى ان اوامر هنري الخامس ، ملك انكلترا ، الذي لم يكن محارباً رحيما ، ترن اليوم في آذاننا ، في عصر التدمير الشامل الذي نعيش فيه : « يجب ان لاتبلغ جرأة الرجال ، اياً كانوا ، حد دخول مخادع الامهات ، او ختطافهن ، او سلب اقواتهن ، او تعريضهن واطفالهن للخطر والمرض الناجمين عن الذعر . »

Esccommunication (١)
Interdis (٢)
Restrictoi (٣)
Codes d'homeur (٤)
Restriction (٥)

« لاينبغي للرجل اياً كان ومهما بلغت جرأته ان يأخذ المحراث او الحصان و أي حيوان يخص الفلاح اذا لم يدفع ثمنه ، او يحصل على موافقته . »

« لاتتلفوا الاشجار المثمرة ، ولا تخربوا البيوت لاحراق اخشابها . »

كانت مثل هذه الاوامر تنفذ بصورة عامة ، الى ان انهارت السلطة البابوية اثناء الحروب الدينية التي بلغت فيها القسوة اوجها في حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ - ١٥٤٨) .

وقد أدى صبغ الحرب بهذه الصبغة الروحية الى نتيجتين حدتا من نتائجها : بما ان الاغنياء ذوي النفوذ هم وحدهم يستطيعون الحصول على درع ، فالحرب اصبحت في مستوى ارستوقراطي . ولما كان لبس الدرع من جهـــة أخرى يضطر المقاتلين الى الالتحام والقتـال جسما لجسم ، فقد حد هذا من استعمال الاسلحة التي ترمى عن بعد ، كما خفض نسبة الخسائر في الارواح الى حد كبير. وقد وقعت معارك عديدة في ذلك العهد ولم تكن سوى مناوشات بين جماعات صغيرة من الفرسان الذين يرتدون الدروع ، اولئك الفرسان الذين يبحثون عن القتال الافرادي ، فارساً لفارس ، هـــذا النوع الذي يبرهن على كفاءة المحارب وقيمته اكثر مما يبرهن على قدرته على التدمير . وكان الهدف هو القاء الفارس عن ظهر حصانه ، لاقتله. خلاصة القول لم تكن المعارك سوى مباريات تجري باسلحة غير جارحة .

ثم حاولت الكنيسة ان تحـــد من استعمال الاسلحة ذات الرمي(١) كالأرباليت (٢) ، التي بدأ استعمالها في مستهل القرن الحادي عشر . وكان أشد الاسلحة فتكا قبل ظهور القوس الانكليزي . وقد حظر مجلس اساقف لازان الثاني في ١١٣٩ ، استعمال الارباليت ، تحت طائلة الفصل عن الكنيسة « لان هذا السلاح مكروه امام الله ولا يليق بالمسيحيين استعماله . » كما ان الميثاق

---

(١) [illegible] (١) وهي نوع بدائي القوس .

الاكبر حرم استخدام رماة الارباليت الاجانب . ولكنه كسلاح حربي كان موضع اعجاب ريشار قلب الاسد ، الذي اصطحب معه الى فلسطين الفاً من رماته ، لخوض الحرب الصليبية . ولقد كان استعمال الارباليت رغم نقمة الكنيسة شبه عام ، باستثناء انكلترا !

وينبغي اخذ هذه القيود بعين الاعتبار اذا أريد دراسة الحروب في هذه الحقبة . فاذا اعتبرنا صعود شارلمان الى قمة المجد في سنة ٧٦٨ كبداية لمرحلة جديد في تاريخ الحرب ، فقد كانت هذه المرحلة في جوهرها رومانتيكية : اذ لم يعد « الناسك (١) بطلا بالنسبة للخيال الاوربي ، بل البطل هو الملك ، والمحارب ، والفارس ... » فقد أفل نجم الزهاد والشهداء ، وازدهر عصر الصليبي والفارس .

ازدهرت هذه الرومانتيكية بفتوحات شارلمان الذي شرع في تنظيم عناصر النظام الاقطاعي لتقوية امبراطوريته ، تلك العناصر التي بدأت تتحد في عهده وفي القرن التالي ، بتأثير النورمان والماجيار .

أنشأ شارلمان على طول حدود بلاده مخافر دفاعية ، لحماية امبراطوريته الشاسعة ، وكانت هذه المخافر محاطة بحواجز ، وهي بمثابة قواعد لمناورة قواته السيارة ، التي كانت موضع عناية خاصة ، اذ رجحت فيها كفة الكيفية على الكمية . كانت هذه القوى السيارة تتألف على الاغلب من فرسان مدرعة ، الامر الذي جعل الطبقات الفقيرة في منجى من اعباء الحرب . ولم تكن مشاة شارلمان ، كما كانت المشاة حتى ذلك العهد عباره عن غوغاء مسلحين بالعصي الغليظة ، أو الادوات الزراعية ، بل كانت مشاته قطعات حسنة التنظيم والتجهيز ، مسلحة بالسيوف والرماح ، والارباليت ، ثم اخذ القواد العسكريون في المقاطعات فيما بعد يزودون فرسانهم بالتروس والرماح والسيوف والخناجر .

(١) L'ermite

أدرك شالمان أن الجيش لا يمكن أن يكون مرن الحركة إذا لم يكن لديه وسائل للاعاشة بالأضافة الى الاعتماد على البلاد التي يدخلها ، وأن ليس باستطاعة الجيش أن يستولي على المدن المحاطة بالحواجز ولا سوار ، والمخافر الدفاعية .

لهذا نظم نوعين من النقل العسكري ، الأول لحاجات الحصار ، والثاني للتموين ، وهذا الأخير ينقل اغذية تكفي ثلاثة أشهر ، وعتاداً وألبسة تكفي ستة اشهر . وكانت كل من عربات النقل تحمل حزماً من الاوتاد المجهزة بقطع من الحديد لرد هجمات الخيالة .

أعار شالمان الدرع اهتماماً كبيراً ولم يقتصر الأمر على إحصاء جميع الدروع في مملكته ، بحيث لا يمكن حيازة درع مابصورة غير مشروعة ، بل لقد صدر مرسوماً حظر فيه تصدير الدروع .

بدأت هجمات النورمان بعد قليل من تتويج شالمان ، ولم تصبح هائلة الا بعد وفاته في ٨١٤ م . وفي عام ٨٥٠ من الميلاد ، ركب البحر جميع الذكور من سكان سكندينافيا ، وأصبح القرن التالي حقبة مظلمة لا تعد لها أي حقبة في تاريخ اوربا كان الصخب يتعالى لدى اقتراب سفن القراصنة الغزاة من المتوحشين ، وكان فرسانهم يرتدون جلود الذئاب ، فيتعالى صياحهم كعواء الذئاب ، وتسمع اصوات الدروع التي يرتدونها .

هذه الغزوات الوحشية كانت مشجعا كبيراً بالنسبة للمنظمة العسكرية التي وصفها شارلمان ، فقد اصبحت حرفة الجندية أمراً لازماً ، بعد أن ثبت عدم فائدة الجنود المحليين المسلحين بأسلحة بدائية . وبما أن الخيالة هم وحدهم يستطيعون الصمود أمام الغزاة والتصدي لهم بسرعة ، هكذا فإن القوة العسكرية ازدادت تمركزاً في أيدي النبلاء فبنيت القصور ، وشيدت نقاط الارتكاز ، ونصبت الحواجز حول المدن ، ومدت الجسور القوية على الأنهار لقطع طريق الغزاة ، أولتكون ملاجيء يعتصم بها الفلاحون .

تمخض هذا العهد المضطرب الذي تلاه غزوات الماجيار في القرن العاشر

الميلادي ، تمخض عن مجتمع عسكري دعائم نقاط الارتكاز المحاطة بالحواجز والفرسان ، وقد كان هذا المجتمع اساساً للنظام الاقطاعي الذي أعقبه .

اتخذ الملك الفريد في انكلترا (٨٤٨ - ٩٠٠) م ، تدابير أخرى . فهو مع استناده الى جهاز الدفاعات والتحصينات ، الا أنه استعاض عن الخيالة بتشكيله اسطولاً بحريا دمر النورمان بسلاحهم الخاص ، وأبقى الانكليز الى جانب ذلك على ثقتهم بسلاح المشاة ، في وقت أصبحت فية الخيالة السلاح المسيطر في القادة الاوربية .

أهم هذه الحملات أثراً في المستقبل ، هي حملة رولف الذي عبر البحر باتجاه الغرب الى أن بلغ مقاطعة بريطانية الفرنسية ، فأعمل فيها السلب والنهب وأسكن فيها النورمان ، ثم احتل مدينة روان في ٩١١ م وأصبح موالياً لملك فرنسا شارل البسيط بعد أن أخذ لقب دوق نورماندي ، نسبة لشعبه .

ثم اعقبه وريثه غليوم الفاتح ، الذي انتصر على هارولد ملك انكلترا في هيستينغ في ١٤ تشرين اول عام ١٠٦٦ م ، وهذه المعركة من اكبر الامثلة المؤيدة لتأثير التسلح في مجرى التاريخ .

التقى في هذه المعركة الشهيرة التي قررت مصير انكلترا ، جيشان مختلفان كل لاختلاف كان المشاة قوام الجيش الانكليزي، وكانوا مسلحين بالسيوف ، (١) والبلطات ، والعصي القصيرة ذات الرؤوس الحديدية والرماح . وكانت البلطة سلاحاً رئيسياً .

وكان النورمان يشكلون ثلاثة تشكيلات مختلفة : الخيالة ، ويحاربون على صهوات خيولهم ، والمشاة ، ورماة النبل . وكان الخيالة والمشاة يرتدون الدروع ويحملون الترس المضلع ، وكانت الاسلحة الثلاثة الرئيسية هي الرمح والسيف والقوس ..

ويبدو ان غليوم ادرك حالاً تفوقه في السلاح اذ أعلن لجنوده قائلا :

اليس من المخجل ان يظهر امامكم بنظام المعركة المنتشر ، شعب اعتاد الخضوع ويجهل فن الحرب ، هذا الشعب الذي لايعرف السهم . »

نشأ عن هذه الاسلحة نوعان من التشكيلات التعبوية ، كانت التشكيلة التي يتبعها هارولد « جـــدار حاملي الترس » ، « فالترس الى جانب الترس ، كتفاً لكتف » .

اما غليوم فقد قسم جيشه الى ثـــلاث فرق . الميمنة والميسرة والقلب ، وتتألف كل فرقة من ثلاثة الوية ، وكان رماة النبل في المقدمة ثم يأتي المشاة ، وفي المؤخرة الفرسان .

بدأت معركة اشداون في الساعة التاسعة صبحاً سنـــة ٨٧١ ، ومرت بمراحل أربع :

آ) هاجم فرسان غليوم لجدار التروس تحت ستار من رشق من السهام ، ولكنهم ارتدوا على اعقابهم ، وتلى ذلك هجمات أخرى بدون جدوى ، وانسحب الجناح الأيسر لغليوم بعـد أن دب الاضطراب في صفوفه ، وتقدم هارولد ثم رد أيضاً .

ب) شنت قوات غليوم هجوماً ثانياً عاماً ، ولكن جدار التروس أبدى مقاومة من جديد .

ج) تظاهر غليوم بالتراجع فتقدم هارولد على اثر هذا التراجع المصطنع ، ولكن تقدمه لم يقترن بنتيجة . وهنا انهك الخصمان .

د) وبما أن اللجوء الى عملية انقضاض جبهي لم يكن يؤذن بنجاح فقد أمر غليوم جنوده من رماة السهم « ان لايسددوا سهامهم مباشرة نحو العدو ، بل يقذفوها الى أعلى في الفضاء ، بحيث تحجب السماء فوق صفوف العدو بكثافة هذه السهام التي تشكل مايشبه طبقة من الغيوم ؛ » وقد اسفرت هـذه العملية عن نتائج آنية خارقة ، « فقد ثقبت الخوذ ، وتدلت العيون من الاحداق واخذ

الرجال يحاولون ستر رؤوسهم بالتروس ، فأدى ذلــــك الى اضعاف ضرباتهم بالبلطات، وهكذا تضعضع بالنهاية جدار التروس، واخترقته الخيالة وربحوا المعركة.

والأمر الجدير بالملاحظة من وجهـــة نظر التسلح هو ان الخيالة الممتازة لاتستطيع اقتحام وحدات المشاة الممتازة ، وان وحـدات المشاة مهما كانت ممتازة لاتستطيع مهاجمة الخيالة الممتازة ، فالمشاة المسلحون للمعارك القريبة تعجز اذا اجتمعت قوة الهجوم الى كثافة النار ضدها . ومن جهة اخرى لو لم يدعم حملة الاقواس بالفرسان ، لأمكن طردهم بسهولة من الميدان من قبل مشاة هارولد . وهكذا اصبحت القوس السلاح الرئيسي ، بعد ان كانت غير ذات شأن في الغرب باستثناء غليوم .

قد يتساءل المرء لم لم يدرك الغرب أهمية القوس بصورة مبكرة بعد انتصار غليوم ، فمرت ثلاثة قرون تقريباً قبل ان يحدث الانكليز ثورة تعبوية باستعمال القوس ، ولم لم تتبن فروسية الغرب هـــذا السلاح في تلك الآونة . والجواب الوحيد لهذا السؤال هو ان استعمال الاسلحة المقذوفة (١) كانت تتناقض والمثل العسكري الاعلى في الغرب ، كما هو وضع الغازات السامة اليوم .

لم تكن هذه الظاهرة موجودة بالنسبة للامبراطورية البيزنطية الشرقيـة ، يبدو هذا من وضع جيش جوستنيان الذي كان يقوده بيليريز (٥٠٥ — ٥٦٥) ميلادية ، وقد قال هذا القائد الكبير : « ان الفارق الرئيسي بين القوط وبيننا هو ان خيالتنا وخيالة الدول الحليفة لنا هم رماة قوس ممتازون وهم ممتطون خيولهم ، في حين أن العدو ليس لديه سوى فكرة بسيطة عن الرمي بالقوس . ففرسان القوط لايستعملون سوى الرمح والسيف ، في حين ان المشاة من رماة السهم يبقون دائماً في المؤخرة تحرسهم كوكبات ثقيلة (٢) ، وهكذا تبقى الخيالة

---

(١) Arme de jet

(٢) Escadron Lourd

عندهم بدون فائدة طالما أن المعركة لم تتحول الى قتال قريب (١) ، فيمكن دحرهم بسهولة وهم ينتظرون بتشكيلات القتال أن تحين ساعة الالتحام . هذا وان مشاتهم من رماة السهام ، لايجرؤون على التقدم أمام الخيالة ، بل سيبقون بعيداً الى الخلف .

وفي معركة تاجينه التي انتصر فيها نرسيس على ملك القوط بادويلا سنة (٥٥٢)م صف الاول عشرة آلاف فارس مترجل ، وأحاطها بجناحين أماميين بشكل هلال ، فيها (٤٠٠٠) من رمـــاة القوس . ووضع في المؤخرة تشكيلة من الفرسان على صهوات الخيول على سبيل الاحتياطي . ولما أخـذ جيش بادويلا يتقدم نحو الفرسان المترجلين حصدهم رماة القوس ، ثم بدأ الضعف يستولي على جيش بادويلا فهاجمهم فرسان الاحتياط ودحروهم .

وهكذا اقترنت بنجاح تام اول تجربـــة لاستعمال الرمح والقوس معاً في التاريخ الحديث .

إن سبب تماسك الامبراطورية البيزنطية خلال عشرة قرون رغم هرمها ، في الوقت الذي كانت ممالك أوربا الغربية غارقة في الفوضى ، هذا السبب لايعود الى البطولة بل مرده الى التنظيم العسكري . فغنى الامبراطورية بثروتهـــا ، وعظمة القسطنطينية كقلعة لامثيل لها ، وتقنين فن الحرب من قبل الاباطرة موريس (٥٦٢-٦٠٢) وليون الحكيم (٨٨٦-٩١١) في مؤلفاتهم عن «السوق» و «التعبئة» ، كل هذا اعطى جيوش الامبراطورية ثباتاً لايعرفه الغرب قط . كان ينظر الى الحرب من وجهة عملية لا من وجهة نظر البطولة . فكانوا يتحاشون المعارك ولا يطلبونها ، إذ يعتبروا تضحية الارواح البشرية للحصول بواسطة البطولة على مايمكن الحصول عليه بواسطة الخدع الحربيـــة ، دليلا على اسوأ امثلة القيادة .

---

(١) Combat Rapproché

كانت قوى الامبراطورية المحاربة ، تقسم الى خيالة ومشاة ومدفعية . وكان الفرسان يرتدون الخوز ودروع الزرد ، يحملون ترساً مستديراً ورمحاً وسيفاً ، وبلطة ، والمشاة تقسم الى زمر وسرايا وافواج ، وفيها المشاة الخفيفة والثقيلة ، فالمشاة الخفيفة ترتدي الدروع ، وتحمل التروس ولرامح السيف أو البلطة . ورجال المدفعية يعملون على الآلات التي تقذف الحجارة والسهام والكتل الملتهبة ، وكان الجيش البيزنطي مسلحاً بسلاح فريد في نوعه ، وهو « النار البحرية » الذي هو مزيج من المواد الملتهبة التي تحترق بتماسها مع الماء .

ويقول بعض المؤرخين أن مهندساً اسمه كاليليكوس فر من سوريا سنة ٦٧٣ ، الى القسطنطنية ، وركب هناك « النار البحرية » التي اتاحت للبيزنطيين تدمير الاسطول التركي في أول حصار له لهذه المدينة .

وكان امير البحر البيزنطي يضع في جؤجؤ السفينة تماثيل من رؤوس الأسود والحيوانات البرية المفترسة ، مصنوعة من البرونز أو الحديد المذهب ، لالقاء الرعب في قلب العدو ، وكان الجنود يقذفون « النار البحرية . » من اشداق هذه الحيوانات الفاغرة الأفواه .

وكانت نتائج هذه النار مخيفة في المعارك القريبة اذ كان اطفاؤها مستحيلاً . ويمكن تصنيف النار البحرية كقذيفة بين الأسلحة الحاسمة المعروفة . وفي اثناء الحصار الثاني للقسطنطينية من قبل المسلمين (٧١٧-٧١٨) م ، كان هذا السلاح مخيفاً ، وقد دمر الاسطول الاسلامي التركي مرتين بهذه النار في ٩٤١ م ، ثم ذهبت بالاسطول الروسي سنة ١٠٤٣ .

ويجب التمييز بين « النار الطائرة » و « النار البحرية » وقد استعمل ادوار الأول ١٣٠٤ « النار الطائرة » في حصار قلعة ستيرلينغ ، ثم استعملت من بعده مراراً عديدة ، ويقابلها في عصرنا « قاذفات اللهب » ،

وأول كارثة حاسمة مني بها الأمبراطور البيزنطي ديوجين هي معركة

مانزيكير سنة ١٠٧١ ، ومردها الى تقصير هـــذا الأمبراطور في تبني الخطة التعبوية التي وضعها موريس وليون من قبله . وقد كانت نتائج هذه المعركة خطيرة لدرجة دعت البابا أوربان الثاني أن يهيب بالمسيحيين سنة ١٠٩٥ لحمل السلاح واعلان الحرب الصليبية الاولى لحماية أوربا من غزو الاتراك .

كانت الحرب التي دعا اليها البابا مغامرة خارقة اكثر منها مجازفة عسكرية، لأن الاتحـاد بالقوى العلوية وغفران الذنوب ، والخلود الذي يدعى النـاس اليه تحت راية المسيح هو البـاعث والمحرك . كان هذا الاقدام في روحه وهدفه غاية الشرف والسمو الذي بلغته الفروسية .

لقد طغت الدعاية على الخطط السوقية شأن كل حرب فكرية فكان الهدف السوقي التدمير والافناء اكثر منه مجرد النصر .

كانت نقاط الضعف في النظام الاقطاعي تزداد تحرجاً وخطوراً خلال المعارك ، فقد تعدد الرؤساء والقادة ، ولم يكن ثمة وحدة في القيادة .

ومع ان المشاة لم يكن لهم في جيوش ذلك العهد أي قيمة تعبوية ، الا أن عشرات الالوف من هؤلاء الجنود المشـاة كانوا يسيرون من خلف الفرسان ، لاليدخلوا في القوى المقـاتلة ، بل ليفتدوا أرواحهم ، إذ أن الاغنيـاء والفقراء كانوا سواسية من الوجهة الروحية .

اجتـاز الصليبيون الأمبراطورية البيزنطية دون ان يفيدوا من الحروب العديدة التي دارت رحاها فيها . وقد شقوا طريقهم الى آسيا الصغرى دون أن يفيدوا شيئاً ، وهنـــاك وجدوا في فرسان الأتراك رماة القوس عدواً مخيفاً فسهامهم التي كانت ضعيفة المفعول ضد الدروع كانت تفتك بخيولهم فتكا ذريعاً .

بدأ الصليبيون يغيرون أسلوبهم التعبوي ، فقسمت المشاة الى سرايا وضعت تحت إمرة رجـال اكفياء ، وكان بعض هؤلاء المشاة يحمل أقواساً وأرباليت . وأخذت سرايا المشاة هذه تنتشر على شكل خط (١) أمام الخيالة ، فكان

---

(١) Ligne

هذا التوزيع للمقاتلين ذا نتائج أدهشت كلا الخصمين ، فأخذ الصليبيون يعزون انتصاراتهم الى خرافات لاأصل لها ، في حين أن استخدام الخيالة المدرعة والمشاة من رماة النبل في آن واحد معاً في أراضي غير ملائمة لأساليب تعبئة المسلمين هو السبب في انتصاراتهم ، أما في الأحوال الأخرى فكان النصر حليف المسلمين دوماً . وقد لاحظ الأستاذ أومان (٢) « لم يكن هناك سوى اسلوب تعبوي واحد كان يجب اتباعه ، (٣) وهو أن تكون المشاة بمثابة دعم ، كنقطة لاعادة تجمع الخيالة ، فإذا كان من النادر أن تكسب المشاة المعارك ، الا أنها تمهد لانتصارات الخيالة . »

لم يفد الغرب من تجارب الحروب الصليبية شيئاً من حيث فن الحرب والتسلح ، فلم تترك هذه الحروب أثراً في تاريخ التسلح ومرد ذلك الى سببين جوهريين . فالحرب كانت وقفاً على طبقة النبلاء ، كما وأن التفكير العسكري كان يتجه نحو الاسلوب الدفاعي . فكان الصراع القائم بين النبلاء هو وحده يستحق أن يسمى حربا في نظرهم ، فكانت النتيجة أن الذكاء العسكري ركز على اتقان الدروع وبناء القصور المحصنة .

ظهر الدرع ذو الصفائح في اواخر القرن الثاني عشر للميلاد وقد بقي ارتداء الدرع المزدوج (٤) قاعدة عامة الى أن أحرز صنع الدروع تقدماً محسوساً ، فبلغ الدرع ذو الصفائح أوج تقدمه خلال القرن الرابع عشر ، وعدل النبلاء عن الدرع المزدوج .

كان وزن الدرع آخذاً بالازدياد الى أن اصبحت حمولة حصان الفارس بين ١٥٠ و ٢٠٠ كيلو غراماً ، واعتاد الفرسان القتال بعد الترجل عن الحصان اذا كانت الأرض لينة لاتسمح بهجوم الخيالة ، أو حين تنهك الخيول . ولم يكونوا يقاتلون كمشاة بل كخيالة مترجلين ، لأن الدرع يعيق حرية الحركة الضرورية

---

(٢) في كتابه « تاريخ فن الحرب »

(٣) Point de Rallièment

(٤) أي درع من الزرد تحت الدرع ذو الصفائح

المشاة الحقيقيين في ممارسة اسلحتهم ، وكانت اكثر المعارك في هذه الحقبة تدور بين الخيـــالة المترجلين ، كمعركة تينشبري (١١٠٦) وبريمول (١١١٩) ، والايتـاندار (١١٣٨) ومعركة لينكولن (١١٤٦) . ففي المعركة الاولى (تينشبري) التي دارت بين هنري الاول ملك انكلترا واخيه روبرت ، خاض خيـالة هنري المعركة راجلين ، في حين احتفظ روبرت بقسم من خيالته على جيادهم ، وكانت الدروع تدرأ الاذى عن المقاتلين ، فلم يجرح ولا خيال واحد من رجال هنري . وفي معركة بريمول بين هنري ولويس السادس ملك فرنسا ، أنزل الاول (٤٠٠) من فرسانه الـ (٥٠٠) عن صهوات جيادهم ، في حين أن خصمه الذي لم يتبع هذه الطريقة هزم في النهـاية . ولم ترق دماء في هذه المعركة ايضاً فقد أسر (١٤٠) فارس فرنسي وقتل ثلاثة فقط .

كانت اغلب المعارك تدور بين الخيالة ، ولم يكن للمشـاة من وجود فيهـا الا نادراً . ثم ازداد عدد المرتزقة بسبب ازدهار المدن الكبرى الاقتصـادي ، وظهرت الميليشيا المجهزة تجهيزاً حسناً ، واخذت اهمية المرتزقة تزداد ، فـكانوا ينضمون تحت لواء الامير الذي يدفع لهم أجراً أكبر .

وللميليشيا علاقة خـاصة بتاريخ البلاد المنخفضة ، هذه البلاد التي لم تستسلم للفاتحين ، اذ كان لديهـا بصورة دائمة قوات كبرى من المشاة الى جانب الخيالة الاقطاعية . كانت هذه الميليشيا في القرن الثاني عشر مسلحة بالرمـاح وبدروع الزرد والخوذات . ثم حل فيما بعد القوس القديم محل الرمح . وكانت أول وقعة برزت فيهـــا الميليشيا هي معركة كورتيه ، في بلجيكا سنة ١٣٠٢ م ، حيث انتصرت على القوات الفرنسية وردتها على اعقـــابها . فكانت حدثاً جديداً إذ استطاعت قوات بورجوازية لا تتجاوز العشرين الف مقاتل ، أن تقهر جيشاً اقطاعياً قوامه (٥٠٠٠٠) مقاتل ، فيه (٧٥٠٠) فارس و (١٠٠٠٠) من رماة القوس القديم

وكما ان للدروع علاقة برجـال الاقطاع لانه يميزهم عن باقي أفراد الرعية ،

فكذلك القصور في ذلك العهد كان لها ارتباط بنظام الاقطاع ، إذ كانت ضمانة لاستمرار بقاء طبقة الفرسان . وكان من نتائج الحروب الصليبية العسكرية أنها قادت فرسان الغرب نحو القصور والمدن المحصنة الرائعة في الامبراطورية الشرقية وأعظم شاهد على هذه التحصينات الكبرى هو مدينة القسطنطينية . فقد كانت محاطة بخندق يواجه البحر يبلغ طوله ستة كيلو مترات ، وارتفاع الحاجز الداخلي (١٢) متراً شيد حوله (١١٢) برجاً ، ارتفاع كل منها عشرون متراً .

وقد بنى الصليبيون قصوراً عديدة في فلسطين، كان لها قوة دفاعية كبرى، فإذا زودت بحامية قوية ، استعصت على المهاجمين ، ولا يمكن أخذها الا بتأثير المجاعة أو الخيانة .

ازداد عدد القصور في القرن الرابع عشر ، فلم تخل منها مقاطعة . وقد أشار الاستاذ أومان الى ذلك بقوله : « إن التحسينات التي تناولت أساليب الهجوم كانت أقل شأناً مما اصاب الاساليب الدفاعية ، وقد كان للدفاع في سنة (١٣٠٠) م ميزة كبرى على الهجوم ، والسلاح الوحيد الذي كان يعتمد عليه في اعطاء الحصار نتائج حسنة هي المجاعة . »

نتج عن ذلك أن المعارك الكبرى كانت نادرة في حين كثر عدد عمليات حصار المدن والقصور ، فكان الخصم الأضعف يجد من الافيد له أن يلجأ الى الحصون من ان يخوض معارك الميدان . وقد قضت ضرورات الحصار بوجود المشاة ، لأن الفرسان ابوا اتيان عمليات التخريب ودك الحصون . وكانت عمليات مهاجمة القصور والدفاع عنها تتطلب استعمال القوس القديمة اكثر مما تتطلبه عمليات القتال في الميدان . ومع ذلك فلم يطرأ تطور على آلات الحصار باستثناء المنجنيق (١) الذي يعتقد أنه ظهر في القرن الثاني عشر . « وقدرته الحركية تأتي من سقوط حمولة ثقيلة جداً ، ويشترط أن يكون متيناً وسهل الاستعمال،

(١) Trébuchet

فلا حدود لقوته . » وقد روى البعض أن بعض الآلات كانت تقذف قذائف تبلغ وزنها (٥٠٠) كغ .

فالقصر الذي كان نقطة الارتكاز الرئيسية للصليبيين ضد المسلمين ، كان كذلك بالنسبة للنظام الاقطاعي . وبسبب التنظيم البدائي لمحاسبة الجيوش في الميدان ، هذا التنظيم الذي يحد من مدة العمليات ، كان يصعب فتح بلاد ما مادامت قصورها ومدنها المحصنة تقاوم الهجمات . وبما أن مئات من الرجال المرابطين في قلعة ما يستطيعون مقاومة آلاف المهاجمين ، فنتيجة الحرب كانت تتوقف على القصور .

لم تقتصر نتائج هذا الوضع على بقاء الامبراطورية الشرقية ودول كثيرة أخرى اقل اهمية ، وتعميرها آماداً طويلة ، فمن نتائجها ايضاً المقاومة المديدة التي ابداها النظام الاقطاعي ضد تمركز السلطة . فبينما الحضارة الاغريقية كانت نواتها المدينة ، بقي القصر نواة الحضارة في اوربا الاقطاعية الى أن ظهر المدفع .

بقيت أسلحة القذف (١) كالسهم الانكليزي ، قبل أن تسمع قصف مدفعية محمد الثاني ضد أسوار القسطنطينية ، بقيت تلك الأسلحة تمهد طريق المستقبل ، فوضع سلاح فعال بين أيدي الطبقات الشعبية يعني نفسياً وتعبوياً انهيار الاقطاع .

كانت القسي تصنع من اغصان الدردار ، بطول مترين وترمى سهاماً طولها متر . وكانت أشد قوة من قوس النورمان الصغيرة . وقد أخذها ملك انكلترا ادوار الاول (١٢٧٢-١٣٠٧) عن بلاد الغال الجنوبية ، وقد ظهرت قيمتها الحقيقة حين استعملت في آن واحد مع الخيالة المدرعة في حروب الغال .

لجأ ادوار الاول الى هذا السلاح المركب في حربه ضد الايكوسيين سنة (١٢٩٨) ، اذ شد عليهم رماة النبل وركزوا رميهم على نقاط مختارة في جبهة العدو فأحدثوا فيها ثغرات ومن ثم هاجموا من خلال هذه الثغرات المفتوحة في

---

(١) Arme de jet

خط مقاومة الايكوسيين وحـــدثت مذبحة عامة . وقد أصبح هذا الاسلوب التعبوي خطة نظامية بالنسبة للانكليز خلال القرن الثالث عشر ، ومعركة كريسي التي وقعت في ٢٦ آب ١٣٤٦ ، بين الجيش الفرنسي بقيـــادة فيليب ده فالوا والانكليز بقيادة ادوار الثالث ، هي أهم امثلة هذه الخطة .

كان لكل من الجيشين الذين التقيا في ساحة القتال الشهيرة هذه مفاهيمه وتسليحه الخاص الذي يختلف فيه عن خصمه . كان الجيش الفرنسي جيشاً اقطاعياً خالصاً ، في حين ان الجيش الانكليزي كان جيشاً « شبه قومي » . وكان الاول يحتقر المشاة ويعد ظهورها في ساحة القتال بمثابة إهانة . وكان الجيش الثاني مؤلفاً في قسمه الاكبر من المشاة . وقد كان مما يخالف روح الفروسية عند الفرنسيين أن يتسلح المرء بشكل يختلف عن تسلح العدو ، ويستعمل أسلحة القذف كسلاح يمكن الاعتماد عليه بشكل حاسم في حين ان هذه الاعتبارات لم تكن تعني شيئاً عند الانكليز .

كان الجيش الفرنسي مؤلفاً من (١٢٠٠٠) خيال مدرع ، ثلثاهم من النبلاء ، يضاف اليهم (٥٠٠٠) من المشاة و (٦٠٠٠) من رماة القوس القديم (١) الجنويين والجيش الانكليزي من (٣٩٠٠) خيالاً ربعهم من الفرسان و (١١٠٠٠) من رماة النبـــل ، و (٥٠٠٠) من المشاة الغاليين . وكان عدد كبير من رماة النبل خيالاً .

قسم ادوار الثالث ـ كعادته ـ جيشه الى ثلاث كتل ، اثنتان في المقدمة والثالثة في المؤخرة ، ثم نشر في المسافة التي تفصل كتلتي المقدمة عدداً من رماة النبل على شكل مثلث حاد الزوايا كما وضع على الجوانب الخارجية للكتلتين في المقدمة بعض رماة النبل .

بدأ الجنويون الهجوم ، وكان مدى رمي أسلحتهم دون مدى رمي أسلحة

(١) Arbalétriers

عدائهم فحصدتهم قسي الانكليز وردوا على أعقابهم فريسة للفوضى . اعتقد الفرسان الفرنسيون أن في الأمر خيانة ، فشقوا لانفسهم طريقاً من خـــلال الجنويين المهزومين ، وحملوا على اعدائهم الانكليز ، فلقوا مالقي الجنويون من قبلهم اذ حصدتهم قسي عدوهم . تكررت هذه الحملات الطائشة الى أن مني الفرنسيون بهزيمة منكرة .

بلغت خسائر فيليب ده فالوا (١٥٤٢) بين نبيل وفارس ، وعدد مجهول من المشاة . وفقد ادوار الثالث فارسين ، واربمين خيالاً ، وعشرات القتلى من الغاليين .

وهكذا ثبت مرة أخرى أن الجمع بين القوس وبين خطة دفاعية هو أمر يفوق بكثير عملية الهجوم لوحدها . ولكن الفرنسيين لم يشاؤا تبني هذا الاسلوب رغم انهم قلدوا الانكليز في المعارك التي وقعت فيما بعد على الأخص في بواتيبة سنة ١٣٥٦ ، إذ حاربت الخيالة وهي مترجلة ، الا أن كراهيتهم للقوس أكثر من صعوبة الحصول على رماة القوس ، هذه الكراهية بلغت من القوة درجة جعلتهم يعزفون عن استعمالها .

والخلاصة لم يتلاءم هذا السلاح مع مبادىء الحرب لديهم . فبالسيف يعرف الانسان اين يضرب ، أما القوس فلا تدرى ماذا تصيب ، لذا فهي سلاح الغوغاء .

أخذ ظل الاقطاع منذئذ بالتقلص ، لا لأن القوس أضحت السلاح المسيطر ، بل لان الفكرة التي كانت تعبر عنها القوس هي فكرة ضرورة وجود الجيش القومي المحترف .

وقد أتت سويسرا على رأس هذه الديموقراطية الحربية ، بجيوشها المؤلفة من الفلاحين ، الذين لقنوا الفرســـان النمسويين درساً لاينسى ، اذ كان السويسريون في معارك مورجارتن (١٣١٥ م) ولوبن (١٣٣٩) ، وسمباخ (١٣٨٦) ، مقاتلين لاتلين لهم قناة .

وضع نشوء فرق الميليشيا الوطنية ، وفساد نظام جيوش المرتزقة من جهة، والرمح والقوس من جهة اخرى كل ذلك وضع حداً لعصر الفروسية . ولم يفقد النظام الاقطاعي الضرورة التي دعت اليه فيما مضى ، بل لقداضاع مثله الاعلى . ولم يبق لتسديد حساب الفارس الذي هزم في ساحةالقتال ، وازالته من الوجود سوى ان يوجد سلاح يستطيع دك قصور الاقطاع . وهكذا ننتقل الى عصر البارود واسلحته الفنية .

الفصل الرابع

عصر البارود

البارود مادة يجهلها الاقدمون . وباكتشاف هذه المادة يبدأ عهد الفن الصناعي في فن الحرب . وهو العهد الذي يميل بكليته الى محو العنصر البشري، مادياً ومعنوياً لصالح العقل وحده . ويقول المؤرخ ولليام ليكي في كتابه « تاريخ الاخلاق الاوربية » ان المخترعات الكبرى لاعظماء الرجال ، هي التي تعيق التقدم الاجتماعي أو تدفعه الى الامام .

وقد أفسحت الجرأة المجال الى الميكانيك ، فالخصم الذي يحمل أقوى الاسلحة هو الاقوى بأساً من سواه ، مهما كان وضعه الاجتماعي او بسالته . وقد قال الفيلسوف توماس كارليل : ان الفائدة الحقيقية من البارود هي انه « يضع الرجال جميعاً على قدم المساواة » ، وبكلمة موجزة يجعل الحرب ديموقراطية .

وهكذا فان البارود بتغييره لطبيعة الحرب ، قد غير اسلوب الحياة المسيحية للقرون الوسطى . وقد نتج عن الابحاث التي اجريت في سبيل تحسين التسلح ووسائل الدفاع ضد نتائج هذا الاسلحة ، نتج عن هذا كله حب استطلاع فكري تناول جميع الاشياء . ومن المرجح لدي ان عصر النهضة قد انبعث عن اكتشاف البارود ، فله علاقة وثيقة بالبارود اكثر من أي شيء آخر .

فالفكرة القائلة بان الحرب هي تجربة معنوية تجري بواسطة المعركة ، وحكم إلهي تفرضه الكنيسة باسم الاله ، هذه الفكرة حل محلها حقيقة جديدة ، وهي ان الحرب انما هي وسيلة تقود الى غاية سياسية والعامل الحاسم فيها هو القوة . وما أن أخذت الحرب تفقد صبغتها الدينية بالتدريج ، حتى سار السلم ايضاً في هذا الطريق اللاديني ، واخذت المثالية تفسح المجال للواقعية . حتى ان بعض مشاهير القادة العسكريين في اواخر القرن الخامس عشر أخذوا يعلنون « بان الحروب تربح بالصناعة والمهارة الفنية اكثر منها بالهجوم الحقيقي بالسلاح . »

ولم يؤد البارود الى دك قصور الاقطاع فحسب ، بل لقد أدى الى انهيار مثالية اسياد هذه القصور . اذ كان عدد الاسلحة الخفيفة يزداد باطراد ، وخف احتقار المشاة ، كما كان سائداً في القرون الوسطى ، وغدا جنود المشاة لايقلون اهمية تعبوية عن الفرسان المسلحين . وهكذا امست الخدع الحربية والكمائن ومطاردة العدو ، وحتى استثمار هزيمته ، التي كان فرسان الاقطاع يعتبرونها مزرية بالشرف والشهامة ، وكأنها امور طبيعية لاغرابة فيها ولا استهجان.

وقد كتب ماكيافيللي (١٤٦٩ ١٥٢٧ م) يقول : « انه وان يكن استخدام الغش قبيحاً في كل الامور ، الا ان استعماله في زمن الحرب مدعاة للفخر والاعتداد . » وقد بلغ هذا الانهيار المعنوي اوجه في القرن السادس عشر حين اتحد الملك فرانسوا الاول (١٥١٥ – ١٥٤٧) ملك فرنسا ، وهنري الثاني (١٥٤٧ – ١٥٥٩) مع الاتراك اعداء النصرانية ، لمقاومة الامبراطور شارل كانت .

ويبدو أن اقدم وثيقة تتطرق الى ذكر المدفع ، وثيقة باللغة العربية ترجع الى عام ١٣٠٤ . وهناك وثيقتان تناولتا هذا الموضوع ، وهما تابعتان لمدينة غاند ، تاريخ الاولى عام ١٣١٣ والثانية ١٣١٤ ، كما توجد مخطوطة ملونة في اوكسفورد بمعهد كنيسة المسيح ترجع لعام ١٣٢٦ ، وفيها صورة ترمز الى مدفع

من طراز قديم جداً ، بشكل « اناء لقذف السهام » أو « ابريق من الحديد » كما كانوا يسمونه في ذلك العهد ، وقد يكون استعمال هذا السلاح لاول مرة هو في عام ١٣٢٤ م في حصار مدينة ميتز ، كما أن ادوار الثالث استعمله في ايكوسيه عام ١٣٢٧ . وهناك مستند يرجع لعام ١٣٣٩ يتطرق الى ذكر سلاح ناري ، هو عبارة عن رشاش بدائي ، يتألف من عدة انابيب صغيرة من الحديد ، مرتبة بشكل بسمح بوضع النار فيها في آن واحد معاً ، وقد استعمل هذا السلاح من قبل ادوار الثالث في حربه ضد فرنسا . وفي عام ١٣٨٧ اخترع سلاح مؤلف من ١٤٤ انبوباً ، مجتمعة بشكل بطاريات تتألف كل منهـــا من (١٢) قطعة وتسمح باطلاق (١٢) رشقة ، وكل رشقة مؤلفة من (١٢) طلقة . وهكذا كانو يبحثون عن كثافة النار .

ومع أن علم الميكانيك كان في طوره الأول في القرن الرابع عشر للميلاد ، ومع وجود القيود الدينية في ذلك العصر ، فقد كان تقدم الأسلحة النارية سريعاً ، وفي عام ١٣٤٠م انشئت معامل للبارود في اوغسبورج ، واستخدم ادوار الثاني المدافع في عام ١٣٤٦ في حصار كاليه .

وفي عام ١٣٩١ ظهرت القذائف الحديدية ، وقبل نهاية القرن الثالث عشر حصل تقدم سريع لدرجة أنه اصبح بالامكان انشاء مدافع للقصف من عيار ٦٠ سنتيمتراً ، واصبح استعمال المدفـع الخفيف شائعاً ، وكان مشابهاً لمدفع صغير ذي منصب مستقيم يمكن لرجل واحد ان ينقله ويستعمله . يبلغ وزنه خمسة كيلو غرامات ، يطعم بوضع فتيل في القناة ، ومقذوفاته من الرصاص ، وكان يستعمل في الخنادق من قبل قطعات المشاة .

وفي أواخر القرن الخامس عشر حلت البارودة ذات الفتيل مكان المدفـع الخفيف ، وكانت مجهزة بزناد لتثبيت الفتيل ، ولسين ينزلق على الحويض الذي يحوي الطعم . وقد اخترع هذا السلاح رجل الماني .

أما من ناحيــة التسلح فقد تميز القرنان الخامس عشر والسادس عشر بروح الاختراع ، واذا تركنا جانباً الاختراعات ذات الطابع النظري البحت ، كالطائرات ، ودبابات الهجوم ، وغواصة ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) التي كانت مستحيلة عملياً لتأخر علم الميكانيك إذ ذاك ، فان الجـدول التالي على نقصه يعطينا فكرة عن النجاح الحاصل في ذلك العصر .

الرمانات اليدوية	ظهرت عام	١٣٨٢
الرمانات الدخانية	«	١٤٠٥
فتيل التأخير	«	١٤٠٥
مخزن الرشيش	«	١٤١٠
البارود بشكل حبوب	«	١٤٢٩
اباريق النار	«	١٤٠٠—١٤٥٠
القربة	«	١٤٥٠
رمانات متفجرة من البرونز	«	١٤٦٣
قذائف متفجرة	«	١٤٧٠
مناصب مركبة على عجلات	«	١٤٧٠ بصورة تقريبية
مسدسات	«	١٤٨٣
رمانات محرقة	«	١٤٨٦
مدفع ذو سبطانة محلزنة	«	١٥٢٠
رمانات يدوية محسنة	«	١٥٣٦
خرطوش من الورق المقوى	«	١٥٦٠
نموذج من الرمانات ذات الرصاصات	«	١٥٧٣
رمانات حمراء	«	١٣٧٥
قذائف عادية	«	١٥٨٨

خرطوش يحوي على بارود ورصاص معا	«	١٥٩٠
مسدس ذو سبطانة مخزنة	«	١٥٩٢ بصورة تقريبية
صمامة ذات قادح	«	١٥٩٦

وخلال النصف الأول من هذا الدور ، كانت المهمة الأساسية للمدفعية تنحصر في تدمير أسوار المدن والقصور .

وفي عام ١٤٥٣ أثناء حصار القسطنطينية ، اصبح المدفع هو السلاح الهام . وقد ظهر محمد الثاني أمام المدينة في ٥ نيسان وهو أشهر مدفعي في التاريخ ، ظهر على رأس جيش عرمرم وركز مدافعه مقابل الحصن الأرضي الثلاثي . وفي ١٢ نيسان وفي غمرة ضجيج الطبول وصراخ الوف الرجال الهائجين ، بدأ اكبر قصف عرفه التاريخ . وقد قال احد مؤرخي اليونان « منذ أن خلق العالم لم يسمع شيء مماثل على ضفاف البوسفور » وقد كانت العملية تجري ببطء شديد ، اذ كان تلقيم المدافع الضخمة يتطلب ساعتين من الوقت ، وكانت هذه المدافع الضخمة لا تطلق في النهار كله سوى سبع مرات .

وكانت اضخم مدافع محمد الثاني من النوع القاصف ، وقد صنعها باسمه سكان هنغاريا ، فكانت تقذف حجارة قطرها ٧٥ سم ، ووزنها من ٥٠٠-٧٠٠ كغ وبما ان هذه المدافع كانت صعبة الاستعمال ، فقد كانت تجر بواسطة ستين ثوراً ، وتحتاج الى مائتي شخص للاحاطة بها وتثبيتها ، ولمائتي شخص آخر لتمهيد الطريق لها . وكان السلطان محمد الثاني يملك منها أربع عشرة بطارية تتألف من ١٣ قاصفاً ضخماً وستة وخمسين مدفعاً متنوعاً من العيار الصغير .

وفي يوم الثلاثاء بتاريخ ٢٩ أيار سقطت القسطنطينية على أثر هجوم شن عليها بعد فتح ثغرة في السور . وهكذا انتهت الامبراطورية البيزنطية وتركزت تركيا نهائياً في أوربا .

وكذلك الأمر في الغرب ، فقد أحدث المدفع نتائج اكثر أهمية من نتائجه في ادوار استعماله الأولى ، واقتدى شارل السابع ملك فرنسا بمحمد الثاني ؛

فشكل وحدات حصار ، وأصبحت النقاط المحصنة الانكليزية تحت رحمته خلال فترة قصيرة من الزمن لاتكاد تصدق . وقد استطاع الفرنسيون ، على حدتعبير أومان في كتابه (تاريخ فن الحرب) ، إبان استفادة النوماندي عام ١٤٤٩- ١٤٥٠ ، تحطيم ستين حصاراً خلال ستة عشر شهراً . ويضيف شارل اومان الى ذلك بقوله : « ظهر هذا التفوق ذاته للمدفع الحديث على التحصينات القديمة في انكلترا خلال حرب الوردتين (١٤٥٥-١٤٨٧) ؛ ولم تكن من نتيجةهذه الحروب ايصال هنرى تيودور الى العرش فحسب ، بل لقـــد خلقت ايضاً اشمئزازاً عميقاً من حرفة الجندي حتى بقيت انـكلترا مائة وخمسين سنة بدون جيش في وقت اضحت فيه التنظيمات الفنية العسكرية في القارة الاوربية علماً قائماً بذاته.

ثم بلغت اعمـال تدمير القصور بالقذائف ذروتها في عهد شارل الثامن ملك فرنسا (١٤٨٣- ١٤٩٨) الذي بدأ بعد اكتساحه ايطاليا عـام ١٤٩٤ ، هذا النضال الطويل بين عائلة الفالوا المالكة وبين آل هابسبورغ الذي استمر ، مع فترات الانقطاع التي تخللته ، حتى عام ١٥٥٩ حيث عقد الصلح .

وقد كانت قوة شارل الثامن تتجلى في مدفعيته ، اذ سجل في عهده تبدلات احدثت ثورة في هذا المضمار ، فصنعت منـــاصب جديدة ، وحسنت طرق التسديد تحسيناً كبيراً ، وافتتحت عدة مدارس لتدريب المـدفعيين وحلت مدافع البرونز مكان مدافع الحديد ، كما استعيض بالقذائف عن الرمانة الرصاصية.

ويقول تايلور في كتـــابه (فن الحرب في ايطاليا) بصدد هذه المدفعية المنظمة : (كم من القلاع التي صمدت قديماً عدة اشهر ، تحت وطأة الحصـارات واذا بها الآن تسقط في بضع ساعات معدودات » وقد أصبح نجاح المدفعية أمراً ملموساً حتى ساد اعتقاد شامل بعدم فائدة التحصينات . ولكن هذا الاعتقاد كما سنرى كان وليد الخوف لا التفكير .

وفي معركة رافين التي وقعت بين كاستون دى فوا وجيش الاتحاد المقدس،

عبت المدفعية لأول مرة دوراً حاسماً في الميدان . فقد نصب الحصان مدافعها منذ بدء المعركة وشرعا بقصف متبادل شديد ، وبينما كان هذا القصف مستمراً ، ومدفعية الجناح الأيمن الفرنسي تتناول الجناح الايسر الاسباني برمي جانبي ، اذا بالدوق ده فيرار ينقل بطارياته حول الجناح الأيمن الاسباني ، ويشتد الرمي بضراوة ، مما يضطر الاسبان الى التخلي عن خنادقهم والخروج منها الى الاراضي المكشوفة . فيغير عليهم كاستون دى فوا ، ويضطرهم الى التراجع ، تحت ستار نيران رماتهم .

وفي سبيل الحد من تأثير المدفعية ضوعف عدد الخنـــادق في الميدان ، واستعملت هذه الطريقة بصورة خاصة في معركة بيكوك عام ١٥٢٢ ، ومعركة بافيـــا بعد ثلاث سنوات . ومـا كادت مدافع شارل الثامن تحول القصور الايطالية الى اكداس من التراب والحجارة والمفتتة ، استسلمت على أثرهـــا الثكنات بدافع الذعر والرهبة ، حتى ظهر طراز جديد من التحصينات عجزت المدافع عن قهرها . فالخنادق والجدران والابراج حل محلها الخنـادق المملوءة بالماء والمتـاريس والأسوار ، وكانت هذه الأخيرة مغطاة بالسطوح ومسلحة بالمدافع الثقيلة . وفي عـــام ١٥٠٩ ، اثناء حصار بادو ، اسقط في يد مدفعية لامبراطور ماكسيميليان نهـائياً بالرغم من ان تجهيزات الحصار التي لديه كانت اقوى من معدات شارل الثامن في ايطاليا واذا كان شارل « قد استولى على ايطاليـا والقلم بيده » (١٤٩١-١٤٩٥ م) كما قال ماكيا فيللى في كتابه (الامير) ، يعني بذلك أن مدفعيته قد قادته الى النقطة التي كان يضعهـا بنفسه على الخريطة ، فماذلك الا لأن الحصارات المكللة بالنجاح قد أصبحت نادرة منذ عـــام ١٥٢١ وهذا الرجوع الى خطة الدفاع ، يضاف اليها افول نجم الخيالة ، وتقدم الأسلحة النارية ، كل هذا جعل المشاة تحتل الصدارة بالتدريج فازداد عدد المشاة الرماحة زيادة محسوسة ، على أثر الانتصارات التي احرزها السويسريون والمشكلة التي كانت تتطلب الحل هي التوفيق بـين الرمح ، وبين الاسلحة

النارية ، بعد أن برهنت معركة مارينيان عـام ١٥١٥ بوضوح على أن البندقية القديمة التي توضع على الكتف عند الرمي تفوق الرمح .

ثم ظهرت البندقية ذات الفتيل وبقيت هذه البندقية مع الحربة تعملان معاً. فالمدفعية تبدأ فتح النار ، والحربة تحمي البندقية ، وهذه تشق الطريق للحربة حيناً ، وحيناً آخر للسيف ورمح الخيالة .

وقد تم الانتقال من اسلوب القرون الوسطى الى الاسلوب الحديث بسرعة ويلاحظ ذلك من ملاحظة التبدل الذي طرأ على تشكيل الجيوش . فبينما كان ثلثاً ملاك الجيش الفرنسي عـام ١٤٩٤ من الخيالة ؛ اذا بها عام ١٥٢٨ لاتزيد على ١-١١ من مجموع ملاك الجيش . وما يقال عن الجيش الفرنسي يقال عن الجيش الاسباني ايضاً . وقد تدنت القوة الهجومية للخيالة بصورة محسوسة بحيث اصبحت مهمة الخيالة في فترة ١٥٢١ تقتصر على مايلي : الحماية ، التموين، المراقبة، تقديم المعلومات ،المطاردة . ولم يكن للاغارة ذكر مطلقاً .

وقد نشأ رد فعل ضد هذا التطور الحديث تمثل في كتابات لاريوست وسرفانت وميلتون ، اولئك الشعراء الذي انهالوا بنقدهم اللاذع للبندقية واثرهـا في القتل والتدمير .

كل هذا لم ينل شيئاً من تقدم الاسلحة النارية ،وبظهور هذه الاسلحة النارية لانقلب صفحة من صفحات التاريخ فحسب ، وانما نفتح سفراً تاريخياً جديداً عنوانه « ارادة القوة » وان أول ما يلفت الانتباه في هذا المجال هو جمع القوة بين يدي الملك ، هذه القوة التي كانت موزعة في عهد الاقطاع بين يدي الاشراف قد تسلمت السلطة الملكية مقاليدها ، لباهظة النفقات التي تسببها المدفعية وتجهيز عدد كبير من حملة البنادق ، تلك النفقات التي لايمكن للأفراد النهوض بها ،قد اضطلعت بها الدولة ، وقد أدى جمع القوة في أيد علمانية الى رفع السلطة الملكية فوق الكنيسة ؛ لأن الحرب قد أصبحت أداة سياسية ، ولم تعد حكماً اخلاقياً .

ويشاهد في القرن السادس عشر ولادة الجيوش الدائمة ، والتسابق في التسلح

وظهور سياسة التوازن بين القوى الكبرى . اذ لم تعد الخدمة العسكرية امتيازاً لطبقة اجتماعية دون غيرها ، وانما غدت وظيفة عامة . ويتميز هذا العصر بظهور الجيوش المتكتلة ، ان لم نقل بجيوش الكتل الشعبية . واذا لم يكن ماكيافيللي أول من أوحى بتطبيق الخدمة الالزامية في العصور الحديثة ، فهو على كل حال « قد وضع النقاط الهامة التي اشتق منها عام ١٥٠٦ القانون المتعلق بالخدمة العسكرية الاجبارية لكافة الرجال الذين تتراوح سنهم بين ١٨ و ٣٠ سنة

أثر البارود تأثيراً فعالاً في تقدم القوى البحرية الانكليزية . وبما أن حرب لوردتين (١) قد قضت على بعض العناصر الاقطاعية ، التي كانت ماتزال موجودة في انكلترا ، قبل ان يتقلص ظل الاقطاع في اوربا . فكان لانكلترا امكانة مرموقة أكثر من أي دولة أخرى من جاراتها الكبرى ، وهي مقبلة على الثورة التي توشك أن تحدث في التسلح كما كانت في مقدمة الدول في ثورتها الصناعية ، ويعود انطلاقها كدولة بحرية الى البارود ، كما يعود احرازها للتفوق الاقتصادي العالمي في القرن التاسع عشر الى الفحم .

ويعود هذا الحادث الكبير الذي جعل من انكلترا خلال (٣٥٠) عاماً قوى قوة بحرية في العالم ، الى اهتمام هنرى السابع ببواخره الجديدة ، والى جهود ابنه هنرى الثامن (١٥٠٩ – ١٥٤٧) ، وهو أول أمير أدرك أن المجداف يجب أن يفسح المجال للشراع ، وأن تجهز السفن بمدفعية . فانتشرت لأفران العالية في انكلترا في ١٥٢٠ و ١٥٣٠ م ، وأمكن بذلك تقديم المدافع لبوارج هنرى الثامن الكبيرة . وقد كان الوضع المالي لملك انكلترا يسمح له بمواجهة هذه النفقات ، اذ أن سلب أموال الكنيسة اتاح له الانفاق عن سعة لم

---

(١) وهي الحروب الاهلية التى نشبت في انكلترا من ١٤٥٥ – ١٤٨٥ بين عائلة يورك وعائلة لانكاستر ، وكان في شعار الاولى وردة بيضاء ، وفي شعار الثانية وردة حمراء . ثم انتصر بيت لانكاستر بشخص الملك هنرى السابع ، وخرج الارستوقراطيون منهكين من هذه المعارك .

يعرفهـــا اسلافه ولا خلفاؤه الا بالاعتمادات الكبرى التي كان يقرها البرلمان لهم .

كانت الباخرة « هاري الأكبر » مجهزة باربعة مدافع ضخمة من عيار ٦٠ ليبرة وعدداً من المدافع الصغرى من عيار ٣٢ ليبرة، مع مدافع أخرى اصغر. وكانت التصميمات الجديدة ترمي الى جعل الباخرة الكبيرة ، باخرة قتال عن مسافة بعيدة . وقد قال المؤرخ السر شارل أومـــان بهذا الصدد مايلي : « إن هذه الفكرة التي تهدف الى جعل الباخرة اداة قتال بالمدفع ، لا اقلعة مجهزة بحامية ترمي الى محاذاة العدو والالتحام معه في قتال قريب ، لقد احدثت هذه الفكرة تطوراً شاملا في علم النفس البحري . »

وقد كانت هذه الفكرة ، في عهد اليزابيت ، سبباً في انتزاع سيادة البحار من اسبانيا . اذ أصبح المدفع بين يدي بحارة اليزابت الأداة الرئيسية في القتال وقد وصف هذا الحدث الهام فريدريك روبرتسون في كتـابه (تطور التسلح البحري) فقال : كان المدفع السلاح الذي اعتاد البحارة الانكليز ان يعتمدو عليه كل الاعتماد . وهذا المدفع الذي كان يرمي الى أبعد من رمي المسدسات أخذ يتحدى الأسبان وقهرهم ، وهم المحاربون الاشداء الذين كانوا يكنون حتقاراً عميقاً للمدفع ، وينعتون المدفعية بالسلاح الدميم .

وقد وصف اللورد أفينغهام أمير البحر البريطاني ، وصف معارك ٢٣ تموز بقوله : « استمرت هذه المعركة بضراوة من مطلع الفجر حتى الغسق ، وكان أمير البحر في وسط هذه المعمعة ... ولم يشهد المحاربون ناراً اشد هولاً من هذه النار . وقد كانت هذه النار كثيفة لدرجة يخيل فيها للمرء أن الرمي صادر عن أسلحة خفيفة شديدة الكثافة والتركيز . وكنا طوال المعركة على مسافة أقل من نصف مدى رمي البنادق .

لقد أحدث البارود نتائج مدهشة ، اذ أن اندحار الارمادا الاسبانية فتح

مريكا الشمالية للاستعمار البريطاني ، وأدى في الوقت ذاته الى خلق لولايات المتحدة .

ومن النتائج الهامة لاكتشاف البارود ، هو أثر اكتشاف المدفع في الصناعة.

فأول شيء فعله أنه زاد في استهلاك الحديد ، الامر الذي ضاعف في نشاط التعدين . كما أنه ضاعف النفقات ، مما اضطر سادة اوربا الى الالتجاء الى رجال لمال ، مشجعاً بذلك خلق الرأسمالية . وقد ذكر لويس مامفور في كتابه « الفن الصناعي والحضارة » مايلي : « وضع الدائنون يدهم على المناجم الملكية، ضماناً للقروض التي أسلفوها للدولة . وهكذا أصبح استثمار المناجم عبارة عن مشروع مالي يمكن مقارنة دخله بالفوائد التي يتقاضاها المرابون ، والتي يصعب بصورة عامة تسديدها . وقد كانت عدم ملاءة رؤساء الدول تدفعهم الى اجراء فتوحات جديدة ، او استثمار أراض بعيدة ، فكان الامر أشبه بحلقة مفرغة .

وقد أقيم في انكلترا كثير من معامل صب المدافع وأدى ذلك الى اكتساح شجار الغابات ، مما دعى الى اصدار قانون في عهد اليزابيت ، وهذا القانون يحظر على صانعي الفحم سرقة الاخشاب من صانعي السفن ، هـذا ومن جهة أخرى صبح تصدير المدافع الانكليزية أحد فروع الصناعة الذي يدر ربحاً وافراً .

وقد أصبح المدفع نقطة انطلاق في صنع نموذج جديد من الآلات : فكان عبارة عن محرك ذي احتراق داخلي وحيد الاسطوانة . وقد سبب المدفع تقدم علم التحصينات ، وبناء الطرق والاقنية ، والجسور ، التي غدت مساعداً لابد منه لفن الحرب . » وأوجدت الحرب رئيساً نموذجياً جديداً للصناعة ، وهـذا الرئيس لم يكن معماراً ولاحداداً اوصانعاً يدوياً ، بل إنه المهندس العسكري . . والآلة مدينة للمهندسين العسكريين الايتاليين الذين تتابعوا اعتباراً من القرن لخامس عشر بقدر ما هي مدينـة للمهندسين المخترعين البريطانيين في عهد جيمس واط .

ومن هذه التبدلات العديدة الـــتي شجعها تدفق المعادن الثمينة من العالم الجديد ، هذا العالم الذي يعود الفضل في فتحه الى البارود ، من هذه التبدلات ظهور اسطورة جـديدة لادينية ولا عسكرية ، بل اقتصادية . وقد ندد لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) بالمحتكرين والمرابين كما ندد بالبابا ، في حين أن كالفين (١٥٠٩ -١٥٦٤) رحب بالجميع . وفي الواقع ان العالم الغربي كان فريسة للخصومات الداخلية التي استشرت إذ ذاك .

كانت هذه الحقبة من الناحية الفكرية عهد حرب شاملة ، بلغت الفظائـع والهمجية فيها مبلغها في عهد الانشقاق الآري .

قابل هذا التغير الاساسي في التسلح تغير لايقل اهمية في مظهر الحرب العام : فقد ادركت الانسانية بأنه اذا لم يمكن الحد من أهوال الحرب وفظائعها بوضع قواعد لها ، كما حدت القوانين من الجرائم المرتكبة في زمن السلم ، فلا بد أن ينهار المجتمع البشري .

والنتيجة الثانية هي ازدياد نفقات الجيوش ، ويعود سببها الى ازدياد المدفعية والطلبات المستمرة للسلاح والتجهيزات المصنوعة على نمط واحد ، مما عجل في تنظيم المصانع . وقد خلقت الحاجات العسكرية الانتاج التسلسلي ، وهذا شجع بدوره ازدياد الجيوش وتقدم الرأسمالية . وفي خلال الجزء الاخير من العصر ، بدأت فكرة الكيفية ، التي ارتكزت عليها قوة المعركة في القرن الثامن عشر ، تفسح المجال الى فكرة الكمية في اللحظة الـــتي ظهر فيها البخار ، وهو الطاقة الكمية .. والبخار كالبارود ، لابد ان يغير فن الحرب ، ويدخل فصلا جديداً في تاريخ « ارادة القوة » التي اطلق عليها « الامة المعبأة » .

الفَصلُ الخَامِسُ

عصر البخار

كان النظام المطلق في القرن الثامن عشر يخفي في طياته قوى هائلة تنذر بالانفجار ، وكان من اهوجها تلك التي ظهرت في انكلترا اثناء الثورة البوريتانية ، وقد ضعف إذ ذاك مبدأ الملكية كحق الهي ، وأتى قانون الملاحة الذي وضعه كرومويل سنة ١٦٥١ م فزاد في دعم المركنتيلية . ثم ظهرت أخيراً فلسفة جديدة وضع أسسها توماس هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩) وجون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤).

وما كادت هذه الثورة تقترب من نهايتها حتى أسس جماعة من رجال الاعمال ذوي الخبرة البنك البريطاني سنة ١٦٩٤ ، ثم اخترع توماس سافري بعد أربع سنوات الآلة البخارية .

كان للبنك البريطاني والآلة البخارية أثر عظيم في تدعيم المذهب المركنتيلي الذي يقوم على شن الحروب ، فالغاية الرئيسية لهذا المذهب هي تجريد سائر الدول من ثرواتها ، والسيطرة على اسواقها ، وإرغام الاجانب على الشراء ، والحيلولة بينهم وبين بيع منتجاتهم . وقد لاحظ آدم سميث هذا الامر في كتابه « تحقيق حول طبيعة ثروة الامم واسبابها » فقال : « ان جشع الملوك والوزراء المتطرف في

هذا القرن والقرن الذي سبقه ، ليس أشد شؤماً على السلم في أوربا من دناءة لحسد الذي يبديه التجار واصحاب المعامل .»

وقد كانت الامور تدور في حلقة مفرغة : فالمركنتيلية تؤدي الى الحرب، ولكي تقوم الحرب لابد من وجود مؤسسات صناعية كبرى ، والمؤسسات الصناعية الكبرى تزيد بدورها في دعم المركنتيلية .

وفي الثلث الأخير من القرن الثامن عشر كانت الثورة الصناعية تسير بخطى سريعة، ثم ظهرت فلسفة جديدة حمل لواءها مونتيسكيو (١٦٨٩--١٧٥٥) وبور لاماكي (١٦٩٤-١٧٤٨) وفولتير (١٦٨٤-١٧٧٨) وروسو (١٧١٢-١٧٧٥) وبكاريا (١٧٣٥-١٧٩٤) وكوندورسيه (١٧٤٣-١٧٩٤) الى جانب آخرين غيرهم . وكان الطريف في تعاليمهم أنهم أقاموا المجتمع الطبيعي على أسس الحرية والمساواة . وقد ارادت هذه الفلسفة أن يكون للشعب جيش يحميه من الطغيان، فأعلن جيبرت في كتابه « مبادىء التعبئة العامة » الذي نشره عام ١٧٩٢ ، أن « السيطرة على أوربا ستكتب الذولة الـتي تستبق باقي الدول الى جيش وطني حقيقي . » وجعل كوندورسيه في كتابه . « عرض تاريخي لتقدم الفكر البشري» جعل تقدم المشاة يتوقف على الديموقراطية ، في حين أن العكس هو الصحيح ، فالبندقية هي التي جعلت هناك جندي مشاة ، وجندي المشاة هو الذي أصبح فيما بعد نواة الديموقراطية . فلكي تفرض الحريـــة لابد من وجود القدرة على القتال ، وهذا هو بيت القصيد .

وقد ظهرت أول بادرة لهذا الشكل الجديد للحرب في أمريكا ، وهي تعرف في التاريخ بحرب الثورة الاميركية أو حرب الاستقلال . فكانت هذه الحرب من الناحية الفكرية تمرداً على الاستبداد ، فهي حرب شعبية ، وحرب مناوشات اكثر منها حرب مناورات كبرى . وقد درج الامريكان في هذه الحرب على قاعدة الاجهاز على الخصم ، وكان يلجأ فيها الى الخدع بصرف النظر عن قيمتم

لاخلاقية ، لذا كانت مخالفة لقواعد الحرب السائدة في القرن الثامن عشر .

انبثقت الروح الوطنية الديموقراطية في هذه الحرب ، وكانت نتيجتها المنطقية ظهور الجيش القومي . وأولى ان نعتبر بنا أن تاريخ أول حرب في القرن التاسع عشر هو ٤ تموز ١٧٧٦ وهو يوم اعلان استقلال أميركا ، لا يوم سقوط الباستيل ، اي بعد ثلاث عشرة سنة من ذاك التاريخ .

انتقلت فكرة حرب الاستقلال الى فرنسا فتلقفها جنود الثورة الفرنسية . وأصبح الارهاب سلاحاً بيد اليعاقبة وغدت الحرب شاملة ، ولو من وجهة نظرية على الاقل ، وبذلك أصبحت حرباً وحشية . فهي لم تعد من حيث المبدأ خصاماً ملكياً يهدف الى حل خلاف يدور حول الحدود أو وراثة العرش ، بل إن غايتها الآن إبادة قوى العدو الى أن تصبح الحرية في غنى عن اراقة دم جندي واحد . ولقد وضع كارنو عام ١٧٩٤ قاعدة العمل الجماعي اذ قال : «اشتبكوا بالعدو على أوسع مدى ، وطاردوه حتى تستأصلوا شأفته .» اذ ينبغي القضاء على كل من تقع اليد عليه . حتى أن روبسبيير أوصى الجنود الفرنسيين بمضايقة الجنود البريطانيين ما أمكن وحرمانهم من الراحة . وهكذا انقلبت قوانين الحرب رأساً على عقب .

ان أول تدبير هام يميز هذه العودة الى الحرب الشاملة هو التجنيد الالزامي الذي أدخله الجنرال جوردان ومجلس الخمسمائة . فكان المرء كما قال الزعيم مود في الموسوعة البريطانية : « لم تنجح سياسة الفتوحات التي انتهجها نابليون الا بالخدمة العسكرية الالزامية . وقد تبجح نابليون أمام مترنيخ في شونبرن سنة ١٨٠٥ « من أن في استطاعته أن يضحي بثلاثين الف رجل في كل شهر . » وهذه الامكانية في الطاقة البشرية هي التي حددت مجرى الحوادث منذ ذلك الحين ، لا في ساحات القتال فحسب ، بل وفي المعامل أيضاً.

كانت التعليمات الملقنة للمجندين الفرنسيين معدومة عملياً ، اذ لم تكن تتعدى

الجندي والبندقية في موضوعها ، وكانت التعبئة لاتتبع قواعد ثابتة . « فكان للرماة بصر الفهد ، وخفة السنجاب » كما كان يقول السر روبرت ويلسون . وقد قال المعاون العسكري للدوق لورك : « ان الثعلب المطارد لم يكن أمهر منا باختلاق الحيل للنجاة بنفسه ، ومع هذا فقد أوشكنا مراراً عديدة أن نقع في الاسر . » ثم مالبثت سائر الدول ان تبنت هـــذه الطرق ، فكان لكل منها وحدات مشاتها الخفيفة اعتباراً من ذلك العهد .

ثم تضاعف ملاك الجيوش أربعة أضعاف في عهد نابليون . وانقلبت المعارك الى مذابح . فقد كانوا يطلبون التفوق على العـدو بمضاعفة القوى العددية حتى بلغوا منها حداً أخذوا يقولون معه أن الله مع الكثرة لامحالة . لاحظ جوميني هذا التطور فقال : « إن الحرب ستغدو صراعاً دامياً ، لايخضع لقانون ما ، بين كتل كبيرة مجهزة بأسلحة خارقة ، وليس بمستبعد ان تعود عصور برابرة فنلندا (١) والفندال (٢) والتتر سيرتها الاولى . »

ما كاد يمضي قرن حتى تحققت هذه النبوءة ، فها هو شبينجلر يقول : « هانحن أولاء في عصر الجيوش اللجبة الدائمة ، وفي طور الخدمة الاجبارية العامة . فمئات الالوف منذ نابليون ، وملايين الرجال الآن على اهبة الدخول في المعركة ... انها حرب حقيقية في معاركها : حرب التسابق في التجهيزات والاستعدادات ، حرب ارقام ، وسرعة ، وفن ، ولم تعد المفاوضات السياسية تجري بين العروش بل بين رئاسات اركان الجيوش .

كان نابليون نبي عصر القوة : فقد اجتاح العالم الغربي بعده روح رســالة اسلامية جديدة كان قرآنها تلك التعاليم التي أتى بها القائد البروسي كارل فون كلوزويتز (١٧٨٠ - ١٨٣١) ، الذي اصبح كتابه في الحرب ، شرعة للروح

---

(١) البرابرة الذين اجتاحوا اوربا من شواطىء بحر الخزر في منتصف القرن الخامس الميلادي.
(٢) الشعوب الجرمانية السلافية التي اجتاحت بلاد الغول واسبانيا وافريقيا .

العسكرية الالمانية ، فقاد الى انتصار الجيوش البروسية في سني ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ثم غدا منذئذ كلمة السر ومفتاح الحرب لجميع الدول . فاذا كانت فكرة السلم هي مبدأ مذهب نابليون ، فكلوزويتز يضع فلسفته في الحرب بان الجندي هو الرجل المحارب ، والامة هي كتلة قوية من المحاربين . فلكي تبلغ قوة القتال لدى أمة اقصى حدودها ، ينبغي ان يتلقى الرجال فيهـــا التعاليم العسكرية . واليك بعض مقاطع من كتـــابه الكبير ، وهي تعطي فكرة واضحة عن فلسفته .

١ - « لا تدخل الحرب في نطاق العلوم والفنون ، بل في نطاق الحياة الاجتماعية فهي تنمو في حجر سياسة الدولة ، فهنا تكمن مبادئهـــا ، كما تكمن الصفات الخاصة لكل مولود في المضغة . »

٢ - « ليست الحرب سوى صراع على مقياس واسع »

٣ - « ينبغي ان تشن الحرب بكل مالدى الامة من قوة . »

٤ - « الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل جديدة . »

٥ - « الحرب هي عمل من اعمال العنف والشراسة في أقصى حدودها . »

كانت هذه الفلسفة الاسبارطية تهدف الى جعل الدولة آلة حربية ، في الآونة التي اخذ فيها البخار بتصنيع تلك الآلة . ولم تعد الجيوش والصناعات في خدمة الامم ، بل لقد غدت سيدها ، اذ سيطرت فكرة الكفاح والتنازع بين الجماعات على البقاء (اصل الانواع لداروين ١٨٥٩) والعمل (رأس المال لماركس ١٨٦٧) والحرب (كتاب في الحرب ١٨٣٢) ، واضحى داروين بكتـــابه في اصل الانواع ، وكلوزيتز في كتابه في الحرب ، وماركس في رأس المال ، الثالوث المهيمن على القرنين التاسع عشر والعشرين . ولولا البخار لما حدث هذا التغيير الاساسي ، اذ ان الكفاح من اجل البقاء ، الذي جعله داروين شعبياً ، لم يكن من اليسير ادخاله الى المعامل ومنها الى ساحات القتال بدون البخار .

ولم يكن الامر يتطلب اكثر من قرن لكي يصبح هذا الانقلاب شاملاً .

كانت المؤسسات الصناعية البريطانية حتى ١٧٣٠ م تقريبـــاً تعتمد على الاختراعات الاجنبية . وما ان مضى عشر سنوات حتى استبدل الفحم والفحم الحجري بالحطب في صهر فلذات المعادن . كان مقدار ماتستخرجه بريطانيا من الحديد سنوياً في ١٧٤٠ يعـــادل (١٧٠٠٠) طناً ، وبلغ في سنة ١٨٠٠ الـ ١٥٠٠٠٠ طناً وفي ١٨٤٠ الـ ١٤٠٠٠٠٠ طناً ، ثم بديء خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر باستخدام الآلة في صنع آلات اخرى ، وتلك هي بداية الثورة الصناعية بصورة عملية . وفي ١٧٦٩ ، أي السنة التي ولد فيهـــا نابليون وويلينغتون ، اخترع الفرنسي كونيو اول عربة نقل بخارية . وفي عام ١٨١٥ تاريخ سقوط نابليون ، ابحرت اول سفينة بخارية من غرينوك الى لندن وبعد اربع سنوات مخرت البـاخرة سافانا الامريكية عبر الاطلسي . ثم مرت ست سنوات اخرى فمدد اول خط حديدي حقيقي بين ستوكتون ودارلينغتون من قبل جورج ستيفنسون .

تلك هي القوى الجبارة التي انذرت بتغيير وجه العالم ، وبنقل الحرب من حلبة جيوش المتبارزين الضيقة الى المدرج الكبير للامم المكافحة .

ومع كل هذا فقد كان تأثير البخار على التسلح ضعيفاً نسبياً في النصف الاول للقرن التاسع عشر ، وذلك بسبب السلام الذي كان يسود بين الدول الكبرى حتى سنة ١٨٤٨ . وفي هذا التاريخ بدأ شبح الحرب يلوح بشكل جديد .

كانت كبسولة القدح والرصـــاصة الاسطوانية المخروطية اهم اختراعين عسكريين ظهرا في النصف الاول للقرن التاسع عشر ، اذ دفعا نظرية الحرب « الكمية » خطوات كبيرة الى الامام . وكان اول هذين الاختراعين مستحيلا لولا اكتشـــاف متفجر ينصعق بالقدح بواسطة الابرة ، وهو ملح حمض الفضة الذي صنعه بروغناتيلي عام ١٧٩٨ . وفي عام ١٨٠٠ اكتشف ادوار شـارل

هوارد ملح حمض الزئبق ، وفي عام ١٨١٤ اخترع توماس شو من فيلادلفيا الطعم الفولاذي ، ثم استبدله عام ١٨١٦ بالطعم النحاسي .

وهذا الطعم هو الذي سهل استعمال البندقية ذات الابرة والبارودة . أما انكلترا فلم تجرب هذا الجهاز حتى سنة ١٨٣٤ ، وقد أدت هذه التجارب الى ستبدال البارودة ذات الطعم بالبارودة ذات الزناد (حجر الصوان) .

احدث اختراع الطعم والرصاصة الاسطوانية المخروطية ثورة في تعبئة المشاة . اذ أتاح الاختراع الاول استعمال البارودة في الطقس الرطب ، فانخفضت نسبة الاستعصاءات وهبط الاجـداب من (٤١١) الى (٤،٥) في كل الف طلقة ، وازدادت نسبة رمايات الدائرة السوداء من (٢٧٠-٣٨٥) . أما الاختراع الثاني ، فقد جعل البندقية أشد الاسلحة فتكا في ذلك العصر .

ومما تجدر ملاحظته التحسين الآخر الذي طرأ على هذا السلاح باكتشاف الطعم : وهو الغلاف الذي يجعل البندقية تلقم بواسطة المغلاق وقد قلب هذا التحسين الجديد فن صنع الاسلحة بمنع تسرب الغاز من المغلاق . ثم تعددت انواع الخرطوش بسبب التحسينات المتتابعة .

وخلال هـذه التطورات كان الاندفاع البخاري بواسطة المحرك البحري والقاطرة البخارية قد وضعا الأسس العسكرية لسياسة القوة التي أوشكت أن تهز العالم في القرن العشرين . وقد بسطت بريطانيا سيطرتها بواسطة سفنها البخارية فأصبحت سيدة البحار . وأتاحت قاطرات السكك الحديديه لبروسيا أولاً ، ثم لكافة دول القارة الاوروبية الفرصة لتطبيق نظريات كلوزويتز .

وفي عام ١٨١٣ ، بنى روبرت فولتون المهندس الاميركي أول سفينة بخارية مصفحة حسنها فيما بعد وسميت باسمه ، كانت مؤلفة من طابقين ودولاب مركزي صفحت بطبقة خشبية تبلغ سماكتها متراً ونصف المتر . وقد برهنت هذه الباخرة الضخمة على الحاجة الى شيئين : جهاز اندفاع أمتن ، وتصفيح أسهل .

وقد حلت المسألة الاولى بادخال المروحة ، وهي من اختراع ضابط سويدي ، وحلت المسألة الثانية باستبدال الحديد بالخشب وانشئت اول باخرة حديدية في بريطانيا عام ١٨١٥ ، بالرغم من معارضة امارة البحر البريطانية التي كانت تعتقد ان من« واجبها الحيلولة دون استعمال السفن البخارية ، لأنها تعتبر بنظرها ضربة قاضية لتفوق الامبراطورية البحري .

لذا بقي الاسطول الحربي البريطاني حتى حرب القرم (١٧٥٣-١٨٥٦)م مشكلًا من بواخر خشبية وشراعية مع عدد من القاطرات البحرية البخارية ، وقد دخل هذه الحرب بوضعه هذا .

وباستعمال المدافـــع القصيرة ذات القذائف المتفجرة فقدت السفن الخشبية كل امكانياتهـــا الحربية . ثم أمر نابليون الثالث بانشاء اسطول صغير مزود ببطارنات عـائمة مصفحة تصفيحاً قويا . ثم انشئت خمس سفن مصفحة بطبقة من لحديد سماكتها (١٠) سم . ، ومجهزة بآلات بخارية مساعدة ، ومسلحة بستة عشر مدفعاً من عيار (٥٦) ليبرة ، لعبت دوراً هاماً ثم شعر المحاربون بالاضافة لى ضرورة التصفيح ، أنهم بحاجة الى مدفعية أقوى ، فتبنى أكثر الدول المدفع لمحلزن . وصنعت فرانسا وبريطانيا بعيد حرب القرم أول دارعتين حربيتين بخاريتين ، ويصح القول ان كافة سفن العالم الخشبية لم يبق لها اهمية حربية منذ ذلك التاريخ . وقعت أول معركة بين البوارج في حرب الاستقلال الأميركية في التاسع من آذار ١٨٥٢ ، حيث اشتبكت بارجة جنوبية مع اخرى شمالية ، ودامت المعركة ثلاث ساعات ولم تسفر عن نتيجة ، فكان ذلك برهانا قاطعاً على ضعف السفن الخشبية وأفول نجمهـــا أمام الدراعات . وقد أعلن امير البحر البريطاني السر جون هاي لدى انتهـاء هذه المبارزة بين الدارعتين قائلًا « من دخل المعركة بسفينة خشبية فهو مجنون ، ومن دفع بها الى الحرب فهو مجرم » وذلك خلافاً لما توقعته أمـــارة البحر البريطانية . لقد ساعد تفوق الورشات البحرية البريطـــانية على انتاج عمارات تفوق ما كانت تنتجه فرنسا وروسيا

مجتمعتين ، وربما كان هذا الأمر مستحيلاً لو بقيت انكلترا مقتصرة على صنع السفن الخشبية ، ، إذ أن إسطولي فرنسا وروسيا معاً كانا يفوقان اسطولها منذ عام ١٨٣٦ . وقد كان من حسن طالع بريطانيا أن يطرأ هذا التغيير على صناعة السفن قبل أن تمكن الخطوط الحديدية لبروسيا التفوق في القارة الأوربية . وليس من قبيل المصادفة أن تكون الأمة التي انجبت كلوزويتز هي أول من أدرك الاهمية الكبرى للخطوط الحديدية في الحرب . فلقد أقبل المهندسون المدنيون على دراسة الاهمية العسكرية للخطوط الحديدية قبل أن يمد خط حديدي واحد في بروسيا . وقد لاحظ فريدريك ليست (١٧٨٩-١٨٤٦) ، أحد عباقرة علماء الاقتصاد أن بروسيا التي لم تكن سوى دولة عسكرية من المرتبة الثانية ، ستحتل بفضل الخطوط الحديدية ، وبسبب موقعها المركزي بين أعداء أقوياء ، مركزاً هاماً « فستصبح برجاً دفاعياً في قلب أوربا نفسها . فسرعة النفير العام ، واطراد تدفق القطعات من قلب البلاد الى الحدود ، والمزايا الثانية الاخرى « للخطوط الداخلية » للنقل بالسكك الحديدية سيكون لها أهمية نسبية اعظم بكثير لالمانيا منها لباقي الدول . » وقد كتب ليست نفسه مايلي: « ان كل كيلو متر من الخطوط الحديدية يسبقنا لتمديده أي بلد آخر ، وكل كيلو متر يزيد عما لدينا من هذه الخطوط يعطي هذا البلد أرجحية علينا ... فلا يحق لنا التردد في الافادة من الاسلحة الدفاعية الجديدة التي منحنا اياها التقدم ، كما لم يكن لاجدادنا الحق بالتردد بين تبني البندقية بدل القوس والسهام . »

وقد كانت اول حركة نقل هامة للجنود بالسكك الحديدية لدى نقل فيلق بروسي مؤلف من ١٢٠٠٠ مقاتل مع خيولهم ومدافعهم باتجاه كراكوفيا . فقادت هذه التجربة هيئة الاركان العامة البروسية الى دراسة القيمة العسكرية للسكك دراسة عميقة .

واذا كانت بروسيا قد اكتسبت خبرة جديدة في شؤون نقل القطعات بالخطوط الحديدية اثناء الاضطرابات الثورية لـ ١٨٤٨ — ١٨٥٠ ، وحذت النمسا وروسيا حذوها ايضاً ؛ الا أن حركات الجيوش بالسكك الحديدية لم تصبح أمراً عاديا الا في الحرب الايطالية (١٨٥٩) وحرب الانفصال (١٨٦١ — ١٨٦٥) ولقد أصبحت الخطط السوقية في الحرب النمسوية — البروسية تتأثر الى حد كبير بالسكك الحديدية لكل من البلدين . وأخيراً في الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠ — ٧١) وبتأثير الكونت فون مولتكه (١٨٠٠ — ١٨٩١) « أصبحت ستراتيجاية الخطوط الحديدية بالفعل فناً قائماً بذاته ، وألحق أثناء هذا النزاع مالا يقل عن (١٠٠٠٠٠) جندي ألماني بحماية الخطوط الحديدية خلف الجبهة . ولولا الخطوط الحديدية لاستحال على المانيا اثناء حصار باريس حشد قواتها وتموينها . وهكذا أتاحت عبقرية جورج ستيفنسون (١٧٨١ — ١٨٤٨) لنظرية كلوزويتز في « الأمة المعبأة » أن توضع موضع التطبيق .

ومنذ ١٨٦٦ ، اخذت تدخل المعركة جيوش عظيمة الأهمية ، واخذ الجيش النظامي ، المحترف ، يفسح المجال للخدمة العسكرية القصيرة الأمد . واستبدلت الكمية بالكيفية ، وباتت الحرب مقصورة على « الرجل المتوسط » . وبما أن الحذق المهني أخذ يضعف الضابط على جانب عظيم من الكفايات والمؤهلات السامية من حيث القيادة والادارة معاً . فقد أصبحت أمور القيادة معقدة متشعبة لدرجة انتقلت في قسمها الأكبر من يدي الفرد الى يد أكثرية : وهي هيئة الاركان العامة ، يساعدها مصالح الادارة ، والنقل ، وعدد من الخبراء يزداد باستمرار وفق الحاجة . ولم يقف هذا التبدل عند هذا الحد ، فكلما اتسع ملاك الجيش ، كلما ازدادت الحاجة الصناعية الى تجهيزه وتموينه في السلم والحرب على السواء . وقد نظمت الصناعة واجهزة البريد والبرق بما يتلاءم مع مقتضيات الحرب ، لأن « الأمة المعبأة » تتطلب عدداً وفيراً من صانعي الأسلحة ،

والفنيين ، لانتاج الأسلحة وتحضيرها ؛ وتعويض المفقود فيها . والبلاد التي تفيد إفادة كبرى من أوقات السلم لتضاعف طاقتها الآلية والصناعية في سبيل الحرب ، والتي تملك أكبر عدد من العمال الاخصائيين ؛ والجنود والمدربين ، وتملك احتياطياً عظيم الأهمية من المواد الأولية والأسلحة ، تلك البلاد هي التي يبتسم لها الظفر . ولقد كانت بروسيا تعتبر في الدرجة الاولى في هذه المضمار .

وكانت هكذا ايضا في تحسينها للبارودة . فبينما كانت بعض الامم تجادل في محاسن ومساوىء البارودة ذات الزناد الصواني ، اتخذت بروسيا خطوة جريئة منذ ١٨٤١ تقدمت بها سائر الدول فجهزت بعض أفواجها بالبنادق ذات الابرة التي تلقم من المغلاق ، وهي بندقية دريز .

الا ان بروسيا كانت أقصر باعاً في تقدم مدفعيتها . وقد كانت فكرة المدافع التي تلقم من المغلاق ، والمدافع المحلزنة قديمة ويبدو أن التأليف بين هاتين الخاصتين قد جرب في انكلترا سنه ١٧٤٥ . وقد اخترع ضابط من سردينيا بعد مائة عام بالضبط مدفعاً محلزماً من عيار ١٦٤ مم ، يلقم من المغلاق ، واخترع البارون واهرندورف سنة ١٨٤٦ مدفعاً آخر أشد فاعلية ولكن بروسيا وسواها من الدول لم تشأ تحمل النفقات التي تتطلبها اعادة تجهيز الجيوش واستمرت التجارب ثم أتت حرب القرم . واستعملت خلالها بعض المدافع من الحديد الصب من عيار ٤٢٠ و ٢٠٠ مم ، ذات سبطانة ملساً ، تلقم فوهتها بعد تحويلها الى مدافع محلزنة من طراز لانكستر .

وقد وصف مداها البعيد ودقتها الزائدة في قصف سباستبول على أنها « رهيبان » ، ثم أقبلت الدول منذ نهاية هذه الحرب على اجراء التجارب في المدفعية المحلزنة التي تلقم من المغلاق .

وأخذ المدفع المحلزن يحتل المكان الاول في حرب الانفصال ، وكانت المميزات الرئيسية لهذه الحرب ، من ناحية التسلح تتجلى في الابداعية الخارقة

التي حققها المخترعون طيلة هذه الحرب . اذ اخترعت البارودة ذات المخزن ، والرشاش ، والطوربيد ، والالغام البرية ، والغواصات ، والبرق ، والشارات اليدوية ، والضوئية ، وشبكات الاسلاك الشائكة ، ومدافع الهاون ، والرمانات اليدوية المجنحة ، والصمامات ، وعدداً من المصائد التي كانت في طور التجربة . كما استخدمت القطارات المدرعة ، وعمد الخصمان الى استخدام المناطيد ، وورد ذكر الرصاص المتفجر ، واقترح استعمال الانوار الكشافة ، والقذائف الكريهة الرائحة التي تؤدي الى « الاختناق » . كما اقترح استعمال قاذفات اللهب وأغرقت السفينة البخارية الامريكية هوساتونيك في السابع عشر من شباط ١٨٦٤ من قبل غواصة صغيرة .

وفي الوقت الذي كان يرى فريدريك انجلز في هذه الحرب « حدثاً مخيفاً ليس له شبيه في التاريخ العسكري » ويرى كارل ماركس « أنه اذا كانت حرب الاستقلال الامريكية قد قرعت جرس الانذار في القرن الثامن عشر للطبقات المتوسطة في اوربا ، فان حرب الانفصال في القرن التاسع عشر قد قرعت جرس الانذار للطبقات الكادحة . » ومما يثير الدهشة أن نرى قائداً كبيراً كفون مولتكه لايرى في هذه الحرب « سوى نزاعاً بين جيشين من الغوغاء يطارد احدهما الآخر على طول الاراضي ، فهي حرب لايمكن ان يخلص منها المرء بفكرة او دراسة . »

ولقد اتت الحرب النمسوية ـ البروسية لسنة ١٨٦٦ مباشرة بعد الحرب الاهلية الاميركية ، بحيث لايمكن الذهاب الى أنها قد تأثرت بها . ولم يلاحظ في هذه الحرب أي تقدم فني ، خلا رجحان كفة البندقية ذات الابرة على البندقية النمسوية التي تحشى من الفوهة . وكانت التعبئة النمسوية قديمة بالية تماماً تعتمد على استخدام التشكيلات المنضمة والحراب . ومما يثير الدهشة أن نلاحظ بأن الاستهلاك البروسي للذخيرة بالنسبة للأسلحة الصغيرة ، خلال هذه

الحرب القصيرة التي دامت سبعة أسابيع قد بلغ مليوني طلقة ، أي سبع طلقات تقريباً لكل رجل .

كانت اهمية هذه الحرب أنها زادت المجموع البشري لبروسيا بما يعادل الـ (٢٤) مليون نسمة . وإذا اخذنا النظرية الكمية بعين الاعتبار ، أعطت هذه الزيادة لبروسيا تفوقاً عدديا بنسبة ٣٣ ٪ على فرنسا . وعندما وقع نزاع جديد في ١٨٧٠ ، عوضت هذه الزيادة الى حد ما ذلك النقص الذي تتصف به البندقية ذات الابرة ، اذا ما قورنت ببندقية « شاسبو » الفرنسية ذات الابرة التي كانت تفوقها في المرمى بما يقارب عدة مئات من الامتار . على أن سهولة الاستعمال الكبرى للمدافع المحززة التي تلقم من المغلاق — في حين أن مدافع البرونز الفرنسيه كانت تحشى من الفوهة — هذه السهولة كانت العامل الرئيسي في تلك الحرب . وفي معركة كرافلوت ، كان لدى البروسيين مالا يقل عن ٧٢٦ مدفعاً . وفي معركة سيدان ، تلك المعركة الفاصلة في حرب السبعين ركز البروسيون مدفعيتهم مرة أخرى ، فدحروا جميع الهجمات الفرنسية على بعد قدره (٢٠٠٠) متراً ، وهي مسافة تفوق المدى الفعال للبنادق .

لقد وضع مدفع الميدان في هذه الحرب نهاية لتفوق البارودة ووضعت البارودة بدورها حداً لاستخدام الخيالة كسلاح هجومي فرشق واحد يكفي في الحقيقة لدحر الهجوم . والدرس الهام الذي تركته هذه الحرب هو أن حرب الكتل الكبرى انما هي نتيجة احداث لا امكان فيها للعبقرية الحرة . واذا كانت مهمة القائد العسكري تقضي بأن يدرس الخطط ويؤلف بينها ، الا أن امكانيات قيادته وتوجيهه للجيش اخذت تضعف بالتدريج اذ لم يعد باستطاعته السيطرة على جيش مؤلف من كتل بشرية كبرى وضبطها ، مما أدى الى انتقال القيادة لايدي هيئة أركان عامة ، مهمتها الرئيسية العمل على مضاعفة قوة النار وحجمها .

هذا ومع ان مرحلة السلم الاوربي التي أعقبت الحرب الفرنسية — البروسية

كانت أطول حقبة من نوعها في التاريخ الحديث ، إلا انه لم يسبق ان وجدت فترة تعادلها في النشاط والحيوية منذ غزو المغول ، كما لم يسبق وجود فترة منذ الثورة الصناعية ، اسفرت عن مثل ما اسفرت عنه هذه الفترة من التقدم في صنع لاسلحة والتسليح . وقد استولت بريطانيا خلال السنوات التي أعقبت تلك لحرب على (١٢٣٠٧٨٦٠) كيلومتراً من الاراضي، وربحت فرنسا (٩٣٠٧٣٧٢) كيلو متراً والمانيا (٢٦٥٧٣٤٠) كيلو متراً ، وبلجيكا (٢٣٣١٠٠٠) كيلو متراً ، اي مايفوق مساحتها الخاصة بـ (٧٩) مرة .

وضم هذه المسافات الشاسعة ، الذي لم يصبح ممكناً الا بفضل البندقية التي تحشى من المغلاق ، كان له أثر كبير في السياسة والتجارة ، بحيث أن [illegible] على هذه الاخيرة قد أدى الى التسابق في التسلح . وكانت المانيا على رأس الدول في السبق الى التسلح ، اذ سارت بخطى حثيثة في ١٨٩٨ ، لتضمن لنفسها المرتبة الثانية بين الدول البحرية ، متحدية بهذا تفوق بريطانيا البحري .

كان تقدم المنشآت البحرية سريعاً خلال هذه الفترة ، فما أسرع ما كانت السفينة تصبح شيئاً قديماً بالنسبة لكل جديد مبتكر . فهناك ثلاثة أسلحة جديدة ، وان كانت قديمة في تصورها وتصميمها فقد أحدثت ثورة في التعبئة البحرية ، وهي اللغم البحري ، والطوربيد والغواصة .

استعمل الامريكيون أول هذه الأسلحة ، وهو اللغم البحري منذ ١٧٧٧ ولكن هـــذا اللغم لم يصبح ذا مفعول حقيقي الا في حرب الانفصال ، حين أصبح صاعقه كهربائياً ،

واستخدم السلاح الثاني وهو الطوربيد المحمول في حرب الانفصال أيضاً . وتلاه الطوربيد الآلي ، الذي حل محله فيما بعد الطوربيد ذو الحركة الذاتية ، وهو الذي أوصل بسرعة الى السفينة قاذفة الطوربيد .

والسلاح الثالث هو الغواصة حاملة الطوربيدات ، التي نجحت تجربتها للمرة

لاولى عام ١٧٧٩ من قبل « بوشنيل » . وفي ١٨٧٥ وضع « هولاند » تصميا لاول غواصة عملية . وفي ١٨٨٣ صنعت غواصة جديدة وزنها ٦٠ طناً تقطع في غوصها ٩ عقد . ومنذ ذلك الحين اصبح يتطور سريعاً ، ولكن هذا النوع من المنشآت البحرية الحربية لم يدخل الاستعمال العام الا في السني الاول للقرن العشرين .

ولقد كان التقدم في البر ملحوظاً ايضاً ، فقد اعتنقت جميع الدول البرية نظرية « الامة المعبأة » نهائياً ، ولمست الدول التي تعتمد على التجنيد في اعداد الجيوش ، ان قوتها قد ازدادت بتأثير تحسينات ثلاثة محسوسة طرأت على السلاح وهي تعميم استعمال البندقية ذات المخزن ، من العيار الصغير ذات البارود العديم الدخان ، واتقان صنع الرشاش واستخدام المدفعية السريعة الطلقات .

شاع استعمال البندقية بين ١٨٨٦ و ١٨٩١ ، بعد ان ادخلت عليها تحسينات كبيرة . ولقد كان الرشاش قديماً في اكتشافه الا ان تحسينات طرأت عليه اذ ظهر في حرب الانفصال الامريكية بعشر بكرات دوارة . وفي ١٨٦٦ اخترع المقدم « رفي » الرشاش الفرنسي بـ ٢٥ بكرة دوارة ، وهو يطلق حداً اقصى في الدقيقة ١٢٥ طلقة . وفي ١٨٨٦ صنع « ماكسيم » سلاحاً آلياً ذو قيمة فعلية حقاً ، فكان ثورة في الاستخدام التعبوي للاسلحة ذات العيار الصغير .

« وثالث تحسين اوشك ان يجعل من المدفع سلاحاً كبيراً هو ماقـــام به الجنرال « ويل » في المانيا ، والزعيم لانغلوا في فرنسا عام ١٨٩١ .

وقد قدر كلاهما استحالة الحصول على سرعة كبيرة في الرمي اذا لم يمكن ازالة الارتداد ، ونجحوا في ذلك بعد تجارب كثيرة .

وقد بقيت البندقيه ذات المخزن السلاح الرئيسي الى أن أدخـــل التحسين المذكور على المدفعية ، بسبب مداها ، وقوة نارها ، وسهولة استعمالها ، وعدم رؤية الرامي التي يستعمل البارود العديم الدخان . غير ان المدفع سريع الطلقات

أخذ ينافسها لان مداه كان أبعد ، وطلقاته بنفس الاطراد ، والذي يمكن جعله غير مرئي من العدو ، بفضل الرمي غير المباشر . وهكذا اخذ المدفع بالتدريج الارجحية على البندقية . ونشأت أصول تعبوية جديدة عملت على تبديل ملامح الحرب ، وتغيير مجرى التاريخ .

اذا القينا نظرة الى الوراء ، لاحظنا أن الحادث البــــارز هو ظهور نظام اقطاعي اقتصادي ، حلت فيه المصالح الكبرى المالية ، والصناعية ، والتجارية محل نبلاء القرون الوسطى . فهذا المجتمع يقوم على الصناعة اكثر منه على الزراعة ولم تكن الحرب نفسها الصلة المشتركة بين هذين النظامين الاجتماعيين بقد ما كانت مواصلة الاستعدادات التي تهيء الحرب . واذا كانت الحقول مصدر الاسلحة الاولى ، الا أن المعاملَ هي مصدر الاسلحة الآن . ويلاحظ المرء عبر هاتين المرحلتين أن الحرب هي التي تقود الى السلم ، وأن التسلح يؤدي الى الحرب .

لقد نتج التقدم الصناعي عن مفهوم الكمية الذي هو أساس مفهوم « الامة تحت السلاح » ، كما كان هذا التقدم الى حــــد بعيد ناتجاً عن ازدياد مقدار حاجات ذلك المجتمع . فاستخدام الرجال بكثافة في الحرب كان يتطلب كميات كبرى من النقد لدفع مرتبات لهم ، ومعامل عديدة لتجهيزهم وقد كتب لويس ممفور يقول : « ان حياة المعامل تبدو محتملة وطبيعية اذا ما قورنت بحياة الثكنات ، وقد نتج عن توسع الجندية الاجبارية ، والقطعات المتطوعة في العالم الغربي الذي اعقب الثورة الفرنسية ، نتج عنه ان الجيش والصناعة ، على الاقـل فيما يتعلق بنتائجها الاجتماعية ، قد اصبحا تعبيرين مترادفين . » وقد استشهد بقول بيلامي سنة ١٨٨٨ : « الذي كان يعتبر تنظيم الجيش على اساس الخدمة العسكرية الاجبارية نموذجاً لكل نشاط صناعي . »

وقد استثارت الحاجات العسكرية الانتاج وفكرة المغامرة . وكانت تؤدي غالباً لخلق صناعات جديدة . وقد وضع نابليون الاول مكافأة هامة لمن

يكتشف طريقة عملية لحفظ الأغذية في ميادين القتال . » وقد ربح هذه الجائزة نيقولا آبيرت ، الذي استعمل لهـــذه الغاية أوعية زجاجية ، فسمي بحق أب صناعات المأكولات المعلبة . »

كما وضع نابليون الثالث في منتصف القرن التاسع عشر جائزة لمن «يكتشف طريقة لصنع فولاذ يقاوم القوة الانفجارية للقذائف الحديثــة . وكانت طريقة بيسمر هي الجواب الشافي . »

وقد حسن صب المدافع طريقة الصهر ، وازداد طلب المعادن العظيمة الجودة بازدياد عنف قصف المدفعية ، والحاجة الى تصفيح السفن الحربيــة . وشرع في تمديد خطوط حديدية لأهداف سوقية ، وموانىء لجعلها قواعد بحرية ، وتسابقت الدول في كسب المستعمرات لتأمين التموين بالمواد الأولية .

وقد كتب ممفور يقول : « ان حالة الحرب هي خير مايوصف به هذا المجتمع الفني القديم ، فجميع اعضائه المميزة ، من المنجم الى المعمل ، ومن الافران العالية الى الاكواخ الحقيرة ، ومن الكوخ الى ساحات القتال ، كلها مسخرة في خدمة الموت . فالتنافس ، والتنازع على البقاء ، والسيطرة واخضاع الامم الأخرى ، والافناء ! فالحرب وقد اصبحت الباعث الرئيسي ، والركن الأساسي والغاية الطبيعية لهذا المجتمع ، جعلت ردود الفعل والدوافع الطبيعية للكائنات البشرية تستحيل الى تعطش للسيطرة وخوف من الفناء . . . لقد اختفى المنجم وساحة القتال تحت شتى اشكال النشاط الفني القديم وقـد ادت المناهج التي عملا على تشجيعها الى استثمار الخوف استثماراً لاحد له .

اي نوع من الحرب هذا الذي تولد عن الخوف ؟ انها حرب في كل الجبهات سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، ونفسية ، كما كانت في الجبهات العسكرية . لقد تنبأ أنجل وماركس بذلك ، وكما يقول المستر أرل : « يمكن أن يعتبر هذان الرجلان بحق اجداد الحرب الكلية الحديثة . » « فالحرب كما يتصورانها تكون بوسائل مختلفة ، في ساحات قتال مختلفة ايضاً . فالاضراب العام ، كما قال النقابي

الثائر جورج سوريل فيما بعد ، قد يتحول الى معركة على طراز « معارك نابليون »، كما يمكن اعتبار حرب القرم كفاتحة لحرب دولية كبرى . » لقد كانا من دعاة هذه الحرب التي تشبه المرض المستفحل التي ستبتلع اوربا باطلاق الجماهير الغاضبة من عقالها .

الحرب هذا الافعوان المخيف لم تعد خاضعة لارادة الملوك ورؤساء الدول، ولا الحكومات او المجالس النيابية ، ولكنها رهينة بما تمليه المصـــالح المالية الكبرى .

لم تكن نظرات مولتكه بعد جيلين لتختلف عما ذكر بكثير اذ يقول : « لقد اصبح نفوذ اسواق البورصة في ايامنـا هذه كبيراً لدرجة تستطيع معها هذه الاسواق استدعاء الجيوش للقتال حفظاً لمصالحها . فالمقتضيات المالية وحدها هي التي اغرقت المكسيك ومصر بالجيوش الاوربية ، وان السؤال التالي : هل لامة على جانب كاف من القوة للدخول في الحرب ، ان هذا السؤال في ايامنا هذه هو أقل اهمية من السؤال التالي : هل الحكومة هي على جـانب من القوة بحيث تمنع وقوع الحرب ؟ »

لقد كان فوش فيما بعد أشد ايجابية في هذا الموضوع . فقد قال في محاضرة له القاها على طلاب الكلية الحربية العليـــا حول « المميزات الجوهرية للحرب الحديثه . » : « ان الحرب هي الوسيلة (بالنسبة للامم) لكسب الثروة ،واشباع الشهوات ... — فانتصارات المانيا في ١٨٧٠، أدت الى اثراء الوطنيين الالمان. فقد كان لهم جميعاً نصيب في الفوائد ، فهم ذوو مصلحة مباشرة في الظفر :وهي حرب الشعب . »

ثم يذكر فوش الحرب الصينية — اليابانيه لعام ١٨٩٤، والحرب الاسبانية الاميركية ، والخلاف الفرنسي — الانكليزي حول فاشودا فيقول « ترى عن اي شيء كنا نبحث جميعنا ، كنا نبحث عن منافذ للتجارة ، منـافذ لصناعة تنتج اكثر مما تستطيع ان تصرف ... من ذا الذي دفع الانكليز الى الحرب

صد البوير ؟ لاشك انها لم تكن ملكة انكلترا ، بل تجار المدينة . »

لقد قلب البخار معالم العالم ، فكان سيفاً ذو حدين فالحرب في المستقبل مجزرة رهيبة ، لاتصل فيها المعارك الى نتائج حاسمة ، بل المجاعة هي التي تضع حداً لكل شيء . فمستقبل الحرب ليس في سفك الدماء ، بل في افلاس الامم وتداعي النظم الاجتماعية ... وستكون الحرب المقبلة حرب خنادق ، لا تقل حاجة الجندي فيها الى بندقية فيها الى (١) فستكون الحروب عبارة عن عمليات حصـــار ... يقتتل فيها الجنود ماوسعهم ذلك ، ولكن المجاعة هي التي تحسم لموقف . هذا ما كتبه احد المفكرين سنة ١٨٩٧ !

لقد غاب عن فكر هذا الكاتب ان الانسان حيوان صانع للآلات ، يخترع لى مالانهاية . فلا يكاد يصل باحد وسائل الدمار الى حد الكمال حتى يضطره العامل التعبوي الثابت (وهو الحاجة الملحة للخلاص من الخطر الذي اوجده هو) يضطره خوفاً من ان تلم به الكارثة ، الى التفتيش عن وسيلة جديدة . لقد بلغ عصر البخار في مجال الحرب اقصى حدوده ، وكادت تتحقق نبوءة الكاتب ، فلاح على الافق عالم جديد لم تطؤه الاقدام بعد : وهو عصر النفط .

* * *

---

(١) becke

الفصل السادس

عصر النفط

في نهاية القرن التاسع عشر ، حيث دخلت الأمة المسلحة في مرحلتها «المدرعة» من التقدم ، بدأت الاختراعات التي اوشكت ان تدخل ثورة في المفهوم الذي تقوم عليه ، تأخذ شكلاً عملياً . واهم الاختراعات التي كان لها تأثير حاسم هو المحرك ذو الاحتراق الداخلي والبرق اللاسلكي . كان الاختراع الأول نتيجة مباشرة للتقدم السريع في انتاج البترول في الولايات المتحدة منذ ١٨٥٩ ، ويمكن ارجاع اصل الاختراع الثاني بصورة غير مباشرة الى سنة ١٨٤٢ ، حين استخدم صامويل مورس دارة كهربائية ذات قاطع (١) للمرة الأولى .

ثم جعل الدكتور اوتو في ١٨٧٦ من محرك الغاز آلة تجارية . واكمل دعلر العملية بعد تسع سنوات فألحق بالدراجة محركاً صغيراً ذا احتراق داخلي يعمل على النفط ، فصنع بذلك اول عربة آلية ، ثم تابع نشاطه في العربات ذات العجلات الأربع ، وجرى اول سباق للسيارات سنة ١٨٩٥ بين باريس وبوردو ذهابا وايابا ، وقطع الظافر (١١٩٠) كيلو متراً بمعدل (٢٤) كيلو متر في الساعة . ثم بلغ المحرك اكبر انتصار ثوري له حين حلق اورفيل رايت في كارولينا مدة

---

(١) Interrupteur

اثني عشر دقيقـة في الفضاء ، على متن طائرة ذات محرك . ثم قطع بليريو بعد ست سنوات المانش بين كاليه ودوفر في احدى وثلاثين دقيقة . وهكذا تحققت اسطورة ديدال بعد ثلاثة آلاف سنة ، لقد ولدت القوة التي ستغير وجه الحرب في اقل من نصف قرن ، واقترب الوقت الذي ستنطلق فيه صواعق جوبيتر من السموات العلا .

والاختراع الثاني وهو البرق اللاسلكي ، يرجع نظرياً الى هرتز الذي برهن منذ ١٨٨٧ على ان الشرارة الكهربائية يمكن ان تنساب كالموجـــة . وتوصل ماركوني الى ارسال رسالة باللاسلكي على مسافة (١٥) كيلو متراً ، ثم وصل سنة ١٧٠١ الى قطع مسافة (٥٠٠٠) كيلو متراً .

لقد اعطى هـذان الاختراعان للحرب امكانيات اعلى بكثير من تلك التي نتجت عن البارود والبخار . اذ لم يحدث الاختراع الاول ثورة في الحقل البري وبالنتيجة في الحرب البرية فحسب . بل ان حل مسألة الطيران ادخلت الحرب في البعد الثالث . ويمكن القول بأن الاختراع الثاني قد ادخل الحرب في البعد الرابع ، وذلـك ان الاتصال اللاسلكي قد محا الزمان والمكان معاً . وهكذا سيطر الانسان على ساحتي قتـال جديدتين : الفضاء والأثير ، الاول هو عالم الطائرة ، والثاني عالم اللاسلكي .

لقد دخل دائرة الاعمال قوى هائلة ، تختلف كثيراً عن القوى التي حررها الفحم والبخار ، كنتيجة للتغيرات الاساسية التي طرأت ، ولعدد من الاختراعات الاخرى المتعلقة بالتقدم الذي رافق علوم التعدين ، والكيمياء والكهرباء وعلم الحياة وغيره من العلوم الاخرى . ان الروح الان تكافح اكثر من المادة ، والفكر اكثر من الاشياء ، وفوق كل شيء كفاح الخيال في سبيل التفوق التام على باقي مظاهر الحياة . لقد ولدت جواهر جديدة ، واكتشفت منابع جديدة للقدرة ، وفتحت آفاق جديدة على الحياة . كان العـالم في سبيل تغيير مظهره

فكريا ومعنويا وطبيعياً ، وهذا التغيير سيقوده من الثورة الصناعية الى الحضارة العلمية الفنية .

لم يدرك العسكريون اهمية التقدم الذي اصاب العالم المدني ، لقلة احتكاكهم بهذا العالم . كما لم يتفهموا أن الحضارة التي اخذت تزداد اغراقاً في الصبغة الفنية العلمية تجعل من اللازم مجاراة القوة العسكرية لهذا التقدم وان الحرب المقبلة ان هي الا صدام بين المعامل والمهندسين الفنيين اكثر منها بين القادة والجيوش . وانه يستحيل على الحرب ان لاتسلك سبيل التطور الذي ينظم السنن الكونية قاطبة .

كما لم يدرك كثير من القادة ان الهجوم الناجع يقضي بالرجوع الى ماهية الخطط الهجومية لنابليون : « الحرب يجب ان تكون بالمدفعية . »

لقد فهم الكونت فون شليفن (١٨٣٣ - ١٩١٣) هذه النقطة الحساسة ، ولكي يجعل الهجوم متفوقاً على الدفاع ، ضاعف في قوة المدفعية الالمانية الثقيلة ولكنه لم يدرك ان هذا التدبير لوحده غير كاف ، وان الحصول على تفوق حقيقي يقضي بان يوجد حول المدفع نمط جديد من التنظيم للمعركة .

تلك هي المسألة التعبوية الرئيسية التي كان على جميع جيوش العالم ان تحلها عقب الحرب الروسية اليابانية .

فاذا اعتبرنا مدفع الميدان السريع الطلقات والرشاش هما السلاحان المسيطران فيجب ان يكونا الاساس في التعبئة . وبوسعنا التنبؤ بدقة ان القائد الذي يجيد استعمال هذين السلاحين على افضل وجه ، اي ينشر رجاله بحيث يبذلوا اقصى مالديهم من مردود ، هو المنتصر لامحالة ، اللهم الا اذا كان في حالة انحطاط تام من حيث القوة العددية . واذا كان المدفع هو خير الاسلحة لرمي القذائف ، فسيدخل ثورة على النظرية الحالية للحرب بحيث يستبدل الاختراق بالالتفاف كمبدأ كبير موجه . وقد سبق ان قلت فيما مضى ان تمرين المدفعية وامدادها بالذخيرة يجب ان يكون بالوسائل الآلية ، وان قوى المشاة المعدة للهجوم

الحاسم يجب ان نعتمد على الرشاشات كنواة لسلاحها الهجومي .

ولا ارى الآن سبباً يجعلني اشك في ان الجيوش الالمانية لو نظمت على اساس التسليح بمدفع الميدان والرشاش ، وهما السلاحان المسيطران في هذه المرحلة – بدلا من جعل البارودة وهي السلاح الرئيسي في القرن التاسع عشر ، اساساً لتسلحها ، لكان اجتياحها لفرنسا اسرع بكثير مما كان عليه في ١٩٤٠ ، بفضل استعمال السلاحين الرئيسيين الشديدي الاختلاف وهما الدبابة والطائرة .

ان عدم تقدير هذه المسألة التعبوية الرئيسية حق قدرها لدى اعلان الحرب في تموز ١٩١٤ ، جعل الدول تؤلف بين قوى الاسلحة تأليفاً خاطئاً ، يضاف الى هذا عدم فاعلية بعض الاسلحة ، مما اعطى البنادق في الدفاع مركزاً يفوق بكثير استعمالها في الهجوم ، فما كاد يمر على بدء العمليات الحربية بضعة اسابيع ، حتى استبدلت حرب الحصار بحرب الحركة . وتحققت نبوءة الكاتب الذي سبق ان استشهدنا به بحذافيرها ، لا لأنه على حق فيما ذهب اليه ، بل لانه لم ير هو ولا المتحاربون المسألة على وجهها الصحيح .

وما كاد السكون يعود الى ســاحة القتال بركود الحركة ، حتى عادو الى بحث مسألة استئناف الحركة ، فبحثوا عن حل هذه المسألة في مضاعفة نار المدفعية باستمرار . ولكن القذيفة اخفقت اخفاقاً تاماً في هذه المحاولة . وذلك ان الحواجز والموانع الدفاعية التي لم يكن لها وجود في المرحلة الأولى للحرب ، والتي لم تنشأ قبل ان تستحيل المعركة الى السكون ، هــذه الحواجز الدفاعية تقدمت في النهايـة تقدماً كبيراً مما ادى الى الحد والخفض من فعالية المدفعية خفضاً يفوق الوصف .

هذا ورغم الثقة التي منحت للرمي المركز الشديد الكثافـة ، وهو قصف الافناء ، هذا الرمي الذي أتاح بصورة عامة ضمان نجاح مبدئي بتدمير وسائل المواصلات في المنطقة الامامية من ساحة القتال ، الا أن هذا الرمي والقصف

المركز الكثيف قد خلق للحركة ولتموين المدفعية والمشاة حاجزاً (١) في منطقة سقوط القنابل وانفجارها لاتقل اهميته عن اهمية الخنادق التي سبق ان دمرها . واذا كان السلاح الرئيسي – وهو المدفع – قد اصبح سيد المعركة الا أنه لم يلعب دوراً حاسماً لفقدان الحركة .. والمشاة المحاصرة في منطقة مرور القذائف لم تكن أكثر نصيباً من المدفع في الحركة . فكانت النتيجة أن السكون وتوقف الحركة قد أصبح اشد مما كان عليه بدلاً من ان يزول .

وبعد ان استحالت الحرب الى عملية حصار ، نال الحصار ثقة الجميع لان الحصار بسبب سعة نطاق عمله (٢) وقوته التي تشل حركة الخصم المحاصر ، كان السلاح المسيطر دوماً في الهجوم الاقتصادي . فكان جواب الالمان على هذا الحصار حرب غواصات لاهوادة فيها .

ولم يكن تحطيم الحصار مشكلة بحرية ، بل مسألة عسكرية . وقد حاولت المانيا اختراق الجبهة المعادية لتوسيع نطاق الموارد الغذائية ، اي الحد من نطاق الحصار . وكانت المسألة بالنسبة لفرنسا وبريطانيا اختراق الجبهة الألمانية لازالة قواعد الغواصات الألمانية . وبما أن المدفعية قد عجزت عن حل هذه المشكلة ، عمد الالمان في ١٩١٥ الى استعمال الغازات الخانقة ، بان شنوا في ٢٢ نيسان اول هجوم كيميائي . ولكن المسألة بقيت بدون حل لسهولة اتخاذ تدابير معاكسة ، وان كانت الغازات قد بدت سلاحاً مخيفاً . لجأ المعسكران ايضاً الى الهجمات الجوية على السكان والمناطق الصناعية . وعلى الرغم مما كان ينتظر هذا الشكل من الهجوم من مستقبل كبير ، الا ان الخصمان لم يصلا الى نتيجة آنئذ ، اذ ان الطيران لم يكن قد احرز تقدماً يتيح الوصول الى نتائج حاسمة .

كان هذا الخلان ناقصين لعدم فهم المسألة فهما صحيحاً فالامر يقضي بمعرفة

---

(١) La zone des trous d 'obus.

(٢) Rayon d' actiov.

الطريقة التي يمكن بها ابطال مفعول الرصاصة (١) . أي كيف يمكن الوصول الى تجريد كتلة مشاة العدو من سلاحها بسرعة آنية ، لا تدريجياً . ومن الواضح أن الجواب يكمن في التصفح الذي يقاوم مفعول الرصاص ، وليس في مضاعفة قوة القذائف ، والرصاص والقنابل أو الغاز .

أدرك الزعيم سوينتون وآخرون غيره في بريطانيا هذا الامر منذ بداية الحرب . وقد ثبت لهم أن الجندي إذا كان لا يستطيع أن يرتدي هو نفسه درعاً ، الا أنه يمكن توفير ذلك له عن طريق العربات المدرعة ، وأن هذه الناقلات المدرعة التي ستجوب الأراضي جيئة وذهوبا ينبغي أن تحل فيها السلاسل محل العجلات (٢) تلك هي قصة ولادة الدبابة ، وهي الباخرة البرية الآلية التي تقاوم القذائف . وهاهي تدخل الميدان لاول مرة في الخامس عشر من ايلول ١٩١٦ ، تحت وابل من القذائف في معركة الصوم .

وقد كان أشد الامور صعوبة في تعبئة المعركة . منذ دخول الاسلحة النارية حيز الواقع ، هو معرفة الكيفية التي يمكن بها التأليف بين الحركة والنار ، وبين الحركة والوقاية . وقد ذللت هاتان الصعوبتان بالدبابة . فقد ضاعفت الحركة بالاستعاضة عن العضلات بالقوة الآلية ، وضاعفت الطمأنينة بابطالها مفعول الرصاص على ألواح التصفح ؛ واخيراً ضاعفت قوة الهجوم بتخفيفها من عبء حمل الاسلحة عن كاهل الجندي والحصان . فالدبابة التي حمت الجندي بحركتها (٣) ، أتاحت له أن يقاتل وهو مستكن (٤) وبالحرى أن نقول أن الدبابة أدخلت أصول التعبئة البحرية على الحرب البرية .

استعملت الدبابة بدراية ونجاح لاول مرة في معركة كامبرى في ٢٠ تشرين ثاني ١٩١٧ . ففي خلال هذه المعركة لم تقم المدفعية برمى السد (٥)

---

(١) balle (٢) Roues
(٣) Dynamiquement (٤) Statiquement
(٥) Tire de borrage

التمهيدي . بل قامت الدبابات عوضاً عنها بالعمل على شكل سلسلة متحركة من البطريات المدرعة ،المتقدمةامام المشاة . وقد بقيت هذه الطريقة متبعة حتى نهاية الحرب ، ماخلا بعض التعديلات الطفيفة التي تناولتها ، وقدثبت من الأرقام ان ذلك أدى الى هبوط كبير نسبي في معدل الخسائر والأرواح في الأراضي المستولى عليها . فلقد ارتفع عدد القتلى والجرحى من الانكليز في معركة الصوم (تموز الى تشرين ثاني ١٩١٦) الى (٥٢٧٧) لكل ميل مربع استولى عليه البريطانيون ، وفي معركة باستندل(تموز الى تشرين ثاني ١٩١٧) ارتفع المعدل الى (٨٢٢٢) ، أمامن تموز الى تشرين ثاني ١٩١٨ ، حينما استخدمت الدبابات بأعداد كبيرة ، فقد هبط هذا الرقم الى (٧٦) .

لقد اقترحت سنة ١٩١٧ ، قبل معركة كامبرى ، أن ينقل الرشاشات عبر دفاعات العدو وتوضع خلف هذه الدفاعات حين يشن الهجوم في الجبهة : فصنعت دبابات خاصة لهذه الغاية . ثم تصورت خطة جديدة في ١٩١٨ ، تقبلها المارشال فوش قبولاً حسناً لتنفذ في معركة ١٩١٩ : وذلك أن الهجوم البدائي يجب أن أن لا يشن ضد جبهة العدو ، بل يستهدف مؤخرة قواته خصوصاً مقرات القيادة وجهـــاز التموين ، بفضل الطعنة النجلاء المباغتة لقوات عظيمة من الدبابات ، تغطيها الطائرات : وهذا الشلل الآني الذي ينتاب المناطق الخلفية يبعث الفوضى والاضطراب في خطوط مقاومة العدو ؛ عنده تشن ضده هجوم هـــائل من الدبابات والمشاة على طراز هجوم كامبرى .

هكذا ولد ماسوف يسمى فيما بعد « الحرب الصاعقة »،ولو استمرت الحرب في ١٩١٩ ، والألمان لم ينظموا دفاعهم المضاد للدبابات تنظيما حسناً بعد،لأسفرت هذه التعبئة عن نتائج أدهى وأمر من تلك التي تمخضت عنها سنة ١٩٣٩ — ١٩٤٠ .

بلى إن هذه الحرب الكونية ، التي كانت أسبابها الرئيسية اقتصادية مالية ، قد انتهت بالمجاعة ، والافلاس ، وانهيار النظام الاجتماعي في البلاد المغلوبة،وكان

الحصار سيد الأسلحة فيها ، وهذا أمر محتم إذا أعطي الحصار الوقت الكافي ليفعل مفعوله المرتجى ، اذ أن قوته الهجومية التامة كاسحة شديدة البأس تعصف بالشيب والولدان ، وتلفح بشواظها المعامل والمزارع وكل مصادر الحياة في الأرض المحاصرة . ومن خلف الحصار تأتي الدبابة ، ونتائجها المعنوية تفوق بكثير النتائج المادية إذ يشعر الجندي بعجزه وضعفه حين تنقض عليه ، وقد كان لودندورف على حق حين قال عن النصر الكبير الذي احرزته الدبابات في آمين في ٨ آب ١٩١٨ أنه « يوم الحداد بالنسبة للجيش الألماني .

كانت الثورة التي أعقبت الحرب تامة . وكان من نتائجها السياسية انهيار ثلاث امبراطوريات ، المانيا ، وروسيا ، والنمسا . ومن نتائجها الاقتصادية والمالية أنها احلت الخراب والدمار والافلاس في البلاد المغلوبة ، واستنزفت دماء البلاد الغالبة باستثناء الولايات المتحدة» .

كانت هذه الحرب ثورية في طبيعتها ، كما كانت ثورية في نتائجها . لم يكترث فيها بالاخلاق واللباقة ، وبهذا كانت تختلف جوهرياعن حروب نابليون وحرب ١٨٧٠ ، إذ استطاع الخصوم في تلكما الحربين أن لا يستثيروا كوا من النزعات الثورية . فكانت الغلطة والفظائع التي تقشعر لهولها الأبدان تستعمل كسلاح للدعاية من الدول قاطبة . « فالغاية المباشرة من المعركة أن تقتل وتستمر في القتل حتى لا يبقى ما يمكن قتله . » هكذا كانت نظرية أحد العسكريين الفرنسيين قبل وقوع الحرب ، وقد وضعت هذه النظرية موضع التطبيق فيها . وهذا هو الرأي الذي عبر عنه القائد الانكليزي شارل روس قبل الحرب بسنوات : « الحرب هي رجوع الى البربرية ، والخيانة فيها هي أن لا تكون شريراً ، والأخلاق فيها هي أن تنهيها بسرعة ما وسعك ذلك . اذ لا مكان للحب والعواطف في الكفاح من أجل الحياة . فالبربرية الممعنة بالشراسة والوحشية هي السائدة

فيها ، والفظائع وأعمال القسوة هي آخر الموارد السوقية (١) الذي يمكن اللجوء اليها لقهر العدو . »

لقد كانت وسائل القتال ثورية أيضاً ، ولأول مرة في التاريخ كانت المعارك عبارة عن كفاح بين المعامل المتنافسة كما كانت كفاحاً بين الجيوش المتعادية . وكان انتاج الأسلحة عاملاً حاسماً في المعركة يفوق في اهميته التجنيد الاجباري. فكأن الله مع الصناعات الكبرى لا مع الكتائب اللجبة ، ومع الدبابة والمدفع لا مع البنادق والحراب . وقد كتب شاتويل يقول : « لقد انتقلت الحرب نهائياً ، خلال ١٩١٤ – ١٩١٨ ، الى الدور الصناعي من التاريخ الاقتصادي . . . فصناعة الحرب تؤلف بين أصولين فنيين : فنية السلم التي تغذي الحرب بمواردها ، وفنية الخراب والدمار . » وقد انتقلت الفوائد والأرباح المادية خلال هذه الحرب من السلب والنهب الذي كان يقوم به القادة والجنود الغزاة الى الفوائد التي يجنيها رجال المال واصحاب المشاريع وأرباب الصناعة .

إن الجانب المغلوب يعتبر بالحرب أكثر من سواه ، وهذا هو شأن الحروب الكبرى تقريباً . وذلك أن المنتصرين ينظرون الى الحرب كقضية انتهى أمرها ، ووضع بالنصر حد لها ، في حين أن المغلوبين ينظرون اليها على انها نتيجة لأخطاء جسيمة ، وقد كانت الدروس التي تلقاها الروس والألمان ، والى حد ما الطليان هي الضرورة الماسة الى مايلي : آ) وجود سلطة سياسية حربية ، ب) ايجاد انضباط قومي حربي ، ج) ايجاد سياسة اقتصدية اكتفائية حربية ، د) ايجاد علم الصنائع والفنون الحربية . هذه الدروس القيمة في زمن الحرب ، تصلح لزمن السلم ايضاً إذا أريد الاستعداد للحرب .

كل هذا أدى الى الحكم الفردي المطلق ، والتجنيد ، والاكتفائية وسيطرة الآلة والآلية ، وخلاصة القول الى مفهوم جديد للحضارة . ولم نعد القوة

---

(١) Ressources stratéqujue

العسكرية بالنسبة للروس والالمان كحامية لكيان البلاد، بل عنصراً من عناصر تجددها وبعثها المعنوي. وهكذا عكست الدول المغلوبة المثل الشهير لكلوزويتز الذي يقول: «إن الحرب هي استمرار لسياسة السلم. فجعلتها «ان السلم هو استمرار لسياسة الحرب». وكانت الدول المنتصرة اثناء ذلك تسعى وراء غاياتها، وهي إبقاء القديم على قدمه، كما كانت الحال سنة ١٩١٣، فهم يلعنون الحرب ويحاولون حظر استعمال الاسلحة الجديدة.

كانت هذه الاسلحة كالطائرة والدبابة والغاز الخانق، تستعمل خلال الحرب في مرحلتها التجريبية، وكانت هذه التجارب تهدف الى مضاعفة قوة المدفع وفاعليته، لانه بقي السلاح المسيطر. هكذا كانت الدبابة تستعمل كمدفع مدرع آلي، والطائرة لمدفع بعيد المدى أو كرشاش. ولو طال امد الحرب وامتدت هذه التجارب، لكان اتضح ان الدبابات والطائرات ليست في جوهرها اسلحة، ولكنها ناقلات تملأ الى اقصى حد ممكن بكل ما يراد تحميله فيها. فإذا سلمنا بأنها في جوهرها عبارة عن وسائط نقل جديدة تستعمل البانزين كمصدر عام للطاقة، امكن عندئذ ان نبني على هذه العربات منظمة عسكرية جديدة تماماً، من جيوش مدرعة آلية وجيوش محمولة جواً، بدلاً من الاقتصار على مدافع مدرعة آلية، ومدفعية محمولة جواً.

كان البترول العامل الجوهري في هذا التطور، كما كان البخار في القرن التاسع عشر. لكن على الرغم من ملاحظة الجنرال دانوين الذي قال عقب الحرب «أنه بدون محروقات. (١) وطنية المصدر لا يوجد استقلال وطني». ورغم ما قاله اللورد كورزون من ان «من ملك النفط، كان له امبراطورية»، فان النفط لا يمكن ان يستثمر تماماً كمصدر للحركة في الحاجات الحربية، اذا لم تنظم قوى القتال في علاقتها معه: وليس القصد مضاعفة قوة المدفع وفاعليته، بل وضع تنظيم جديد للجيوش. لم تدرك هذه النقطة اي دولة، رغم ما كان

(١) Carburant

يبدو جلياً من ان نعبئة الدبابات التي كنت اقترحتها لمعركة ١٩١٩ ، لا يمكن تطبيقها الا من قبل جيش مدرع آلي ، يسانده جيش جوي قوي . وينبغي ان يتضمن الجيش الاول : ثلاثة انواع من الدبابات : ناقلات مدرعة لنقل الجنود ، ورحبات مدرعة ، ومدرعات لاتلاف الالغام ، ومدرعات تقذف الغازات ، ومشافي مدرعة ، ومدرعات لاسلكي ، ومدرعات تموين . والسلاح الوحيد الهام الذي ينقص في هذا المخطط هو مدفع الميدان الآلي المدرع .

وهذا المشروع على الرغم من نقائصه كجيش ناشيء ، هو اول مشروع لجيش مركب جوي بري ، مخصص لمجابهة مقتضيات حرب في مستوى حضارة فنية صناعية راقية .

كانت المشكلة هي معرفة كيفية ضم العناصر التعبوية الثلاثة الى بعضها ، ولكن روسيا والمانيا وقد كانتا الدولتان العسكريتان الرئيسيتان في ١٩٣٩ لم تدركا ذلك بوضوح ، فبدلا من أن تسلكا سبيل الجمع والتأليف بين هذه العناصر ، وقفتا عند الطريقة التي كانت سائدة في الحرب الكبرى الاولى ، وهي فصل وعزل مايمكن تسميته بالجيش القديم « اليدوي » ، عن القوى الجديدة « الآلية » وقد قادهاهذا الى تبني تنظيم على اساس طريقة نابليون المجددة (١) ، اي الجيش القائم على مبدأ « الأمة المعبأة (٢) » ، الذي تلحق به الخدمات الفنية الجديدة (٣) ، تتعاون معه بدلاً من أن تكون داخلة في مقوماته . ولكن الروس والألمان اجتنبوا غلطة الفصل بين قوات الجو والبر ، ولم تستهوهم نظرية الحرب الجوية التامة التي عرضها دوهي ، وميتشل وسيفرسكي وآخرون ، من الذين كانت الطائرة بالنسبة لهم سلاحاً مسيطراً حاسماً تكون سائر الاسلحة بجانبه لاطائل تحتها .

(١) Néo - napoléonienne

(٢) La nation en armes

(٣) Appendices

وانه لأمر هام أن نلفت النظر الى هذه النظرية ، اذ أن إساءة استخدام السلاح ، كاستعماله على وجـــه صحيح ، فهو بتأثيره في الحرب يترك أثره في التاريخ ايضاً .

لاجدال في فضل الطائرة بسبب مدى عملها البعيد ، اما أن نقول بانها سلاح حاسم ، كالبندقية اليوم ضد المتوحشين ذوي الاسلحة البدائية ، فغلو ظاهر .

يمكن تلخيص نظرية دوهي بكلمتين : بما ان القوة العسكرية إنما تقوم على الانتاج الصناعي ، ومعنويات المدنيين ، فلا بد من ان تنهار هذه القوة بصورة آلية اذا حرمت من هذين المصدرين للطاقة . ينتج عن هذا ان من الضروري الحصول على السيادة الجوية ومن ثم محق أساسي القوة هذين . والقوات البرية ، والبحرية ، وحتى الدفاع ضد الجو ، سواء أكان ذلك حركياً ام ثابتاً ، لايمثل شيئاً بالنسبة لدوهي ، لأن الدفاع الوطني لايتم الا بقوة جوية مستقلة على جانب كاف من القوة .

كان دوهي يعتقد أن قوة النار تؤدي الى الابادة التامة للعدو وقد نسي الأمر الهام وهو أن الشيء الوحيد الذي يستحيل على الحرب هو أن لاتتطور . فلا يكاد يدخل السلاح في طوره الرئيسي ، حتى يلعب العامل التعبوي الثابت دوره – أي ان كل تحسين في السلاح يقابله مايعاكسه بحيث ينتهي الامر بالنتيجة الى ابطال التقدم الحاصل . ولو لم يكن هذا الأمر صحيحاً ، لوصلت الحرب الى النتيجة التي توقعها دوهي قبل ان يبدأ العصر الحجري . فالسر الذي لم يدركه دوهي هو ان العبقوية المبدعة ، اذا نشطت بدافع من غريزة البقاء ، فهي لاتعرف الحدود .

ليست الطائرة كما يعتقد الكثيرون هي التي جعلت الحرب شاملة(١) ولكن العلم ، وبصورة أعم الفن الصناعي الذي تخطى بأشكاله المتعددة جميع الحدود السياسية

(١) Toate

والذى يوشك الآن أن يزيل هذه الحدود لتوحيد المجتمع البشري ، وربما أدت هذه النتيجة الى ذلك صرحه .

ساد بعد الحرب الأولى مفهومان متضاربان للسلم : مفهوم النظـام الجديد وغايته خلق كتلة او جامعة من الدول تكتفي نفسها بنفسها اقتصادياً ، ويربطها ببعضها نظام نقدي تضمنه القدرة الانتاجية ، ومن جهـة اخرى مفهوم النظام القديم ، الذي يعتبر الجهاز المالي القديم قادراً على حل المشاكل الاقتصادية التي خلقتها الفنية الصناعية وزادتها تعقيداً من يوم لآخر . فكان ان رأى العالم كرة اخرى قوة هائلة تجابه كتلة ثابتة وما نتج عن ذلك من الحرب الكونية الثانية التي بدأت بغزو المانيا في ١ ايلول ١٩٣٩.

هذه الحرب التي انفجرت في اوربا ، وإن كانت الناحية التجريبية فيها من الوجهة الفنية الصناعية والتعبوية أضعف مما كانت عليه في الحرب الأولى ، الا أنها مع هذا كانت حقلا لتجريب النظريات الشديدة الارتباط بالتسلح . ومن هذه النظريات نظريات ست تستوعي الانتباه .

آ) قيمة نظرية كاوزويتز في « الأمـة تحت السلاح » كأداة للقتال ؛ ب) قيمة القوى المدرعة الآلية بحسب مفهومي ومفهوم قـــادة آخرين . ج) قيمة الدفاع الخطي الممثل بخط ماجينو ؛ د) قيمة الحصار كما تصوره الانكليز ؛ قيمة نظرية دوهي في مهاجمـة الصناعة والمعنويات في المؤخرة ؛ ه) أثر الطيران في الحرب البرية والبحرية .

كانت هذه المسائل الفنية التعبوية موضوعـة في إطار سوقي نظري جداً ، ينبغي فهمه بوضوح قبل التعرض للمسائل الست موضوع البحث . ومما يؤسف له أن كاوزويتز لم يعمر طويلا ليتاح له انجاز عرضه لفلسفته في الحرب ، لا لفائدة رجال الدولة والعسكريين ، بل لأجل التاريخ ايضاً . ومن المؤكد أنه لو اتيح له ذلك لكان عدل نظريته في تحطيم قوات العدو المقاتلة ، ولعرف ان الهدف

الذي يجب الوصول اليـــه يكون احيانا ادنى واضيق بكثير مما ذهب اليه .
ودلبروك هو اول من لاحظ من بين تلامذة كلوزويتز أن شكلي الحرب المحدودة وغير المحدودة يقابلها شكلان من السوقية ، أسماها سوقية الافناء (١) وسوقية الانهاك (٢) . فبينما المعركة الحاسمة هي الغاية في الأولى ، لاتكون المعركة في الثانية سوى احدى الوسائل كالمناورة ومهاجمة المراكز الاقتصادية وكل هذه الوسائل تتيح الوصول الى النتيجة السياسية المبتغاة .

ولو عاش دلبروك وكلوزويتز الى الآن ، لأدركا أن سوقية الابادة ، في هذه الفترة الفنية الصناعية ، لاتتطلب ابادة جيش العدو بقـدر ماتتطلب تحطيم او احتلال مجال نشاطه الحيوي ، اي هذا الجزء من البلاد الجوهري في حفظ قواته في الميدان ومدها بما يساعدها على الصمود – كالمناجم وآبار النفط ، والصناعات ... الخ . فاذا كانت هذه المنطقة الحيوية ضيقة الرقعـة بحيث لاتتيح للهجوم الآلي الواسع النطاق البقاء على اندفاعه الاول الى ان يصبح الاحتلال تاماً ، كان هذا الاحتلال الجزئي مع ذلك حاسماً اكثر من دحر العدو في الميدان ، فاذا حرمت قواته المسلحة من هذه المنطقة ، فان ايامها تكون معدودة .

فخطة الابادة التي اتبعها الالمان في روسيا لم تنجح لسعة المنطقة الحيوية التي تمتد الى ماوراء جبال اورال ، في حين أنها نجحت في فرنسا .

والآن بعد ان رأينا ان جميع الاحداث الهامة مسطرة بين قطبي هذه السوقية المزدوجة نعود الى فحص القضايا الست .

آ) قيمة نظرية « الأمة المعبأة »

يتناول هذا الشكل من القوة تعديل واســـع وعميق . فقد أدى التوسع الصناعي المتزايد الى جعل العمل اجبارياً للرجال والنســـاء حتى في البلاد

---

(١) Stratégiè d'anéantissement
(٢) Stratégiè d'épuisement

للديموقراطية . كما ادى خطر الهجمات الجوية الدائم الى حشد عدد كبير من لمدنيين غير المسلحين للقيام بالدفاع السلبي الجوي ، كمراقبي الحرائق ، وافواج المطافيء ، ووحدات التخريب ، والشرطة ، ووحدات المشافي المتنقلة ... كما دى الخوف من غزو القوات المحمولة جواً الى انشاء وحدات « كالحرس المحلي » (١) البريطاني ، والالماني . ولكن القيمة الهجومية « للامة تحت السلاح » اخذت تضعف ، فهي وان كانت تلعب دوراً في معارك المشاة ، الا ان شدة بأس هجوم المدرعات والمدفعية والطيران كان العامل المسيطر في الهجوم . وبعبارة اخرى ان قوة القتال تأتي من الآلات اكثر منها من الرجال ، ومن الفنية الصناعية والكيفية اكثر مما تأتي من الكمية واليد العاملة . هذه هي بعض الفوارق الظاهرة بين نظرية الشعب المسلح في يومنا هذا ، و « الامة تحت السلاح » التي قال بها كلوزويتز كما كان ينظر اليها خلال القرن التاسع عشر ، فالاولى مجاله في المعامل الحربية ، أما الثانية ففي الثكنات .

ب) قيمة القوى المدرعة . لقد حققت القوى المدرعة الآلية آمال أنصاره فقد استولي على بولونيا في ثلاثة أسابيع ، وانهارت هولاندا في خمسة أيام ، وبلجيكا في ثمانية عشر يوماً ، وفرنسا في خمسة وثلاثين يوماً ، ويوغوسلافيا في اثني عشر يوماً ، واليونان خلال ثمانية عشر يوماً . كانت هذه السرعة الثابتة في الفتح جديدة تماماً . وقد كتب احد القادة في مذكراته يقول : « لقد انتاب الشلل هيئة الاركان العامة الفرنسية من حرب الحركة هذه غير المألوفة فكتب العسكرية لم تتعرض قط لذكر مثل هذه الحركة ، كما ان ادمغة المادة العسكريين الفرنسيين من طراز ١٩١٤ ، ممن وضع خطط الحلفاء ، كانت عاجزة عن العمل في هذه الشرائط الجديدة المدهشة » .

كانت الآلة سر هذه المعجزة الحربية .

---

(١) Home guard

واذا كان الالمان قد نشروا عدداً كبيراً من فرق المشاة في هولندا وبلجيكا وفرنسا ، الا ان الخطوة الحاسمة في هذه المعارك كانت تأتي من جانب القوى المدرعة والطيران . واذا كانت الارقام الدقيقة غير متيسرة ، فالمحتمل ان جهاز الدبابات والطيران لم يستوعب اكثر من ۲۰۰۰۰ رجل من الالمان . وقد ستولى الالمان على فرنســـا ، وهي دولة من الدرجة الاولى ، وكان العامل الرئيسي في ذلك تلك القوة الصغيرة التي لم تخسر سوى ۲۷۰۷٤ قتيلا و ۱۱۱۰۳٤ جريحاً ، و ۱۸۳۸٤ مفقوداً وهو اقل من ثلث الخسائر التي تكبدها الانكليز سنة ۱۹۱٦ في معركة الصوم . ولم تتجاوز خسائر الالمان في بولونيا ۱۰٥۷۲ قتيلا و ۳۰۳۳۳ جريحاً و ۳٤۰۰ مفقوداً ، وهو عدد يربو بقليل على ثلثي الخسائر التي مني بها الانكليز في اليوم الاول من معركة الصوم المذكورة . ولم يسبق ان وجدت معركة كبيرة حديثة كهذه كانت الدماء فيها اقل اراقة ، او كانت سريعة وحاسمة الى هذا الحد .

كان الاستيلاء على يوغوسلافيا ورومانيا من وجهة تعبوية أهم بكثير من الاستيلاء على فرنسا ، لان هذه كانت جبلية ، فهي عوائق هائلة لتقدم الدبابات ومع هذا فقد اثبت الاستيلاء عليها ان مثل هذه المناطق الوعرة ليست اشد صعوبة من البلاد ذات السهول الكبيرة ، شريطة ان تكون الدبابات والطائرات على ارتباط وثيق في عملها . فالجبال ليست عوائق للطائرات ، وبما ان العمليات الحربية الكبرى انما تدور في الوديان ، فبوسع الطائرات ان تركز قواها ضد العدو ومواصلاته بسهولة اكثر من الارض المنبسطة .

ومع ان المدرعات قد برهنت برهانا ساطعاً في افريقيا الشمالية ، وفي الهجمات المعاكسة الروسية في ۱۹٤۳ — ۱۹٤٤ ، والغزو الانكليزي الاميركي لفرنسا ، وعمليات الحلفاء الاخيرة في المانيا ، على انها السلاح الحاسم في الحرب البرية ، الا ان السوقية الخاطئة الناقصة التي سلكها الالمان في معارك ۱۹٤۱ و ۱۹٤۲

بروسيا ، وجهاز تموينهم غير الصالح قد حدا من نجاحهم . فالقضية السوقية التي تعرض في مسرح حربي شاسع المدى كهذا ، لاتختلف في شيء عما يحدث اثناء السباق . فالراكض الذي يستطيع ان يقطع ١٠٠ متراً في ١١ ثانية ، لايمكنه ان يقطع ٤٠٠ متراً في مدى ٤٤ ثانية ، أو ١٠٠٠ متراً في ١١٠ ثوان . فمثل هذه السرعة لايمكن بلوغها الا في سباق للمراحل .

كانت الغلطة الاولى التي ارتكبها الالمان (١) هي عدم وجود احتياطي . فالاستيلاء السريع على روسيا كان يتطلب احتياطي كبير في الآليات ، لتأمين التموين والدخول في المعركة ، وان ينظم هذا الاحتياطي الآلي بدقة وعناية بحيث يقطع هذه المسافات الشاسعة بسرعة كبيرة . ولكن الالمان لم يفكروا بأمر المسافات والاراضي الشاسعة كما لم يكن لديهم الآليات اللازمة ، فعادوا الى الاكثار من الرجال الامر الذي زاد في عرقلة المواصلات وبطئها وقدم المدرعات الروسية اهدافاً سهلة ، بطيئة الحركة ، يهون تطويقها وتحطيمها

ج . — قيمة الدفاع الخطي (٢) : يجب ان تكون جميع خطوط الميدان الدفاعية متحركة في الحرب المدرعة — أي قابلة للنقل — ولكن التحصينات الدائمة المتقنة ضد الدبابات والطائرات ، لاتقل اهمية بالنسبة للقوى المدرعة عما كانت عليه القلاع بالنسبة للفرسان المدرعة في القرون الوسطى . وقد كان بالامكان ان يحول خط ماجينو ، الذي حط من شأنه كثيراً ، فيتحول الى حاجز كبير ، لابتمديده من لونغوي الى البحر ، بل بتكتيل قوى مدرعة كبيرة على جناحه الايسر ، فتكون هذه القوى بمثابة السيف للترس . ومما تجدر ملاحظته في حرب الحركة هو ان الدفاعات المستكنة (٣) يجب ان تنظم بشكل

---

(١) وهو سباق تستبدل فيه الجياد التعبة في المحطات المقامة على الطريق الطويل بجياد مستجمة

(٢) Dfénøse linéaire

(٣) Les défense statique

يساعد على تزايد الحركة ، لا اعاقتها . وانه لجدير بالملاحظة انه على الرغم من الخطوط الدفاعية المعقدة ، كخط سيغفريد وجدار الاطلسي ، ومع ان القوى المدرعة كانت تسعى غالباً للاحتماء ببعض المنشآت الدفاعية في الميدان ، وحقول الالغـــام كما هو الحال في افريقيا الشمالية سنة ١٩٤٢ ، الا ان الخصم المتفوق بالمدرعات كان ينجح دوماً في اختراق هذه الدفاعات .

والسبب في ذلك هو ان الدفاع في حرب المدرعات يكون سوقياً اكثر مما يكون تعبوياً ، أي ان الدفاع يتوقف على المسافات كعامل انهاك اكثر بكثير مما يتوقف على الحواجز كعوامل مقاومة . لنضرب على ذلك مثلا المعركة الالمانية الروسية (١٩٤٢ - ١٩٤٣ ، فمنذ ان ظهر بأن زمام المبادرة قد ضاع كان على القيادة العليا الالمانية ان تسحب باقصى مايمكن من السرعة كامل قواتها الى غرب الدنيبر ، بدلا من ان تنسحب انسحابا بطيئاً وهي تقاتل من الفولغا نحو الغرب ، متبعة الطريقة المسماة « بالدفاع المرن (١) » ، التي هي في الواقع اشبه بخط ماجينو خيالي ، نصف متحرك ومتقطع . فلو انها سحبت مدرعاتهـا بسرعة الى غرب الدنيبر وتركتها قليلا لتستجم هناك ومن ثم اعادت تنظيمها فلا يكاد الروس الذين انهكتهم المطاردة ، وعرقل نشـــاطهم طول خطوط مواصلاتهم ، لايكادون يعاودون الالتحام مع الالمان ، حتى يقذفهم هؤلاء بهجوم معاكس كبير . وفي العلمين ايضـاً في تشرين اول ١٩٤٢ ، منذ ان اتضح ان الجنرال مونتغومري كان على وشك الهجوم ، أو في اللحظة التي يبدأ فيها بشن هجومه ، كان على الجنرال فون شتومه قائد جيش رومل الموقت ، بدلا من ان يتربص مرتقباً هجوم مونتغومري ، كان عليه ان يسحب جيشه نحو السلوم ، تحت ستار قوي ، ومن هناك يشن هجوماً معاكساً شديداً على مونتغومري في اللحظة التي يصل فيها هذا الى السلوم .

---

(١) La defense élastique

فلا يوجد في الواقع دفاع خطي او دفاع مستكن يمكن الركون اليه في الحرب المدرعة : ولا يوجد سوى عمليتان ممكنتان فقط : التقدم بشكل هجوم والانسحاب في حالة دفاع ، لانهاك العدو اثناء المطاردة التي يقوم بها ، ومن ثم ستعادة زمام المباشرة ويتوقف كل من الهجوم والدفاع على الحركة ، كما كانت الحال بالنسبة لحرب الفرسان .

د – قيمة الحصار البحري . – ٢ يبلغ الحصار البحري اوج اوجه قوته عندما يقف العدو موقفاً دفاعياً في العمليات البرية ، اي عندما تعرقل وتعاق حرية حركة القوات البريه العدوة كما كانت عليه الحال في بداية الحرب الكبرى الاولى . ولكن اهمية الحصار البحري تتضاءل كلما اصبحت الحرب البرية اشد حركة ، اما لهزيمة العدو في البر ، حيث لا يبقى لزوم للحصار البري ، او لان هذا العدو بافنائه لقوات خصومه ، واحتلاله لاراضيهم ، ينجح في توسيع مجاله ، كما كان الحال في الحرب العالمية الثانية . يضاف الى هذا ان التقدم الذي حصل في تحضير الموادوتركيبها قدحدمن مفعول الحصار . واكبر مثال على ذلك البنزين المركب (١) ، فلولاه لما استطاع الالمان ان يعلنوا الحرب او ان يواصلوها .

لاريب في ان الحصار قد حرم المانيا من بعض المواد الضرورية ، ومن كثير من الكماليات ، الا ان الحرب كلما ازدادت حركتها ، كلما كان شكل الحصار حركياً ايضاً . ولقد فرضنا الحصار سنة ١٩١٤ على نهر الالب ، وكان الهدف لرئيسي هو منع وحظر تهريب الموادالى المانيا . (٢) ومنع اسطولها من الخروج ، فكان جواب الألمان على ذلك أن فرضوا حصاراً معاكساً بغواصاتهم ، واوشكنا بذلك أن نخسر الحرب ، رغم تفوقنا البحري . والفرق بين هذين النوعين من

(١) Zynthètigue

(٢) Hochseeflotte

لحصار ، هو ان الأول اذا كان بالدرجة الاولى سلبيا الا أن الثاني هو ايجابي جداً ، وبمقارنة هاتين الطريقتين نرى أن الثانية تفوق بكثير الاولى من حيث النتائج ، فالهجوم الناجح هو أسرع واضمن وسيلة دفاعية . فالسلاح المستعمل في الطريقة الثانية وهو الغواصة يستطيع الحركة في الأبعاد الثلاثة (١) ، وإن كان مقيداً بالعمل في الجهة السفلى من خصمه ، اي تحت الماء . لهذا يكون تفوقه التعبوي في أنه يستطيع الاختباء والدفاع بصورة غير مباشرة عن نفسه . فاذا انتقلنا الآن الى الطائرة ، رأينا ان قوتها التعبوية هجومية اكثر ، وبهذا تتفوق على الغواصة ، وإذا ذهبنا ابعد من ذلك قلنا إنها تستطيع ان تضاعف نطاق الحصار ، لانها تحلق فوق البر والبحر معاً ، الى ان يشمل هذا النطاق دولة بكاملها .

ويلاحظ ان الحصار الجوي اخذ يحل بالتدريج مكان الحصار البحري ، لأن الطائرة هي اكثر حركة من الباخرة . فاذا كانت الغاية من الحصار البحري هي فرض الحظر على الموانيء العدوة ، ومنع البضائع من الوصول اليها ، فالهدف من الحصار الجوي هو تدمير هذه الموانيء نفسها والسفن التي تفرغ فيها بالقصف الجوي . ومن الواضح ان مهاجمة الموانيء هي اكثر سهولة واقتصاداً من تنظيف البحر من ملاحة العدو او مهاجمة مدن العدو الصناعية والمعامل التي تدخلها المواد الخام المستوردة ، فالبواخر تتنقل في عرض البحر ، والمصانع يمكن نقلها الى أمكنة اخرى ، اما الموانيء فهي ثابتة دوماً .

هـ ـ قيمة نظرية دوهي . كان القصف الجوي للمراكز الصناعية وللسكان المدنيين ، كوسيلة سريعة لانهاء الحرب ، بمثابة فشل ذريع ، اذ لم يؤد الى إطالة امد الحرب فحسب ، بل انعدم بتأثيره جميع الأسس التي قد يبنى عليها السلام . لقد برهن كل هجوم كبير جرى بين ١٩٣٩ و ١٩٤٢ بوضوح على أن النصر السريع او بالاحرى تقصير امد الحرب يتوقف على التعاون الوثيق بين القوى

(١) Les trois dimensions

البرية والجوية ، ولكن الانكليز والامريكان منذ ١٩٤٢ كانوا يعتمدون كثيراً بما يسمونه « بالقصف السوقي » . لقد كان أثر نظرية دوهي كبيراً حتى ان وزير الدولة البريطاني قد صرح عام ١٩٤٤ في معرض حديثه عن موازنة الجيش قائلا : « لقد أصبح وضعنا عجيباً ، فاليد العاملة المخصصة لانتاج القنابل الثقيلة لوحدها أصبحت لاتقل في أهميتها عن اليد العاملة المخصصة لانتاج جميع مايلزم الجيش البري من تجهيزات » . فبدلاً من ان يكون الهجوم منسقاً ، كان هناك معركتان منفصلتان عن بعضهما ، احداهما في الميدان بقوة جوية غير كافية ، والأخرى ضد مدن العدو ، بقوى كبيرة جداً . وقد كانت الخسائر الثقافية والمنزلية والبشرية مخيفة في هذه الغارات . ولم يأخذ احد بعين الاعتبار ان تدمير المراكز الصناعية في البلاد المعادية لابد من ان يعبث بالسلم في الحضارة الصناعية . فاذا أمكن سد حاجات الجيش الى المساندة الجوية ، واردنا تبرير الغايات « السوقية » وجب استعمال مايفيض عن حاجـــة المساندة لا في تدمير المناطق الصناعية ، بل ضد موارد الطاقـة الحربية وخطوط المواصلات . فلو كانت مناجم الفحم ومعامل البنزين المركب صناعياً الهدف الأول للقصف المستمر ، لتوقفت الصناعات الالمانية الثقيلة عن العمل بالتدريج دون ان تلحقها اضرار التخريب . ولم يؤخذ بهذه الطريقة المنظمه في اوربا الا في المرحلة الاخيرة من الحرب ، وقـد قاد فقدان البنزين الى انهيار المانيا انهياراً تاماً .

و ـ أثر الطيران في البر والبحر : ان الطيران السوقي ، كسلاح مستقل ، يستعمل اصولا تعبوية لاتقل بساطة عن هجمات الخيالة في العهود القديمة ، وهذه الهجمات تكون ساحقة كهجوم هامبورغ الكبير سنه ١٩٤٣ . الا أنه لما كانت فرق الخيالة لاتحرز نتائج طيبة الا اذا كانت مرتبطة بالمشاة ، ومع المدفعية كما حدث فيما بعـد . وكذلك الطيران فهو لايبلغ الغاية الا بتعاونه مع الجيوش البرية والبحرية . فكلما تحقق هذا التعاون في البر ، كما في غزو الالمان لفرنسا

سنة ١٩٤٠ ، أو معركة العلمين في ١٩٤٢ — ١٩٤٣ ، أو اثنـــاء غزو الحلفاء للنورماندي في ١٩٤٤ ، كانت النتائج مدهشة . وما يقـال عن البر ينطبق على التعاون بين الجو والبحر ايضاً .

وقد أحدثت الطائرة ثورة كبرى في نظام التعبئة والخدمات المسلحة بوصفها أداة نقل او عربة طائرة ، اكثر مما هي مدفـع بعيد المدى . واول مثل لهذه الثورة هو هجوم المظليين على النروج في ١٩٤٠ ، وجزيرة كريت في ١٩٤١ ، وغزو النورماندي ومعركة نيميج ارنهيم في السنة ذاتها . فمحاولة قهر النرويج وكريت بمجرد القصف البسيط كان يمكن ان تستغرق اشهراً او اعواماً . ولكن مباغتتها بهجوم بقوى برية ، وقطعات محمولة جواً تحرسها المقنبلات ، يمكن ان تؤدي — كما ثبت ذلك بصورة قاطعة — الى فتحها ببضعة ايام او بضع ساعات .

الثورة الثانية — التموين بطريق الجو — كان انقلاباً ايضاً في عالم النقل . ففي نيسان ١٩٤٥ ، اثناء التقدم الأخير للقوات الانكليزية الاميركية في المانيا الوسطى ، كان من المستحيل ان تحتفظ القوى المدرعة بحركتها لولا النقل الجوي . كانت كل فرقة مدرعة تصرف يومياً (١٠٠,٠٠٠) جالون من البنزين وكانت الكمية الوسطية من البنزين المنقول بطريق الجو تقارب الـ (٥٠٠,٠٠٠) جالون يومياً . وفي نيسان نقـل (٤,٦٦٩,٤٦٥) جالون بواسطة (٢٠٠٠) طائرة تقريباً .

ومعركة برمانيا (١٩٤٤—١٩٤٥) هي مثـل يلفت الانتباه من أمثلة هذه الثورة في التموين . ولولا الطيران في الواقع ، لما امكن خوض هذه المعركة . كانت جولات الطيران الحليف للنقل الجوي في ١٩٤٤ لاتقل عن (٩٠,٠٠٠) جولة ، نقل فيها الى منطقة القتال مايزيد على (٢٧٠,٠٠٠) طناً من الحمولة ، واعيد بها (٦٠,٠٠٠) جريحاً ، ولم تتجاوز الخسارة طائرتين تصدى لها اليابان . ولم ينجح ذلك الا بفضل السيادة الجوية الحليفة الـــتي سهلت شل جميع طرق

المواصلات البريه اليابانية في آن واحد .

هذه المسائل المختلفة وما تتطلبه الحرب عادة درست من قبل المؤسسات الصناعية والفنية ، فأدى ذلك الى تقدم عام في التسلح يتطلب سنين عديد لتقنينه واحصائه . دخل ميادين المعركة منذ ١٩٣٩ اسلحة جديدة ، وادوات حديثة كالرادار . وادخلت تحسينات لاحصر لها على الطائرات والعتاد المضاد للجو ، وحرب الغواصات والعتاد المضاد للغواصات ، والمدرعات والاسلحة المضادة للدبابات . وربما كانت القنابل الطائره الالمانية والصواريخ هي اهم هذه المستحدثات ،لانهما وعلى الاخص الصواريخ قدضاعفامجال العمل Rayond'action مضاعفة لاحد لها ، في حين ان فاعليتها ونتائجها يمكن ان تصبح شاملة . وقد نتج عن ذلك أن العنصر البشري قد انخفض في الحرب الى ادنى حد .

ومن الغريب ان الصاروخ ، الذي يعتبر الآن من احدث الاسلحة ، هو في الواقع اقدم القذائف المتفجرة المسيرة ، اذ يعتقد أنه استعمل لاول مرة من قبل الصينيين ضد التتر في ١٢٣٢ م . وقد استعمل من قبل تيمورلنك في معركة دلهي الكبرى في ١٣٩٩ م ، وقد اخذ الزعيم الانكليزي السر ويليام كونغريف الاخصائي في المدفعية ، الصاروخ الذي استعمله سلطان الهند تيبو كنموذج وأدخل عليه بعض التحسينات . وقد ذكر في كتاباته انه صنع صواريخ من وزن خمسين غراماً « اي نوع من رصاص البنادق ذو الحركة الذاتية . » حتى وصل الى صنع صواريخ من وزن (١٥٠) كيلو غراماً . وقد جربت هذه الصواريخ اولا في حصار بولونيا (في فرنسا) سنه ١٨٠٦ ، « فما كانت تمضي عشر دقائق على اطلاقها ، حتى كانت النار تلتهم المدينه . » وقد تنبأ كونغريف « ان الصاروخ هو حقاً سلاح كتب له ان يغير اصول تعبئه العسكريه بكامله . »

هذه النبوءة من اهم النبوءات في التاريخ العسكري ، فمع ان الانكليز في سنه ١٨٨٥ قد رجعوا عن الصاروخ كسلاح ، كما رجعت عنه باقي الجيوش

الاوروبيه ، فقد تحققت النبوءة اليوم على ثلاثه اشكال مختلفه . كقذيفه قريبه المرمى ، وقذيفه بعيدة المرمى ، وكمحرك مسير .

وقد استعمل الصاروخ في شكله الاول ، في الجو والبر والبحر من قبل الطائرات كطائرات التيفون الانكليزية ، لانـــه يعطي ناراً كبيرة الحجم Une grande Puissance de feu دون ان يستدعي ذلك استعمال مدفع ثقيل . واستعمل هذا النوع من الصواريخ القريبة المرمى في البر بأشكال عديدة منها المدفع الصاروخي الاميركي المسمى بالبازوكا ، وقاذف الصواريخ العديدة الروسي (كاتيوشا) ، والمدفـــع الصاروخي الالماني ذو البكرة السداسية à sia bartllets ، الذي يطلق ستة صواريخ ، من وزن (٢٥) كغ لمسافة (٦٠٠٠) متراً .

وقد ثبتت اليوم اهمية الصاروخ كسلاح حربي ، وكانت نتائجه في مياه المحيط الهادي كبيرة مما حمل وزير البحرية الامريكية على التصريح في ١٣ كانون اول ١٩٤٤ بان انتاج الصواريخ ضوعف بنسبة ٣٠٠٪ فكانت الطائرات المجهزة بالصواريخ خلال عمليات المحيط الهادي بمثابة رماح للغزو Fer de lance وهي كسلاح للتغطيه Couverture ، قد اصبحت « عاملا حيويا في عمليات الانزال على السواحل التي كانت في يد العدو » .

لم تستعمل الصواريخ حتى الآن كقذيفة بعيدة المدى الا من قبل الالمان . ومع ان الصاروخ هو سلاح كبير الحجم يبلغ طوله ثلاثه عشر متراً ووزنه بين ١٢ و ١٥ طناً ، فاذا اعتبرنا انه لايزال في مرحلته التجريبيه المحضة ، إلا انه بالنسبة للمدى البالغ (٣٥٠) كيلو متراً وما دون ، اثبت انه سلاح هائل ، اذا اكتشف له وسيلة للدفع اكثر سهولة من الكحول ومولد الحموضه السائل ، اذن لأحدث ثورة في علم التعبئه .

وهو لايقل اهمية من حيث اعتباره وسيلة للدفع (١) ، فقد قطعت بعض

(١) Moyen de propulsion

نماذج من الطائرات المقاتلة ، المدفوعة بالصواريخ سرعة تفوق ٦٠٠ ميلا في الساعة وليس بغريب ان نتصور ان جيوشاً بأسرها قبل نهاية هذا القرن ستنقل عبر الفضاء لمئات من الكيلو مترات فوق سطح الارض لتنقض على خصومها بسرعة تبلغ آلاف الكيلو مترات في الساعة

انا نعيش في زمن خارق حقاً ، مليء بالا مكانيات الغريبة . فالحرب تصبح من يوم لآخر صراعاً بين المخترعين اكثر منها صراعاً بين الجنود ، الامر الذي يدعو الى البحث عن العبقرية المبدعة ، لابين اولئك الذين يخترعون اسلحة جديدة فحسب ، بل بين اولئك الذين يضعون طرقاً جديدة في تنظيم المعارك وترتيبها ، الذين يبتكرون اساطيل وجيوشاً جديدة بترتيبهم لادوات الحرب قديمها وحديثها ، حول السلاح المسيطر . فاذا كان بعض انواع الاختراعات تأتي من الخيال ، فالنوع الآخر يأتي من المحاكمة والمنطق . فالمرء الذي ادرك لاول مرة في التاريخ انه يستطيع ان يصنع سلاحــاً يهزم به عدوه المسلح برمح في المعركة اذا شد قطعة من الجلد الى طرفي عود من القصب ، وهو القوس ، كان ذا خيال خصب . اما من فكر لاول مرة باستعمال رماة النبل من الرماحة لكي يجعل قوتهم المجتمعة تتفوق على جهودهم الفردية فهو رجل عاقل .

ان غزو النورماندي في حزيران ١٩٤٤ هو مثل جدير بالملاحظة لهذا الشكل الاخير للفكر المبتكر . ولم يكن القصد من ذلك عبور المانش فحسب ، بل عبوره على جبهة عريضة وبنظام المعركة المنتشر ، وانزال جيش آلي باسرع وقت ممكن مع تجهيزاته واحتياطيه ومن ثم تموينه بعد انجاز عمليات الانزال بسرعة كبرى .

وقد كانت الصعوبات الرئيسية في هذه العمليات هي التالية :

آ) كان يستحيل الانتشار بترتيبات القتال لان الجنود المنقولين في البواخر المستعملة آنئذ كانوا عبارة عن ركاب لايستطيعون اتخاذ تشكيلات المعركة

قبل النزول الى البر ، ب) ولم يكن بالمستطاع نقل الحمولة مباشرة الى القطعات بل لابد من افراغ الحمولة في قوارب صغيرة لايصالها الى الساحل وهي مسألة هامة . ج) كان لابد من الاستيلاء على ميناء منظم ، ليمكن تموين قوات الغزو بانتظام . خلاصة القول كان الغزو من البحر عملية حربية صعبة التحقيق حيال عدو متربص لديه دفاعات ساحلية قوية .

لقد حلت هذه المسائل بما ابتكر من حلول ملائمة للصعوبات المذكورة ، وكان اهم هذه الحلول مايلي :

آ) بناء سفن انزال خاصة ، تتيح للجنود اجتياز البحر بتشكيلاتهم التعبوية ب) ابتكار طريقة لوقاية العربات والسيارات من ماء البحر المالح ، وقد اتاح لها ذلك ان تجتاز بنفسها المسافة الواقعة بين سفن الانزال الراسية والساحل ، ج) الصنع المسبق لموانيء الانزال المنقولة .

وبفضل هذه الابتكارات الثلاثة ، التي اتت على تحليل المسألة تحليلا جيداً ، تحت تغطية السلاح الرئيسي وهو الطائرة ، التي تعمل كواسطه المنقل وكمدفع طائر معاً ، لم يقتصر الامر على حل المشكلة على خير وجه ، بل ان هذا الحل أحدث ثورة في السوق والتعبئه البحرية .

أما في مسرح المحيط الهادي ، فقد كانت الامور تستدعي المزيد من الابتكار لتشعب المسألة الى ثلاث نقاط : الاحتفاظ بالتفوق البحري ، والحصول على التفوق في البر ، وتموين عدد كبير من السفن والآلات والرجال ، وقد استدعت الضرورة ايجاد اداة ثلاثية تتألف من اسطول حربي بحري ، وجيش بحري ، وقاعدة بحرية عائمة .

لقد تم التفوق البحري بواسطة حاملات الطائرات - وهي السلاح البعيد المدى - وكان ضمنها اعداد من السفن الصغيرة الساحلية المقطورة أو المنقولة على بواخر مرتبطة ببعضها . وتم التفوق البري بواسطة عدد كبير من سفن النقل ،

وسفن الانزال الخاصة ، وكانت الوسيلة الثـالثة تتألف من سفن مختلفة اكثرها حديث عهد بالبحر . وقد كان من بينهـا حاملات الطائرات الحارسة ، وسفن تموين الطائرات ، والرحبات والمصانع العائمة ، وزارعات الالغام ، والمموّنات ، وناقلات البترول ، وناقلات الذخيرة ، وسفن الصهاريج ، والمستودعـــات ، والبرادات ، والمشافي وقوارب الانقاذ ، وقوارب التسلية .

كانت هذه الوسائل الكبيرة المدد ، التي جمعت قوى الجو والبحر والبر ، عملياً ابداعياً أكثر من اختراعاً . وهو نتـاج عدد لانهـــاية له من الادمغة المفكرة والايدي العاملة يقتضى أن يتعهده عدد كبير من الفنيين والمهندسين والميكانيكيين والعمال .

بهذا السلاح المشكل من ملايين الاجزاء المختلفة ، التي تعمل ككل واحد يغذيها البترول نرى التسلح يقطع مرحلة الادوات ليدخل في عصر الآلة والفنون الصناعية ، وما لهذا العصر من أثر في التاريخ والحضارة .

احتل التسلح المكان الاول بين منتجات عصر النفط . ولم يسبق في عصور التـاريخ المـاضية أن عكف المرء بمثل هذا الاهتمام على وسائل الدمار . ولقد فاقت المبـــالغ التي أنفقت على الحروب منذ بداية هذا العصر جميع ما انفق في هذا السبيل خلال العصور الاخرى مجتمعة . كان الجهد الذي بذل عظيم والدمار الذي احدث لايحصى ، ولا يمكننا أن نأخذ فكرة عن أثر التسلح في عصرنا هذا الا اذا تصورنا ما كان ينتج عن هذه المبالغ وهذه الجهود فيما لو وجهت للبناء بدل الهدم .

واذا كانت قوى التدمير هذه قد ازدادت ، فإن تطور الاسلحة لم ينحرف عن الطريق الذي سار عليه منذ فجر التاريخ ، فما زال الانسان اليوم كما كان في الامس يبحث عن تحسين الاسلحة بمضاعفة مداها ، وقوتها ، ودقتها ، وحجم نارها ، وسهولة استعمالها . أو بتعبير أدق طريقة جرها الآلي . والفارق الاساسي

الوحيد بين تطورها الحالي وتطورها السابق ، هو أن هذا التطور قد أصبح اليوم علمياً بينما كان في الماضي وليد المصادفة .

واذا كانت الابحــاث العسكرية اليوم تخضع للتوجيه ذاته الذي تخضع له الابحاث الصناعية فمما لا ريب فيه ان التقدم الذي سيحرزه التسلح سيكون كبيراً ، وسيكون له أثر عظيم على الصناعة المدنية . وهذا ما لاحظه المستشار الفني لمعامل دوبون الاميركية في مؤتمر الصناعات الكيماوية الاميركية فقــال : « تؤدي الحرب خلال اشهر عديدة الى تقدم علمي قد يتطلب تحقيقه مدى نصف قرن لولا ضرورات الحرب . وينتج عن هذا التقدم ان للصناعة تستطيع بنهاية الحرب صنع عــــدد كبير من المنتجات الكيماوية وباقي المواد الاولية الاخرى على مقياس واسع كان يصعب تصوره قبل سنتين . »

وهذه هي الخاصة الرئيسية التي تميزت بها الثورة التي حدثت في التسلح . التي يجب البحث عنها في ذلك الاندفاع الهام الذي تركه التدمير في الانتاج . وهذا ماجرى في الولايات المتحدة ، فقد انسحب (١٥) مليون عـــامل من الصناعة المدنية لينضموا الى الجيش .

وبانتهاء الحرب لا يعود لزوم لاستخدام هذا العدد الكبير في انتاج الدمار، وتعود قضية استخدامهم في انتاج السلع النافعة الى بساط البحث فإذا أريد الحد من البطالة وجب مضاعفة الاستهلاك ثلاثة اضعاف . واذا تعذر ذلك ،مع التسليم بأن الاسواق الخارجية ان هي الا منافذ موقتة (لان البضائع المصدرة لابد أن يسدد ثمنهـا عاجلا او آجلا بما يقابلها من السلع المستوردة الامر الذي يؤول الى خفض اليد العـاملة التي تنتج للسوق الداخلية) ، وأن ينضم هؤلاء الـ (١٥) مليونا من الرجال الى صفوف العمال العاطلين عن العمل ، أو يبقوا في الجيش الذي يصبح ملجأ واسعاً للفاقة .

وهذا ينطبق عملياً على جميع البلاد محاربة أم لا ، اذ أن الحصــار الكوني

الناتج عن الحرب قد حث على التقدم الصناعي الآلي في هذه الدول غير المحاربة وأصبح هذا التقدم عندها لا يقل أهمية عمـــا هو عليه لدى الدول المحاربة . لذا يمكن توقع ازدياد عام لديها من قوام الجيش للحد من البطالة . خلاصة القول كلما ازداد تقدم الفنون الصناعية ، ازداد بالمقابل تقدم النظم السياسية العسكرية .

وهكذا فان الحرب تصبح العامل المحرك للحضارات الفنية الصناعية . وبما ان هدف الآلة في الصناعات الآلية ليس هو الانتاج فحسب ، بل الانتاج مع تقليل اهمية اليد العاملة البشرية ، لذا فإن الحرب هي احد العوامل الجوهرية في حيوية مثل هذه الحضارة : فالتمهيد للحرب يستوعب كثيراً من الايدي العاملة ، وهي بذاتهـا تهيء عملا للعاطلين بضمهم الى الجيوش التي يفني بعضهـا بعضاً . ثم إنها بالنهاية بعد ان تخرب بلاداً بكاملها وتدع مدنهـا قاعاً صفصفاً ، تخلق بصورة آلية طلباً لليد العاملة في اللحظة التي تضع فيها اوزارها .

هذا تبدو الحرب كأنها علاج للبطالة ، اي حائل دون الفوضى الداخلية ، بدلا من ان تكون حامية للعمل (والحياة المنظمة) من الاعتداءات الخارجية . وهذا الفارق هو الذي احل قضايا الانتاج الحربي المكان الاول في حضارتنا . فخضوع الصناعة لمقتضيات الحرب في ايامنا هذه هو أمر أهم بكثير بالنسبة لنظامنا الاقتصـادي من تبعية الحرب للصناعة . وبمـا ان الحرب هي الطريقة الوحيدة لامتصـاص فيض الانتاج في نظـام اقتصادي يسيطر عليه استهلاك ضعيف ، فالتنظيم العسكري لدول بكاملهـا في زمن السلم أصبح أمراً جوهرياً لا ليكون الاستعداد للحرب تاماً ، بل لحفظ الأمن الداخلي .

بهـذا نصل الى مفهوم الدولة المحاربة ، التي تختلف اختلافاً كلياً عن الامة لمعبأة . فبينما لا تعد والثانية أن تكون الشكل العسكري للنظـــام الشيوعي (الاشتراكي) ، هذا الشكل الذي قال به منذ زمن طويل هربرت سبنسر ، والذي سيؤدي لا محالة كما يقول الى تشكيل جماعات عسكرية منظمة في سبيل حرب دائمة ، نرى أن وجود الاولى « الامة المحـاربة » يستدعي أن يكون

خطر الحرب دائم التهديد ، فالامر كما يقول والتر ليبمان « لا يوجد سوى هدف واحد يمكن توجيه الامة بأسرها نحوه بعزم واجماع ، وهذا الهدف هو الحرب ، ولا يوجد هدف آخر سواه . » بالاحرى أنه اذا لم يكن للبلاد عدو ، فلا بد أن نخلق لها عدواً ما .

هذا ماحصل في روسيا السوفياتية والمانيا بعد الحرب الكونية الاولى . فلكي ينظم هذان البلدان دولتيهما باتجاه حربي شامل وفقاً للدروس الاربعة العليا التي لقنتها الحرب لها ، فقد اقنعت احداهما شعبها بأن تحطيم الشيوعية هو رائد جميع الدول الرأسمالية ، وذهبت الاخرى الى أن تحطيم الريخ الثالث هو هدف الشيوعية ، واليهودية ، والسياسة المالية الدولية .

هذا الخوف هو الذي اتاح لهاتين القوتين الكبيرتين أن تصبحا دولاً حربية ذات حكم مطلق ، ومع ان هدف الحلفاء في الحرب العالمية الثانية كان تحطيم الوضع الحربي بشكله الفاشي أو الوطني الاشتراكي ، الا أن كلا من الولايات المتحدة وبريطانيا قد ازداد فيها شكل الحكم المطلق ؛ اذ كان لزاماً عليهما لكي تستطيعا محاربة العدو بسلاحه ، أن تتبنيا تدابير مطلقة مماثلة . وبانتهاء الحرب لم يكن لتلكما الدولتين من مندوحة من الابقاء على عدد من هذه التدابير الدكتاتورية ، إن لم نقل بزيادتها ، لا لان البطالة قد جعلتها ضرورية ؛ بل لاستحالة البقاء بدون هذه التدابير الى جانب الاتحاد السوفييتي ، أو منافسته هو والدول السائرة في ركابه .

وهكذا نرى هناك حلقة مفرغة : فاستخدام الآلة يؤدي الى البطالة ، وهذه تؤدي الى مضاعفة القوة العسكرية ، والقوة العسكرية تتطلب عدواً لكي تبرر وجودها وبقاءها : والسياسة تخلق هذا العدو ، ثم تأتي الحرب تبعاً لخطة مدروسة . فتحل في لحظة ما مسألة البطالة .

وسيبقى تسلسل الحوادث هذا أمراً لا محيص منه ما دام أمر الحرب

والسلم رهينان بالآلة . وقد قال لويس مامفور « بينما نرى الاداة تدار باليد ، نرى الآلة تتطلب « عملا » أوتوماتيكياً » وإذا ترجمنا قوله هذا بتعابير سياسية، رأيناه يقصد من قوله أن الاداة هي ديموقراطية بذاتهـــا ، في حين أن الآلة شيوعية . فالفكرة والحذق الفرديان هما أمر جوهري في الحضـارة التي تقوم على الاداة ، والجهد الجماعي هو الاساس الجوهري للحضارة التي تقوم على الآلة . وكما هو الحال في الجيش مثلا ، إذ لايكفي أن يندمج الفرد في المخطط العـام ، بل يجب أن يخضع الجميع لارادة واحدة بعينها . فالحضارة التي تسود فيهـا الفنية الصناعية تتطلب دولة محاربة ، وهذه بدورهـا تتطلب سلطة مركزية . فدولة كهذه تكون دكتاتورية لا ديموقراطية ، أي ليست حرة على كل حال .

وقد لخص مامفور الوجه المعنوي للقضية بقوله : « ..... الحرب هي حدث مخيف في المجتمع الذي اصبح تطوره الآلي تاماً ...... فالحرب تحرر الذي يخوضون المعركة من بواعث الانانية القذرة ، ومن السعي وراء الربح الذي يسود الأعمال في أشكالهـا الرئيسية ، بما في ذلك الألعاب الرياضية ، فالاعمال في الحرب ترتفع الى مرتبة الدراما ... فالموت والتشويه الجسدي يعطى الدراما صفة التضحية التي تتجلى في المـآسي ، تلك التضحية التي هي أساس الطقوس الدينية البدائية ، ففيهـــا (أي الحرب) يقدس الجهد ويبلغ أشده لما للتضحيات والقرابين من قيمة كبرى ، فالحرب تشجع الى حـــد كبير تلك الشعوب التي فقدت قيمة لديانه ، وأصبحت لاتقيم لهـا وزناً ، ولا تفهم من رموزها واسرارها شيئاً ، تشجعها على ترك طريق الدين والعودة الى العقائد البدائية والمذاهب الخرافية . فإذا لم يوجد لهذه الشعوب عدو ، فإنها تخلق لنفسها عدواً لـــكي يتم هذا التطور المعنوي المذكور .

« هـكذا تحطم الحرب الركود في المجتمع الآلي وتحرره من تفاهة جهوده اليومية الصغيرة الشأن ، بتركيزها الشديد لآلية وسائل الانتـــاج وردالفعل القوي للحيوية المستعادة . فالحرب تتيح التفتح للميول المعنة في البدائية ، وهي

تؤله الآلة في الوقت نفسه . فالهمجية البدائية والدقة الآلية تتحدان معا في الحرب الحديثة .

« ... وما دامت الآلة هي الحاكم المطلق في هذا المجتمع ، فالحرب بالنسبة لهذا المجتمع هي مجموع قيمة وتعويضاته ، لأن الحرب تعيد الناس الى حظيرة الواقع ، وتدفع القوة للكفاح ضد عناصر الطبيعة الجبارة ، وتطلق القوى الوحشية من عقالها ، وتزيل الحواجز التي تفرضها الحياة الاجتماعية ، وتتيح للعودة الى الافكار والبواعث البدائية ... فهي حل مدمر لتوتر شديد ، ولنزاع غير محتمل بين النزعات الحيوانية من جهة ، والقانون والظروف التي تحول دون اشباع هذه النزعات من جهة اخرى .

« فالمجتمع الذي فقد الحس بقيم الحيــاة يميل الى اعتناق ديانة الموت ويقيم لها عبادة خاصة ، وهي عبادة لاتقل طمأنة عن العبادة القديمة لأنها تشبع هــذا العدد الذي يتزايد باستمرار من مرضى الاعصاب المصابين بجنون الكبرياء والعظمة والأنانية ، بالمتع والملذات الحسية الجسدية العنيفة التي هي نتيجة لازمة للمجتمع الفاسد المنحل . »

هذه العودة الروحية الى القرون الوسطى تؤدي على طريقتها الى وضع اسس اقطاعية جديدة . باديء ذي بدء بإحالتها الجماعات الى طبقة من (البروليتاريا المستعبدة) ، وثانياً برفعها الدولة كحاكم مطلق ببيروقراطيتها التي تمثل النبلاء . لنلق نظرة على مايجري اليوم ونقارنه مــع ما قاله بواسونات عن اقطــاعية القرون الوسطى :

« كانت الطبقة الاقطاعية تقوم باسم الحماية التي تقدمهــا للجماهير ، بتكبيل الرجــال بالقيود الى الأرض ، مدعية لنفسها الحق بتنظيم جميع فاعليــاتهم ونشاطهم ، مقسمة ثمرات جهودهم كما يحلو ويطيب لهــا هي ، مثقلة هذه الجماهير بــكابوس سلطتها التعسفية المستبدة ، مع ما كانت تراه من ضرورة منحها حداً ادنى من المنافع المادية .

واليوم ، سعياً وراء ازالة الفوارق الطبقية تهدف الاشتراكية الشيوعية الى خلق طبقة من البروليتاريا (العبيد) برفعها الدولة وجعلها قوة نقدية عليا ، وهي التي تخلق وتبيد القيم المالية . والدولة تحتل في هذا النظام المكان الذي كان يحتله البابوات في القرون الوسطى ، وهم الخالقون والمبيدون للقيم الروحيه ، وتكون النتيجة أن يقوم ما سنسميه بسلطة النقد الفردية .

والضرائب هي العوامل الرئيسية في هذا التطور ، إذ غاية الضرائب هي خلق المساواة في توزيع العملة النقدية لدك قوة الاغنياء وسلطاتهم فيمكن تشبيه الضريبة « بحصار » الطبقات الغنية ، وكما في الحصارات المتبادلة فإنه وان كان أثرها يبدو في كل مكان ، الا ان نتائجها تتطلب وقتاً طويلا للظهور . وهنا تأتي الحرب لتساعد على ظهور النتائج ، فهي لا تستثير الضرائب الثقيلة فحسب بل تأخذ على عاتقها عملية خفض المستوى العالي لتقريب بين الطبقات وهي تفعل ذلك اليوم اكثر منها فيما مضى بسبب سعة نطاقها وقوة هجماتها الجوية المدمرة .

فالحرب بتدمير المراكز الصناعية ومدن العدو ، تهبط بالسكان الى مستوى واحد من الفاقة والبؤس ، وحتى لو تم اصلاح ماحدث من خراب ودمار ، كما سنرى بعد قليل ، الا انها تترك جواً من الشيوعية المعنوية والفكرية التي تترك أثراً عميقاً في مجتمع المستقبل .

« والمدينة هي المركز الرئيسي الذي تتركز فيه قوة المجموع وثقافته في اقصى حدود هذه القوة والثقافة ... والمدن هي من نتاج الزمن . وهي البوتقات التي تسكب فيها حياة الرجال . ففي المدينة ترى آثار الزمان والعصور المتعاقبة رأى العين ، فالمباني المشيدة والآثار الشامخة تترك طابعها في روح الجميع وافكارهم أكثر مما تتركه السجلات ، ولا ينجو من ذلك الجهلاء واللامبالين ... والمدينة بفضل كثرة مبانيها التي تمثل مختلف العصور فهي لا تخضع في كليتها الى

سيطرة الحاضر ... وحياة المدينة تشبه في خصائصها السمفونية الغنية بالألحان الرفيعة الممتزجة ببعضها .... حتى ولو أخذنا المفردات اللغوية بعين الاعتبار على انهـــا من اعظم ما ابدعه الانسان ، وإلا أن المدينة هي أعظم أثر فني أبدعته البشرية . »

فالمدينة هي التـاريخ مكتوبا بالقرميد والحجارة . فنحن في أنفسنـا نتاثر بمدننـــا ، فحياتنا اللاشعورية هي التاريخ الحي الناطق المطبوع على غرار تاريخ الحجـارة والآثار التي نعيش بين ظهرانيها . ثم تأتي القنبلة في بضع ثوان واذا بآثار الأجيـــال الغابرة قاعاً صفصفاً كأن لم تغن بالأمس .

أي أثر سيتركه هذا الحدث في التاريخ ، وفي الحضارة والمستقبل ، وفي نمط الحيـــاة الذي سيحياه الانسان بعد أن وضعت الحرب الكونية الثانية اوزارها وعاد الناس الى بناء ماهدمته يد الدمار ؟ لاشك بأن سكان المدن الجديدة سيختلفون في طباعهم عنا ، لان مدنهم ستتخذ المجانسة طابعاً لها ، لان السمفونيا الغنية بالالحان المختلفة قد تلاشت من الوجود .

ولو أعدنا الى الذاكرة ذلك الدمار والخراب الذي أحدثه الرجل الغربي وتأملناه لوجدنا أننا كنا نقتتل في سبيل اشياء تقدمها لنا مدننا عن طيب خاطر ، الا وهي الحرية ، والديموقراطية والحكومة البرلمانية ، والتجارة والثروة . فتدمير المدن يقضي في الوقت نفسه على كل هذه الحقائق قضـــاء لايجدى معه تفكير المفكرين ولا يستطيع تلافي شره .

لنضرب على ذلك مثلا برلين وهامبورغ وكولونيا ، تلك المدن الكبرى الكثيفة السكان كانت الاولى في الاصل قرية سلافيـة ، والثانية كانت في البدء قلعة من قلاع سلالة شارلمان ، وكانت الثالثة مستعمرة رومانية ، ـ ومن هنا أتى اسمها ـ اسسها الامبراطور كلود . فما اشبه هذه المدن بالنبات الذي ينمو بالتدريج : اما الآن فان القسم الاكبر من هذه المدن يتطلب اعادة بنائه عدة

سنوات . وهي ستبنى وفقاً لمخططات دقيقة ، ولكنها متجانسة ، لأن المهندسين المعماريين الذين سيشرفون على بنائها هم من ابناء هـذا الجيل ، لذا فان ميولهم الهندسية مطبوعة بطابع العصر . وستتخذ مدنهم سيماء الضرورة والمنفعة المتأثرة بمبدأ الشيوع . فهي خلايا بشرية اشبه بخلايا النحل اكثر منها مساكن ، للسرعة في بنائها لايواء السكان الذين اصبحوا يشبهون النحل في طبائعهم فافكارهم المنسوجة على غرار واحد ، فعالة في انتاجها ولكنها لاروح فيها ، اذ لاماضي لها .

لايمكن اعادة بناء هذه المدن على نمط ديموقراطي او فردي . بل تحت تأثير الاستبداد وبأيد عاملة مستعبدة . إن فضيلة الديموقراطية هي الروية والتمهل : فهي تعمل وهي تناقش وتجادل . ولكن عندما يكون الموضوع ايواء الملايين من الناس الذين أصبحوا بلا مأوى ، وتشييد آلاف المعامل في فترة قصيرة من الزمن ، فالعمل هو المطلوب فحسب اما النقاش والجدل فينقطع بتهديد السلاح . لان العمل المنجز بروية واناة خلال العصور السالفة يجب اعادته خلال عصر واحد بجهد وعنت وعرق متصبب . وهذا يعيد بناء الاهرامات سيرتها الاولى تحت فرقعة السياط التي ترن في ارجاء اوربا .

وهكذا كان ان اكتشاف الطائرة غير تغييراً تاماً الحياة السياسية ، والمالية ، والاقتصادية والاجتماعية في الغرب . وبقدر مايبدو هـذا الامر غريباً ، فاننا نرى من يوم لآخر كيف تدفن هذه الأشياء التي نحارب من اجلها بين الانقاض والغبار الذي احدثته هذه الوسائل الحربية التي كان ينبغي ، أن تحرر الدول وتضمن لنا الحرية الى الابد . هـذا هو اذن الاثر الاكبر للتسلح في حياتنا : لقد اعادنا الى عبودية القرون الوسطى .

نتج عن هـذه « الغزوات البربرية » ان أخذت تتشكل اقطاعية جديدة : فاذا سلمنا ان طبقة البروليتاريا الحديثة ، او بروليتاريا القرون الوسطى ، زراعية او صناعية لاتستطيع أن تحكم نفسها ، فان السلطة تنتقل لأيدي اولئك الذين

يديرون القوى الطبيعية والنفسية . وقد كان الفرسان المدرعة يحمون هؤلاء في الماضي ، ويبدو أن الآلات المدرعة هي التي ستحميهم في المستقبل هذه الآلات التي لايستطيع مقاومتها شيء والتي لايفعل غضب الشعب امامها شيئاً . واذا تحقق هذا الامر ، فالدرع سيصبح بعد خمسمائة سنة النقطة المركزية في النظام الاجتماعي .

هذا الميل نحو الحكم الفردي المطلق لايبدو داخل الدول فحسب بل في مجموعات الدول . وقد لاحظ آدم سميث سنة ١٧٧٦ أن « الدول المثرية والمتحضرة ـ المائعة ـ كانت في الماضي تجد صعوبة في دفع عدوان الدول الفقيرة البربرية ـ الخشنة ـ عنها ، في حين ان البلدان الفقيرة البربرية تملك دفع عدوان الدول المتمدينة عنها » . وتبقى هذه الملاحظة صحيحة اذا استبدلنا كلمة « مصنعة » أوغير « مصنعة » بكلمتي « مائعة » و « خشنة » ، وقد ذكر كوينسي رايت بهذ الصدد أن « الدول التي تخصصت بالفنون الصناعية العسكرية الحديثة اصبحت ذات تفوق كاسح على الدول الأخرى التي هي أقل خبرة في هذا الموضوع . » وسيؤدي هذا الامر الى ابتلاع الدول الكبرى للدول الصغرى . وقد ظهرت بوادر ذلك في اوربا الشرقية . فبولونيا ودول البلطيق والبلقان ، تعاني نقصاً كبيراً في الموارد الضرورية للحرب الآلية ، لذا فهي توشك ان تذوب في الاتحاد السوفياتي لا لتزيد في عدد السوفييت فحسب ، بل لحرمان اوربا من القوى التي تسمح لها بمحاربة روسيا السوفييتية . وهكذا فان الدول الكبرى لاتسعى اليوم لاقامة حدود منيعة لايمكن تخطيها ، بل تهدف الى مضاعفة الموارد الضرورية للحرب : كالمناجم ، وآبار البترول ، والفحم ... وهنا يجب أن نرى المعنى الحقيقي للمجال الحيوي (١) .

قال كولبيرتسون في هذا الموضوع إن « طبيعة الآلات الحربيـــة الحديثة

---

(١) Lebensraum

والكمية الكبرى التي يجب توفرها من هذه الآلات جعلت الدول الصناعية الكبرى بحاجة الى موارد قارة بكاملها من هذه لتستطيع الدخول في حرب ظافرة . ولأول مرة في التاريخ ، أخذت الدول تقتتل على السلاح بدلاً من ان تقتتل على الاسلاب والغنائم . كان الناس يقاتل بعضهم بعضاً منذ الازمنة الممعنة في القدم ، ولم تكن الأسلحة سوى اشياء ثانوية في هذه المعارك . اما في هذه الحرب والحروب التي ستأتي في المستقبل ، فالآلات هي التي ستقتتل ، وما الرجال الا مساعدون لهذه الآلات . وستعمل جماعات كبرى « آلية » من العمال والجنود تحت اشراف رؤسائها في انتاج واستعمال عدد كبير من الأسلحة المدمرة . وستبنى السوقية العسكرية والسوقية الاقتصادية والسياسية حول هذه الواقعة الرياضية وهي ان النصر سيكون للوزن الأثقل من المعادن المنظمة والمنتجات الكيميائية . الا اذا حدثت ثورة فنية وتدخلت في التفريق بين هذه الآلات الملتحمة في القتال ، وفيما عدا هذه الحالة فان الحرب لاتكون سوى حادثة ثانوية في هذا الصراع الدائم لاحتكار الاسلحة الثقيلة .

والظافر في النهاية هو الذي سيسيطر على العالم .

لقد لاحظنا هذه الظاهرة نفسها في دراستنا لتطور الاقطاعية في الفصل الثالث . لقد كانت الدروع تقتتل ، وكان الرجال بمثابة مساعدين لها ، وكانت بعثات النورمان غالباً تخصص للحصول على السلاح ، وقد منع شارلمان مراراً عديدة الاتجار بالدروع لكي يحتفظ بها في بلاده . كانت الشجاعة هي الدافع الرئيسي في ذلك العهد . اما الآن فالقوة النقدية هي الدافع الرئيسي . لقد أدت الشجاعة الى مرحلة كانت الحروب تسمى فيها « صليبية » ، وهي ظاهرة فكرية روحية سامية بدت بين سني ١٠٩٥ و ١٢٠٤ اما الآن فقد قادتنا العملة النقدية الى فترة حروبها الصليبية اقتصادية يمكن ان تستمر زمناً طويلا اذا استعضنا بسنة ١٩١٤ عن ١٠٩٥ .

ولو تأملنا هذا الوضع المحزن لادركنا بوضوح نقطتين : كانت بساطة تنظيم الجيوش في الازمنة القديمة تشبه مرحلة العمال اليدويين في الصناعة ، ويغلب ان ينتهي اكتشاف سلاح قوي جديد بنتائج حاسمة . اما الآن فان التنظيم العسكري يسير على هدي التقدم الصناعي ، لذا فان الحقل الذي تترك فيـــه مثل هذه الاختراعات نتائج حاسمة اخذ يضيق بالتدريج .

يمكن القول ان اكتشاف الرادار في بداية الحرب الكونية الثانية كان ذا أثر حاسم على الدفاع الجوي البريطاني . ولكن القذيفة الطائرة فيما بعد ، رغم ما فاعليتها ، لم تكن ذات اثر حاسم لان الوقت لم يتسع لجعلها أداة قوية : لذا فهي في نفسها لاتعدو ان تكون سلاحاً لايختلف بكثير عن باقي الاسلحة .

فالنتيجة التي نصل اليها هي أن المخترعات لابد لكي تؤدي خدمات قصوى من أن توحي بها قضايا الحرب ، لافي الوقت الذي تطرح فيه هذه القضايا على بساط البحث ، بل قبل ذلك بوقت طويل بالتنبؤ والافتراض . او بعبارة اخرى بفضل التأمل والتفكير الناضج ، لا كما يحـدث غالباً ، بحدس مفاجيء . وهذا لايعني ان اشراف الافكار بالحدس ، كتلك التي اتاحت استعمال البارود في تسيير القذائف او استعمال ملح الزئبق كصاعق ، قد اضاعت من قيمتها ، بل يعني أن هذه الافكار التي تشرق على الفكر يجب وضعها موضع التطبيق بتأثير القضايا الحربية لابمجرد الهام مفاجيء فحسب .

وهذا يعني ان كل قضية حربية كبرى اذا كان حلهـا يمكن ان يتم بسرعة واقتصاد اكثر بواسطة أداة وضعت خصيصاً لهذه الغاية ، فاليوم الذي سينتهي فيه أمر « الجيوش غير المختصة » أضحى قريباً ، اذ أن جيوشاً غير مختصة كهذه تكون غالباً مستكنة ومحافظة ، فلا فائدة منها في عصر يسوده التقدم العلمي . فاذا كان الجيش معداً لأداء جميع المهام على اختلافها ، فحري به ان لايتفوق بمهمة ما : ان كل جديد يخيفها لأنه يهزها من غفوتها .

ان خلق جيش اختصاصي تقتضي اولا وجود طراز جديد من هيئة الاركان العامة التي تشبه ادارة مشروع ضخم ، فهي لاتنشغل باعاشة الجيش وانضباطه فحسب ، بل اول مايشغلها هو مهنتها الحقيقية ، وهي لهذا تطلب من شعبها ان تكون على اطلاع تام على مجرى الأمور . فتضطلع فئة خاصة من هذه الاركان بكل قضية خاصة ، وتعيد النظر بها بصورة دائمة على ضوء التقدم الصناعي والعلمي، وتطلع المخترعين بصورة دائمة على النوع الخاص من الاسلحة او الوسائل التي تطلب صنعها .

ولو أن « دماغاً » حربياً تحليليا كهذا وجد في بريطانيا سنة ١٩١٩،لحال ذلك دون الغاء نواة الجيش الآلي التي كانت آنئذ في طور التشكيل ، ولأدى ذلك الى تغيير مجرى الحرب . ولو كان لدى الالمان جهاز كهذا الجهاز قبل الحرب ، لكانت أدركت أن الاستيلاء على أوربا ليس في الاساس قضية برية ، بل قضية بحرية ، لان مثل هذا الاستيلاء لايمكن أن يكون تاماً إذا لم يتم عبور المانش بنجاح . فالدخول في الحرب قبل تهيئة العناصر التي تتيح عبور المانش هو مجازفة غير مأمونة النتائج . لذا لم تغلب انكلترا ونتج عن ذلك ان البلاد التي اجتاحها الالمان اصبحت عبئاً جديداً عليها .

ومن جهة أخرى لو أن الالمان كان لديهم هذا النوع من الاركان العامة التي ذكرتها – أي جهاز فني وتعبوي معاً – لكانوا فطنوا الى أن بلاداً شاسعة كروسيا ذات طرق مواصلات غير صالحة ، لابد أن تكون قضية التموين في سهولها الفسيحة هي القضية الحاسمة فاذا تعذر حلها ، لايعني زيادة القوى المدرعة لانها تكون مقيدة بالطرق .

كان ينبغي أن تكون الفكرة الرئيسية لدى المخترعين هي مدى عمل (Rayon d'action) الاسلحة المسيطرة : وهي الطائرة والدبابة .

فمدى العمل في البر هو من نصيب الدبابة ،وعلى البحر من نصيب الطائرة .

وذلك أن الهدف الرئيسي للسلاح في البر هو ان يتيح لمن يملكه احتلال مكان ما ، أو حرمان العدو من هذا المكان ، اما هذا الهدف الرئيسي في البحر فهو تدمير المكان الذي يقاتل منه العدو أي باخرته ، أو ارغامه على الاستسلام . فبينما الباخرة الحربية هي آلة مدرعة تقذف منها القذائف والقنابل والصواريخ ، والطائرات التي تنطلق من سطحها ليست سوى امتداد لمدى عملها ، فإن الدبابة هي آلة مدرعة تقلص بحركاتها وحجم نارها المكان الذي يحارب منه العدو ، الى أن يصبح هذا المكان غير كاف له .

كان المبدأ الاكبر خلال الحرب هو صهر جميع القوى المقاتلة من اسلحة وخدمات . ولا يمكن ادراك الغاية القصوى في البر الا اذا وحد العمل بين القوى الجوية والبرية .

كما ان الاسطول في البحر لا يمكن ان يكون اداة حربية فعالة اذا لم يوحد العمل بينه وبين الطيران . فلا يكفي ان تتعاون هذه الاسلحة ، بل ان مبدأ الدمج بينها هو العامل الجوهري في المعارك ، كما هو العامل الرئيسي في التنظيم والاختراع ، اختراع اجهزة جديدة من أسلحة وآلات .

وهذه الاجهزة تتطلب بدورها صناعات هامة لصيانتها والعناية بها ، بحيث تقوم هذه الصناعات خصيصاً من اجل الحرب ، لأن تحول الى الانتاج الحربي بعد بدء النزاع ، لان الازدياد المستمر لمدى عمل الطائرات والقذائف الآلية يعرقل الحشد العام . وقد برهن الهجوم الياباني على بيرل هاربور بوضوح على ذلك ، هذا الهجوم الذي سيصبح مثلاً كلاسيكياً لاعلان الحروب في المستقبل . فيجب أن تقف القوى المقاتلة على اهبة الاستعداد لخوض المعركة ، كوحدات المطافيء ، او فرسان القرون الوسطى اذ يكفي أن يقرع الطبل حتى تنتصب للقتال .

وكما ان المثل الاعلى بالنسبة للمسيحية هو الكفاح الروحي الخالد في ظل الحرب ، فكذلك الواقع ، فهو صراع طبيعي خالد ، لاعودة الى البربرية فحسب بل

رجوع الى الحيوانية في شكلهـــا الوحشي كما تصورها داروين . فمن جهة سلطة روحية مطلقة ، وتعبئة روحية واقامة ادوات دعاية روحية واسعة النطاق . ومن جهة اخرى سلطة عسكرية مطلقة ، وتعبئة عسكرية مع اقامه ادوات واسعة للدعاية العسكرية .

وكما نشأ عن الاقطاعية القديمه حصون وقلاع ومدن محصنة لحماية المسيحية من غارات البرابرة المفاجئة ، فقد دخلت الاقطاعية الحـــديثة الملاجيء تحت الارض وانشئت معامل بكاملهـــا تحت الارض لحمايتها من الهجمات الجوية . وهكذا كلما اتسع هذا العهد الحربي ، فنحن على وشك أن نرى المدن الكبرى والمراكز الصناعية الكبرى وقد اصبحت مزدوجة : فالمساكن العادية تمثل مؤسسات عهد السلم ، والمباني تحت الارض تمثل عهد الحرب ، وسكانها يشبهون الفأر والارانب ، فلهم جحورهم التي يجدون فيها الامن والدعة حال انسحابهم اليها ، وحيث يمكن للعمل أن يستمر بدون انقطاع .

وقد يتساءل المرء هل أن رجال العالم بأسره ونساءه يتغاضون عن هذا الحد من حربتهم وهنائهم . وانا اعتقد بأنهم يطيقون كل شيء متى اوقظت غرائزهم الفطرية .

فقد رأينا الطرق التي سلكتها الدول الدكتاتورية في الحرب ، وأساليب دعايتها وكيف أن الدول الحرة قد تبنت هذه الطرق ذاتها في حربهـــا مـــع الاولى .

إن قيمة المرء بتفكيره ، والمرء في الدول ذات الحـــكم المطلق يفكر بالصورة التي تقررها له حكومته . والدعـاية « هي « سيد الاسلحة » في هذه الاقطاعية الحديثة ، كما كانت سيد اسلحة الاقطاعية القديمة ؛ وهي في يومنا هذا فكريا واخلاقيـاً سلاح يحطم كل شيء . وكما أن النفط ضروري للآلات الحربية ، فالكذب لازم ايضـــاً لحمل الناس على خوض الحرب . وهكذا فقد انقلبت تلك الحكمة الســـامية القـائلة أن « الحقيقة تحرر الانســـان »

واصبحت « الكذب يحملك على القتـــال » . فالحرب كما يقـــول براندیس « تؤول الى قتل الحقيقة » و «هدف الدعاية أيام الحرب » كما يقول فيرنك « هو أن يشع البصر بالحقد والبغضاء ، اذ لادعاية بدون عداوة وبغضاء . اعطني شيئاً أكرهه ، لانظم لك في اربع وعشرين ساعة حملة دعاية شعواء . »

« فالتفرقة التي توجـد في قلب الجماعات » كما يقول كولبرتسون « أسبابها الأولى هو الأفكار المشوهة التي تلقن لهم عن الوقائع والأمور ، فهذه المعلومات المشوهة هي أشد افساداً للافكار واساءة لها من الجهل ، لأنها معلومات زائفـة ملفقة . ولقد سار ملايين الرجال يلهبهم الحماس ، نحو موت لامجد فيه . »

وسواء أكان الأمر من قبيل المصادفة أم لا ، فمن الثابت أن التقدم في التسلح كان يرافقه تراجع للحس الأخلاقي . فبقدر ما كانت المتفجرات تزداد قوة ، كانت الأخـــلاق تضعف . وما المعاهدات إلا قصاصات من الورق ، واهداف الحرب كالمراصد الجوية التي تدور مع كل ريح سياسية ، والاتفاقات الرسمية هي أكاذيب مموهة ؛ والشرف بين الحلفاء هو خداع ومكر ؛ والالتزامات تجاه المحايدين تحوي ضمناً كثيراً من الخيانة . فالحلفاء ينتقلون من معسكر لآخر ، ويغدو العدو صديقاً ، والصديق عدواً ، ورؤساء الدول الانداد يشتم بعضهم بعضاً كسائقي العربات ، الى أن تغوص الحرب في جحيم هائج يصفق فيه الناس للفظائع التي ترتكب ضد العدو ، في حين أن جلودهم تقشعر لهذه الفظائع لو أنها صدرت عن العدو . ولا يسعنا هنا أن نستشهد بأمثلة لأن جميـع المحاربين قد أجرموا كثيراً بما ارتكبوا من موبقات . والحادثة البارزة هنا ليست في اتخاذ هذه الأعمال البربرية صفة عامة لدى الجميـع ، بل في تلك المتعة واللذة التي كانت الجموع تشعر بها لدى رؤيتها لهذه المآسي ، وهـــذا يشهد على درك الانحطاط الذي انحدرت اليه البشرية ، ولا مندوحة من ذكر مثل واحد من كثير من الشواهد التي امتلأت بها الصحف اليومية وهو « مدينة ايكس لاشابل وهي أهم المدن الالمانية التي وقعت في أيدينا . فهذه المدينة التي يبلغ عدد سكانها (١٧٠)

الف نسمة ... لم يبق فيها مسكن قائم يسكن . ولم يسبق أن رأت عيني مثل هذا الدمار الذي حل بها ... فهناك عشرة آلاف من السكان يعيشون الآن كالفأر في الكهوف بين الأنقاض ... وقد تركت غارة جوية واحدة (٣٠٠٠) قتيل ... وقد يلذ التفكير بأن ما حـــدث لهذا البلد قد لحق جميع المدن الالمانية تقريباً .. »

لم تعد الحرب بعد اليوم صراعاً بين قيم الحياة ، بل هي قوة مدمرة عمياء ، قوة الموت المشابهة للهزة الأرضية أو ثورة البراكين ، أو الزوابع .

شعوب بأسرها تهاجم ، وتسحق ، فتستحيل الى عبيد ، أو تطرد كالقطعان من بلد لآخر . وكما يقول كونيس رايت ٢١/٢٠٠ ، « ان حياة الدولة العدوة بكاملها تصبح هدفاً للهجوم . فمبدأ الفتح الحديث يذهب الى حد استئصال السكان ، ومحو حقوقهم في الملكية ليحل آخرون من الفاتحين محلهم ٢١/٢٠٠ . » وهكذا نرى بعض الكتاب – كموريي روبرت الانكليزي – ، يدافعون عن مبدأ استئصال العدو « لو أمكن اجتياح بلاد الألمان من جديد » كتب ذلك سنة ١٩٤١ ، « فيجب القول إن ذبح شعب بكامله يمكن تبريره اذا لم يكن هناك وسيلة أخرى لحماية دولة او قومية غير شريرة ٢٢/٢٠١ . »

ولو كان الألمان هم وحدهم الذين يمكن أن يسببوا الحروب ، أو كانوا الشعب الوحيد المعتدي في العالم ، لأمكن تبرير فكرته هذه الى حد ما . ولكن الأمر على النقيض من ذلك : ينتج عن نظريته هذه ان اقرار السلام على هذه الأسس يقتضي القضاء على المعتدين في المستقبل ، سواء أكان عدوانهم حقيقياً أو مزعوما – وهكذا تنتهي المذابح ببقاء أمة واحدة تبيد من تلقاء نفسها بفعل بلاهتها .

هذه الآلية الشاملة التي تستهدف الدمار الحربي ، لا البناء السلمي ، والتي تبادر بالشر والأذى ، ولا تعرف للخير من معنى ، وتنذر بالموت وتشيح بوجهها عن الحياة ، هي بادرة جديدة تماماً في الحضارة الغربية . لم تر حرب الثلاثين عام ، على بشاعتها وهولها ، ما يمكن تشبيهه بما ذكر . ولا ريب في أن هذه

الآلية هي وليدة العقل البشري ، ولأن العلم اجتاح كل شيء ، ولأن كل شيء ، حتى الروح البشرية قد شوهت وفقدت مسحتها الأصلية لكي تتلاءم مع مقتضيات الفن الصناعي ، فالحروب لم تعد كما كانت في الماضي صراعاً بين الدول ، بل اضحت معارك تدور في صميم الحضارة . قلائل هم الذين يعرفون لماذا يقتتلون ، وفي هذا الجيل المطبق تمزق الشعوب بعضها كالحيوانات الهائجة .

ومع هذا كله فالجميع يتألمون من المرض العام : وهو تغلغل الآلية في الحياة وسيطرة الآلة العمياء على الانسان .

فما دامت هذه السيطرة لا يمكن عكسها وأن الآلة بكل ما احدثت في النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والمالي ، لا يمكن وقف سيطرتها على الانسان لتصبح خادمة له ، فالحرب ستبقى عنصراً ثابتاً في حضارتنا مابقيت الآلة على وضعها هذا . « لقد انحط الفن » كما يقول وليام بلاك ٢٠٢/٢٤ ، « وانكرت المخيلة كل شيء ، وتحكمت الحرب في الأمم . »

ان لمن الجنون ان نلد ونبني اذا كانت الغاية القتل والتخريب . وكلما ازداد سلطان آلة الحرب وقوتها ، أصبح من المحقق ان الحرب ستؤدي الى الخسائر اكثر مما تؤدي الى الأرباح ، لا بالنسبة للمغلوبين فقط ، بل للغالبين ايضاً . لقد برهنت الحرب العالمية الثانية لكل ذي عقل سليم على ذلك .

والحقيقة هي أنه « إذا كانت مؤسسات وفاعليات الحضارة ، بدلاً من أن تتماسك ، يحطم بعضها بعضاً ، فهذه الحضارة في خطر . ان الحضارة الحديثة يبدو عليها علامات الانحلال واضحة . فالتناقضات التي تعتورها ينبغي حلها بمنطق أشد سمواً ورفعة اذا اريد تجنب حروب اكثر تكرراً واشد تدميراً وتخريباً . ألا يستطيع العقل البشري أن يلم بهذه الحضارة على اتساع نطاقها وتعقدها الكبير ، أليس للانسان حقاً ان يكتشف ويعتنق قيماً ، هذه القيم وإن تكن من نتاج تطبيق أحسن الأصول التي ابتدعتها هذه الحضارة ،

إلا أنها تســاهم في بناء هذه الحضارة نفسها . هل لرغبات الانسان العفوية وسلوكه الموروث عن الماضي أن يتلاءم مع فنون وحاجات المجتمع في الحاضر والمستقبل ؟ ٢٥/٢٠٢

لقد عرضت هذه المسألة للكنيسة المسيحية في بدايتها : كيف يمكن ملاءمة ماتبقى من الثقافة الرومانية مع علوم البرابرة وفنونهم ؟ وهذه هي المشكلة نفسها التي واجهتها اوربا الغربية عقب حرب الثلاثين سنة : وهي كيف يمكن ملاءمة مابقي من ثقافة القرون الوسطى مع الطريقة العلمية الفنية ؟ حاولت الكنيسة أن تحل المشكلة بنفخ الروح المسيحية في شجاعة البرابرة لتجعل منهم جنوداً للمسيح . اما اوربا الغربية فقد حاولت حل المشكلة بأن اعتبرت جميع الجنود كقطاع الطرق الذين لا يعبأون بالمبادىء الأخلاقية ، وعبأت الطغمة من سواد الشعب في مجموعات منظمة سميت أفواجاً Regiments . ولم تحاول الأولى ولا الأخرى اخراج الحرب من الحساب بل حاولت كل منهما تضييق رقعة أضرارها ، وكانتا تدركان أن رجال القرنين السابع عشر والثامن عشر كانوا أقرب منهم الى حـــل المشكلة . فهل بوسعنا الاقتداء بهم مع أن الظروف قد تغيرت تغيراً تاماً ؟

كانت الأمم في القرن الثامن عشر تكفي نفسها بنفسها فيما يتعلق بالضروريات ، لذا كانت التجارة الخارجية عاملاً ثانوياً ، ولم يكن للصراع من أجل المواد الأولية والاسواق من معنى . وكانت طبقة النبلاء هي المسيطرة في المجتمع ، وهذه الطبقة رغم نقائصها كانت تحافظ على تقاليد الفروسية في السلم والحرب . وكان تطور الاسلحة بطيئاً يقرب من الركود ، كما كانت اهمية الجيوش محدودة . كان النجاح يتوقف على مهارة القادة اكثر منه على قوة الأسلحة ، وبما أن مصير المعارك يتوقف اكثر مايتوقف على المناورة منه على المذابح ، لذا كانت اضرار الحرب طفيفة . وكان سواد الشعب مستثنى من الحرب تحفظه من ويلاتها قواعد واعراف : فكان شبح الحرب محدود الآثار .

لقد غيرت الثورة الفرنسية والثورة الصناعية هذه الشرائط . واخذت اهمية الطبقة البورجوازية تعظم وتزداد ، فأدخلت Furor loquendi ، في السياسة والحرب ، وهيجت الجماعات بصحفها المليئة بالدعاية ، كصحيفة صديق الشعب لمارا . وأخذ التجنيد العام يحث على انتاج الاسلحة بوفرة ، حتى تضاعف عددها وعظم . ثم بادت هذه الطبقة الموجهة وحل محلها نفر من السياسيين الوصوليين الذين لايمتون بسبب من الاسباب الى الثروة والمركز الاجتماعي . ثم أتى البخار واخذت الدعائم الاقتصادية للحضارة الشعبية بالتداعي والانهيار .

كان القرن التاسع عشر عصر هدوء نسبي في اوربا ، فلم يقع منذ ١٨١٥ حتى ١٩١٤ اي حرب واسعة النطاق كحرب وراثة العرش الاسباني ، وحرب السبع سنوات او حروب الثورة الفرنسية ونابليون ، فتعكر صفو السلام في العالم . كانت جميع الحروب محلية . وكانت انكلترا سيدة البحار ، تستطيع بقوتها البحرية أن تحد من النزاع الاوربي وتحول دون أخذه صفة كونية .

ورغم كل شيء فقد شهد هذا القرن ازدياداً مستمراً للقوة العسكرية ، مردها الى حد كبير لتطور التسلح السريع ، ومن الثابت أن الامبراطورية البحرية لاتشعر بالضمانة والامن في عهد الجيوش الضخمة . وبما أن خطوط مواصلاتها الرئيسية بحرية ، فالامبراطورية البحرية هي قبل كل شيء مجموعة تجارية لامحاربة فسكانها تكون تبعاً لذلك ذات ميول غير عسكرية .

كانت قوة بريطانيا تقوم على البخار لذا حافظت على تمام قوتها الى أن اتى عصر النفط . والنفط يساعد على تقدم الجيوش اكثر من البخار ، فاستثماره على وجه اكمل يفعل بالنقل البري فعل البخار بالنقل البحري : فهو يتيح للقوات البرية الحركة في جميع الاتجاهات على سطح مستو ، في حين أن السكك الحديدية لاتتيح الحركات إلا في بعد واحد . فانكلترا رغم ما لديها من موارد كبيرة من الفحم ، الا أن مواردها بالنفط الخام محدودة وبما أن الطائرة ، وهي الآلة

الحربية التي تأتي بالدرجة الاولى بين تلك التي تعمل بالبنزين ، هي السلاح المسيطر في الحرب البحرية ، فهي وان كانت تحتاج في البحار المحيطة الى سفن وحاملات طائرات كقواعد لها ، الا أن استمرار ازدياد مجال عملها جعلها بالتدريج تعمل منطلقة من قواعد برية . وبما ان البحار الضيقة قد اصبحت بكاملها تخضع لسيطرة سلاح الجو ، فالقوة البحرية البريطانية تقوم على رقابتها للبحار الضيقة ، اكثر مما تقوم على سيادتها للبحار المحيطة ، لأن المضائق والبحار الضيقة هي مفتاح المحيطات .

لقد دب الاضطراب في توازن السلام العالمي حين أخذت القوة البحرية البريطانية بالضعف ، كما أدى ضعف روما الى وضع حد للسلام في العالم اللاتيني . وقد ظهر هذا الضعف في بداية عصرنا هذا حيث أخذت المانيا تتحدى السيطرة البحرية البريطانية . ولو أن الامبراطور غليوم الثاني عدل عن تحدي تلك السيطرة لكان من المحتمل ان لاتعلن بريطانيا الحرب على المانيا سنة ١٩١٤ ، ولأمكن حصر نطاق الحرب الفرنسية الالمانية رغم روسيا ، كما جرى في ١٨٧٠ .

والآن بعد انزالت Pax britannica ، يتساءل المرء عن الأداة الأخرى التي ستحل محلها . فرغم جمعيات الأمم ومواثيق الأمن الدولية الخيالية ، التي تغفل الحقيقة الراهنة ، وهي أن الانسان في جوهره هو حيوان ميال للخصام ، محب للحرب ، ويبـــدو لي أن هناك امكانيتان فاما Pax Sovietico أو Pax Americana ، فأيها أقرب الاحتمالات ؟ إن الجواب يتوقف الى حد كبير على التسلح ، فهو الذي يمثل الحكم الأعلى في عصر القوة .

لقد كان الصراع بين اوربا وآسيا مشكلة العالم القديم الاساسية منذ دارا وزركسيس . فأوربا من وجهة جغرافية ليست سوى مرتفعاً من مرتفعات آسيا ، وليست اوربا من وجهة عرقيـة سوى خليط شعوب نشيطة متحمسة ، وميالة للخصام . فاوربا هي مسرح دائم للحروب الضروس . ولكن هـــذه

الشعوب الشديدة الصخب ، كانت حتى الحرب الأخيرة ، تترك خصوماتها وتمشي صفاً واحداً ضد الغزاة الآسيويين كلما هددت آسيا كيان القارة الاوروبية .

يمكن القول إن روسيا بقيت دولة غربية ذات امبراطورية في آسيا ، حتى ١٩١٧، Une pseudomorphose كما يقول شبنجلر . ثم أخذت منذ ذلك العهد تصبح بالتدريج دولة آسيوية ، أي شرقيـة . فالبلشفية التي هي ليست بالشيوعية الماركسية (التي تتعلق بمسألة توزيع الثروات) ، هي عبـادة آسيوية مصدرها قلب روسيا الآسيوية وهي في أعماقها ضد الفكر الغربي ٢٠٥/٢٦، ومع هذا فقد فتحت اكبر قوتين بحريتين في الغرب أبواب اوربا الشرقية المروس على مصراعيه ، حين وعدت روسيا السوفييتية بمساعدات كبرى في ١٩٤١ ، دون أن تدركا نتائج هذه البادرة .

لقد قال نابليون سنة ١٨٠٧ في تلسيت « أن اوربا خلال مائة عام من ذلك التاريخ ستصبح إما جمهورية او قوقازية (٢٠٦/٢٧) »! ومع أن نابليون قد اخطأ في حساب الزمن إلا أن نبوءته اوشكت ان تتحقق ، فستصبح اوربا عما قريب امتداداً لآسيا ، كما كان الأمر حـــين زحف الغزاة الآريون على خيولهم من قلب غابات سيبريا .

اذا تحقق ذلك فان الامبراطورية السوفييتية ستمتد من المحيط الهادي الى الاطلسي ، ومن رأس تشيليوسكين الى رأس الرجاء الصالح . أما أن دولة ضخمة كهذه تعمر طويلا ، فأمر بعيد الاحتمال ، لأن الامبراطوريات تموت كما يموت مؤسسوها ٢٠٦/٢٨ . غير ان بقاءها مهما طال يعني ان ثلاثة أرباع القوة الحربية في الكرة الارضية ستكون في أيدي السوفييت . وبما ان النفط يعطي ميزة اكبر للدول البرية على الدول البحرية ، واقصر مسافة بين السوفييت والولايات المتحدة الاميركية لا يكاد يبلغ ضعف مسافة مضيق كاليه الذي يفصل فرنسا عن انكلترا .

قد يتساءل المرء هل السلم ممكن في هذه الشرائط ؟ فلا يستطيع أحد الاجابة على هذا السؤال ، إلا ان ستالين استشهد بقول لينين اذ أقر بالأمر قائلا :

« نحن لا نعيش في دولة واحدة فقط ، بل في مجموعة من الدول ، ولا يمكن ان نتصور ان الجمهورية السوفييتية تستطيع البقاء الى ما لا نهاية الى جانب الدول الاستعمارية . اذ لابد من أن يكتب البقاء لاحداهما في النهاية . وبانتظار هذه النتيجة لابد من وقوع عدد من الاصطدامات بين الجمهورية السوفييتية والدول البورجوازية ٢٩/٢٠٦ .

فاذا اعتبرنا أن ستالين مصيب في قوله ، « فان من يملك البترول هو صاحب الامبراطورية » . فإلى ان تكتشف مادة محركة جديدة ، سيبقى النفط اكثر من أي مصدر من مصادر القوة الحربية الاخرى ، هو الذي يقرر ما اذا كانت La pax Sovietica أو La pax Americana ، هي التي تهب السلام للعالم ، خلال حقبة قصيرة من الزمن .

الفصل السابع

عصر الطاقة الذرية

كتب الاستاذ أستون منذ عشرين عاماً تقريباً في مقال له حول « الطاقة الذرية » يقول : « ان كمية الطاقة التي يحتويها كوب من الماء تكفي لجعل باخرة موريتانيا تعبر الأطلسي ذهاباً واياباً ... ولو أمكن تحويل ١٠ في المائة من هيدروجين الشمس الى هليوم ، لتحررت طاقة تكفي لابقاء اشعاعاتها الحالية مدة الف مليون من السنين ... مامقدار الزمن الذي سيمضي قبل ان يستطيع الانسان تحرير هذه الطاقة والسيطرة عليها ، وما عساه أن يفعل بامكانياتها الكبرى ؟ هنا مجال الفلسفة ... فقد تتيح لنا حياتنا التي بلغت درجة من السمو ان نكتشف اما القوة المادية ، او الفناء التام » .

والأمر الذي لا أوافق الاستاذ استون عليه في هذه المناقشة ، هو أنه كان عليه أن يعرف ، كما عرف روجيه باكون من قبل بالنسبة للبارود ، ماسيكون موقف الانسان من الطاقة الذرية اذا استطاع تحريرها ! كان عليه ان يدرك ذلك بوضوح . فمنذ ان ادرك ليوناردو دافنشي ما يمكن ان تسخر له الطاقة الذرية ، فمحى من فكره الرغبة التي ساورته في رسم غواصة ، فقد استخدم الانسان جميع الاكتشافات العلمية الكبرى كوسيلة لجمع الثروة ، أو شن الحروب ،

وهذا يؤدي الى النتيجة ذاتها ، لان التعطش للثروات هو أحد الاسباب الاولى للحرب . ففي اثناء الحرب العالمية الثانية ، كما في الاولى ، ولكن على مقياس اوسع . ساهم العلماء ووضعوا معارفهم في خدمة الدمار والموت ، فهم ومخابرهم، اصبحوا وسائل حربية ، واوشكوا ان يتركوا القادة العسكريين والجيوش في الدرجة الثانية . لاحظ ذلك الاستاذ دايل ، رئيس « الجمعية الملكية » بعديومين من انفجار اول قنبلة ذرية فكتب في جريدة التايمس :

« لقد اصبح واضحاً من جميع الوجوه لدى انتهاء الحرب ان الاكتشافات العلمية والمخترعات قد اوشكت ان تصبح العناصر الجوهرية للمعارك ، فالعلم ، وقد عبيء بالرغم عنه ، قد اضحى العامل المباشر الأعمى في الفناء البعيد المدى ، وقد عبيء بالرغم عنه ، قد أضحى العامل المباشر الاعمى في الفناء البعيد المدى وهو لايطلب لتحقيق ذلك سوى حداً أدنى من الرجال أو التجهيز العسكري ، يشهد على ذلك صواريخ الـ V-1 و V-2 الالمانيين ، ثم القنبلة الذرية . »

ان حقيقة هذه الملاحظة تلفت النظر اذا تأملنا القنبلة الذرية من ناحية الانتاج العلمي ، وبالنسبة لدورها العسكري .

ولا غرو أن تحقيق « اكبر مجازفة عملية في التاريخ » قد تتطلب استخدام مليارين من الدولارات ، ولكن هذه القنبلة بعد صنعها « فاقت قوتها (٢٠) الف طناً من الـ ت.ن.ت ، وزادت بألفي مرة على القـــوة الانفجارية للقنبلة البريطانية (١) البالغة (١١) طناً من الوزن ، وهي اكثر قنبلة عرفها تاريخ الحرب حتى الآن ٤/٢١٢ وقد قيل « إن القنبلة الذرية ، من وجهة نظرية ، قد ضاعفت بمقدار (٣٠٠٠) ضعفاً قوة تدمير أسراب القصف الجوي الاميركية . ورب سرب مؤلف من (٨٠٠) قلعة طائرة ، كالسرب الذي أغار مؤخراً على اليابان

Grand Chelem (١).

يكون له مفعول (٢٫٥٠٠٫٠٠٠) قلعة طائرة من الـــتي تحمل متفجرات الـ ت. ن. ت. »

وبالمقارنة يبـــدو استعمال القنبلة الذرية بسيطاً جداً ، فطائرة واحدة من طراز ب ٢٩ لا يزيد ملاحوها على التسعة ، قد حلقت في الخامس من آب ، وحين وصلت الى ارتفاع (٦٠٠٠) متراً فوق هيروشيما ، ضغط أحد ملاحيها على رافعة ، فسقطت قنبلة واحدة مربوطة بمظلة ؛ ثم ابتعدت الطائرة بأقصى سرعة عن مكان الانفجار . واذا بنا نقرأ بعد قليل من هذا الحادث : « أن البلد الذي كان في الساعة التاسعة الا ربعاً يعج بالسكان المنهمكين بالاعمال في صبيحة يوم مشرق الانوار ، قد تبخر في طرفة عين الى عمود من الدخان الكثيف ، المدلهم القاعدة المتصاعد كالباقة البيضاء (١٢٠٠٠) متراً في الجو ٦/٢١٣ . » وهذه العملية البسيطة تكررت في ٩ من الشهر ذاته فوق ناغازاكي .

نتج عن العملية الأولى أن مساحة تزيد على (١٠) كيلو مترات مربعة ، قد حصدت تماماً . فقتل وجرح (١٦٠٫٠٠٠) نسمة وأضحى (٢٠٠٫٠٠٠) نسمة بلا مأوى ، واسفرت العملية الثانية (ناغازاكي) عن (١٢٠٫٠٠٠) نسمة بين قتيل وجريح ، « ولم يعرف عدد الجثث التي بقيت مدفونة تحت الانقاض ٧/٢١٣ . » ويقدر عدد القتلى والجرحى الناتج عن هاتين القنبلتين بـ (٣٠٠٠٠٠) نسمة .

وقد وقع كل ذلك دون أن يفقد المهاجم رجلاً واحداً . وبعبارة أخرى إن معارك كبرى باهظة التكاليف في الرجال والعتاد بالنسبة « للجانب المدافع » كمعارك الصوم والأيبر في ١٩١٦ و ١٩٢٧ ، تربح أو تخسر لا خلال عدة أشهر ، بل في بضع ثوان . وكان يشن هذه المعارك ويخوضها رجال لا يعرفون شيئاً عن شؤون الحرب والتعبئة والسوق . هذا مع العلم أن الحرب مازالت في بدايتها : فلقد سمعنا ان قنبلة ذرية صنعت « تفوق الأولى في قوتها بألف مرة » وان الكتلة الذرية المحولة الآن الى قدرة لا تتجاوز (٠٫١) في المائـــة ، وان زيادة هذه النسبة زيادة ضئيلة ينذر البشرية بالانتحار بمحض ارادتها . »

ولو استبعدنا الآن هذه النتيجة القاتمة ، وتساءلنا « مامبلغ تأثير هذا السلاح الجديد سلباً او ايجاباً على الآراء المبسوطة في هذا الكتاب ؟ » لرأينا :

١ – أنه يؤيد قولي من أن « النصر يأتي بمعدل ٩٩٪ من الادوات والاسلحة شريطة ان يتم اكتشاف الاشياء المناسبة منها . أما السوق ، والقيادة ، والرؤساء ، والشجاعة ، والانضباط ، والتموين ، والتنظيم وجميع هذه العناصر الحربية اللازمة من مادية ومعنوية ، ليست شيئاً يذكر اذا ماقورنت بالتفوق العظيم في حقل التسلح ... ولا تعدو كلها أن تشكل (١) في المائة من المجموع .

٢ – إنه وان كانت هذه القنبلة لا تناقض ما سميته « بقانون التطور العسكري » ، الذي يتلخص في ان الحضارة مكونة من عناصر متحولة ، وان على الجيوش ان تلائم نفسها مع تغيرات الحضارة الطارئة اذا كانت تريد البقاء . على استعداد تام للعمل ؛ إلا أنها تعكس هذا القانون الى امد ما ، بجعلها الحرب هو « الوسط » الذي يجب ان تتلاءم معه الحضارة اذا اريد ان يكتب لها البقاء وهكذا فاننا نعود الى الوراء ، الى الظروف التي كانت تسود في زمن غزو النورمان السكندينافيين لاوربا .

٣ – إنها تؤيد وتناقض معاً ماسبق ان قلته من أن في الحرب الحديثة « العدد الاكبر لا يغلب العدد الاصغر فحسب ، بل إن الكيفية تغلب الكمية »

آ) فالقنبلة الذرية تجرد الحرب من صفتها البروليتارية ، إذ تجعل مفهوم الامة المعبأة مفهوماً خاطئا ، فعدد المحاربين في الحرب الذرية يستحيل الى حده الادنى ؛ ب) إن قوة صدمة (١) القنبلة الذرية تبلغ درجة كبرى لا يبقى أمامها من أهمية للكيفية ، بل إن عامل الكمية هو العامل الوحيد الذي يمكن اللجوء اليه ، لتتسنى فرصة سحق العدو في وقت معين . ويبدو أن هذا الأمر سيكون أمراً مطلقاً حين تصبح القنبلة صاروخاً ذريا ، حينئذ ينسحب الجندي عملياً من المسرح ليرقب بقلق تلك الحرب التي تخوضها الآلات العمياء (٢) .

---

(١) Puissance de choc (٢) Robots

وكما ذكرت في الفصل الرابع : « لقد دخلنا العهد الفني للحرب باكتشاف البارود، هذا العهد الذى يميل ضمناً الى استبعاد العنصر البشري من الميدان لمصلحة العقل. » والتفكير العلمي اليوم هو أسمى اشكال العملية ، وهدفه الوحيد من الآن فصاعداً هو الكفاح ضد القنبلة الذرية.

٤ ــ هــذا يقودنا مباشرة الى مسألة « العامل التعبوي الثابت » : فهل يكتشف العلم ما من شأنه أن يبطل مفعول القنبلة الذرية ، فقد أوجد العقل حتى الآن لكل سلاح جديد شيئاً يحد منه ولا يشترط أن يكون هذ اسلاحاً أشد تدميراً ، بل إنه لم يكن في كثير من الأحيان بسلاح . وهكذا فلقد حار الايطاليون سنة ١٤٩٤ ، واعيتهم الحيلة في الوسيلة التي يجابهون بها قنابل مدفعية شارل الثامن ، وما كاد يمض (١٥) سنة حتى ابتدعوا جهازاً دفاعياً جــديداً أصبحت معه تلك المدفعية تبعث على الضحك . وعلى النقيض من ذلك فقــد انهـارت امبراطوريات الأزتيك والأنكاس ، منذ سنة ١٥١٩ ، امام المدافع الاسبانية والبنادق ذات الزناد ، لأنهم لم يوفقوا في الدفاع ضدها فهل سيكون موقفنـا الآن مــشابها لموقف هؤلاء لايمكن الجزم بشيء ، ولكن حتى في الحالة التي يبقى فيها « المبدأ التعبوي الثالث » ــ وهو أمر يحتـاج الى البرهنة عليه ــ لو أمكن للانسان أن يغير موقفه من الحرب ، فينظر اليها على أنها أداة سياسية ، بدلا من أن يعتبرها للدمار ، فقد يؤدي ذلك بالتالي عدوله عن استعمال سلاح مدمر كهــذا ؛ كما فعل القوط والفندال واللومبارديون والسلاجقة حين رأوا من الخير لهم الاستمتاع بثمرة فتوحاتهم بدلا من يخربوا وينهبوا بلاد اعدائهم .

ومع ما في مثل هذا التغير من تعقل ، الا أن تحقيقه صعب مادامت الفرائز القبلية تسيطر على سلوك البشر في السلم والحرب . فمنذ أن بدأت الأسلحة النارية تلقي عبء الحرب على عاتق الطبقة البروليتارية ، الكادحة ؛ لم يسبق أن انحدر

الحسن الأخلاقي الى هذا الحد الذي وصل اليه من الانحطاط اثناءالنزاع الاخير. ولو أن هذا الانحطاط الخلقي وقف عند حد بانتهـــاء الحرب ، لهان الخطب ؛ ولعـــاود الامل النفوس ، ولكن الامر على خلاف ذلك لان ستراتيجية الارهاب انتقلت الى السلم تحت شكل محـاكمة مجرمي الحرب .

ان جميع الحروب كانت تكثر فيهـا الفظائع ، وكان بعضها ، على الاخص الحروب الدينية ، تنتهي بأعمال الثأر والمذابح ، الا انى لم أسمع بأن احدها انتهى باتخاذ تدابير جماعية شديدة العنف ضد حكومة العدو ، ورجال دولة، وموظفين وشرطة ، والمصرفيين ، وعلمائه ، وكبار الصناعيين والقادة العسكريين ، من أجل جرائم حقيقية أو مفترضة ، ارتكبت اثنـاء الحرب أو قبلها واذا طلب أحدهم المثول أمـام القضـاء ، وجب محاكمته بنزاهة وتجرد الامر الذي لم يتم بالنسبة للالمان واليابان ، فقد اعتنق النـاس مبدأ يقضي بأن العدو هو وحده المجرم ، رغم الاعمال البشعة التي اقترفها المنتصرون كتدمير عشرات المدن واحالتها الى خرائب ، والنفي بالجملة لما يقارب الثمانية عشر الماني . « إذا حطمت العدالة حطمتك ، واذا صنتهـــا صانتك » كانت أوربا بأسرها تشعر بوطأة هذه الحكمة التي قال بها مانو .

هذه العدالة التي تشبه المهزلة ليست سوى ازدهاراً للشراسة البــــدائية في مجتمع فقد كل حس بالقيم الاخلاقية وكأننا بالغرب وقد رجع القهقري ، الى احط فترة في تاريخ الامبراطورية الرومانية ، فترة العـاب السيرك التي كانت تمزق فيها الضحايا إربا لاشباع شهوة الطغمة من الغوغاء المتعطشين لمنظر الدماء ، هـــذه الطغمة التي يمثلهـــا اليوم السواد الاعظم من المصابين بالبطنة من السينماو الجرائد .

وقد أشار لـكي الى هذه الظاهرة بقوله : « في كل المجتمعات التي أصبح فيها القصـاص الهمجي أمراً مألوفاً ، يسيطر سيطرة تامة ذلك الجانب من الطبيعة

الانسانية (عدم التأثر بعذاب الانسانية) . ثم يقول ايضا لهذا الصدد : « إن أولى نتـــائج هذا الميل نحو المآسي هو أن الشعب قد أصبح على الاطلاق غير أهل لتقدير اللذائذ السلمية الرفيعة التي توافق المدينة عادة . »

إن الاشارة بفظائع الحرب عندما يرتكبها احد الخصمين ؛ والتنديد بها إذا ارتكبها الخصم الآخر ، يضاف الى ذلك المذابح ومحاكمات مجرمي الحرب ، كل هذا يدل على أن الامم قد فقدت اثنـاء الحرب وبعدها كل اتزان اخلاقي وعقلي ، بحيث أن الافراد ساروا على الخطة نفسها ، فأصبحوا كمن به مسن من الجنون . كيف ينتظر من عـالم تقهقر في اخلاقه الى عهود ألعاب السيرك الرومانية ، أن يجعل العقل مسيطراً على استخدام القنبلة الذرية ؟

كيف نأمل ذلك بعد أن أشربت قلوب الجماهير خلال ستة أعوام بالدعاية التي تقول أن أبادة العدو هي هدف الحرب الاوحد ؟ وأسوأ مثل على ذلك تبرير استخدام القنبلة الذرية ، الذي أصبح مقبولا من الجميع وهو أنها « انقذت حياة الاميركيين بازهاقهـا أرواح اليابان . » كما لو كان انقاذ الأرواح أو ازهاقها هو الغاية من الحرب !

ان غاية الحرب هو السلم ؛ وليس ازهاق الارواح البشرية أو حفظها .

هذا النقص في الاتزان الاخلاقي والعقلي يلمس أيضاً في تلك الاقتراحـات التي ترمي الى رقابة صنع واستخدام السلاح الجديد : واكثر هذه الاقتراحات حظوة عند العامة ، واكثرها بعداً عن الصواب - هي أن السبيل الوحيد لمنع الحضـارة من الانتحار هي أن يوضع الاختراع في أيدي سلطة دولية يكون لها وحدها الحق في التصرف بها . ولكن كيف يمكن إقامة دولة فوق الدول ذات فاعلية بدون أدنى أساس اخلاقي ؟ والى ان يصبح بالامكان سد هذه الهاوية السحيقة في كيان الحضارة الحديثة ، أمن المعقول أن نفترض بأن الولايات المتحدة تقبل بازالة معاملها الذرية وتسليم مالديها من الاورانيوم لسلطة دولية

مخيفة ؟ وهل يحتمل ان تقبل روسيا بالرجوع عن كل أمل في انتـــاج الطاقة الذرية في وقت اصبحت فيه هذه الطـاقة أهم اسلحة العـالم ؟ اذا تحقق ذلك فانه يدل على أن الامم هي اليوم اشد جنوناً منها يوم قدمت هذه الاقتراحـات ، اذ ان فكرة حفظ السلام بإحدى وسائل الدمار هي جنون محض . لقد تساءل القديس جان قائلا : « من أين تأتي الحروب والخلافات بيننا ؟ إن مصدرها هي النقائص والشرور التي نحملها في انفسنا . » إن ممـــا يثير الدهشة ان نرى عالماً غارقاً في انحطاطه الخلقي يحـاول ان يتمسك بأوهـام كهذه إن الذي يمكن توقعه ، هو أن الاورانيوم (أو أي جسم آخر يكون أشد تدميراً) بعد أن أصبحت المادة الاولى الجوهرية في الحرب ، سيكون السبب في اقتتال الامم للحصول عليه ، كما اقتتلوا في المـاضي من اجل الذهب ، والحديد ، والفحم ، والنفط لذا لابد من التسليم بأن الانسان مادام متكالباً على متاع الحياةالدنيا، فإن السلم لايدوم الا الفترة اللازمة لكي تستعد الامم خلالها لتهيئةحرب جديدة.

فاذا قلنـا بهذا الاحتمال ، أمكننا أن نتساءل عن الشكل الذي ستؤثر فيه القنبلة الذرية على الحرب .

لننظر الى المسألة من وجهة نظر الحرب الاخيرة ، فمن الثابت أن اليابان ، كما هو معلوم ، كانت على وشك الانهيار قبل ظهور القنبلة الذرية . ولكن الامر الذي لاشك فيه هو ان هذه القنبلة كان لابـد من ان تجعل الحرب في الشرق الاقصى تقترب من نهايتهـا بسرعة فجائية منذ اللحظة التي تستعمل فيها . ولو كان في حوزة الالمان عشرة من هذه القنابل ، لما استطاعت باخرة واحدة من الاسطول البريطاني الضخم الذي غادر بريطانيـا ان تصل ساحل النورماندي وحتى في نيسان ١٩٤٥ ، او كان لدى الألمان بضع عشرات من هذه القنابل ، لتنفست الصعداء ، وفرضت خلال خمسة عشر يوماً استسلاماً بلا قيد أو شرط على روسيا وفرنسا وبريطانيا ان لم نقل على الولايات المتحدة .

وهذا يظهر بوضوح ان الحروب الأخيرة كانت لاتقل مخالفتهـــا للمألوف من حرب طروادة ، وأن الدمـار إذا بقى هدف الحرب ، فان جميع المفاهيم العسكرية والبحرية والجوية الحالية يجب تتركها نهائياً . وفي الحقيقة ، اذا كان الحرب قراب مختبرات ، فأي حاجة في مثل هذه الحرب للجيوش والبحرية او الطيران ، وما حاجة الأمم الى المشاة ، والمدفعية ، أو الدبابات والتحصينات ، والحدود المحمية ، والخطوط الحديدية السوقية ، والكليات العسكرية، ودورات لأركان العامة ، وقادة الجيوش وأمراء البحار ؟

هذه الحقائق غير مبالغ فيها كما سنرى . فقد ثبت أن القنبلة الذرية من الطراز الاول المعروف التي انفجرت على ارتفاع (٥٠٠) متراً قد مسحت سطحاً مبنياً يزيد على الـ (١٠) كيلو مترات مربعة ، فيستحيل على اي جيش ان ينجو من هجوم يشنه اصغر سرب من الطائرات ذات القنابل الذرية . وهذا ينطبق ايضاً على الاسطول في البحر ، حتى ولو كان مؤلفاً بكامله من غواصات ، اذ يستحيل على اي هيكل للسفن ان يقاوم القذائف الذرية التي تنفجر تحت سطح الماء من تلك التي قوتها تعادل (٢٠,٠٠٠) طناً من الـ ت.ن.ت ، وهكذا يمكن ان يقال عن سرب الطائرات الذي يهاجم بقذائف ذرية في الجو بواسطة الرادار . فبفضل الرادار استطاعت بطاريات دوفر ان تصيب الباخرة شارنهورست في حد الايام ذات الضباب الكثيف ، وكانت هـذه تسير بسرعة (٣٠) عقدة ، فأصيبت بثلاث من عيار (٩) بوصات من اصل (٣٣) قذيفة منطلقة ، وهـذا يمكن حدوثه بقذائف وصواريخ ذرية مضادة للطائرات على مدى مماثل او ابعد ويلاحظ في هــــذه الحالة ان لاحاجة لان تصيب القذيفة الهدف بالذات . لذا سيكون الصاروخ ذو الحشوة الذرية المسير بالطاقة الذرية سلاحاً رئيسياً هدفه « احداث الحرائق » وهكذا تكون الحرب كاندلاع البراكين .

لنتصور بدل المدن المحاطة بالاسوار كما كانت الحال في الماضي ، بلاداً محاطة

بشبكات من محطات الرادار التي « تصيخ السمع » للأصوات التي تنذر بالكارثة وبقرب هذه المحطات يكمن نوعان من التشكيلات التعبوية المجهزة بالصواريخ ذات الحشوة والمحرك الذرين : الاولى دفاعية والأخرى هجومية . يكون هدف الاولى كل من مدن العالم الكبرى ، اذ قبل بدء العمليات ، لاتتعلم اي امة حق العلم اي البلاد الاخرى هي عدوتنا الحقيقية . (إعلان الحرب في هذا الوضع جنون محض) . وتوجه الثانيـة بواسطة الرادار ، ففي اللحظة التي يعلن فيها الرادار اقتراب صواريخ العـدو ، تنطلق الصواريخ الهجومية بصورة آلية وبتأثير الرادار ، تشق الريح ثم تنفجر في الطبقة الجوية العليا حيث يحدد جهاز الرادار النقطة التي ستصل اليها صواريخ العدو في لحظة معينة. هنالك تقع المعارك على مئات الكيلو مترات فوق سطح الارض ، بين الصواريخ دون ان يسمع الانسان عنها شيئاً . وقد يذهب احد الصواريخ الطائشة فيقع في مدينة كلندن ، او باريس ، او نيويورك ، وترتفع سحب الدخان والغبار على شكل الفطر بعلو (١٢) كيلو متراً ، ولايدري احد ماذا وقع بعيداً ، كما لايعلم احـد بالضبط من هم المتحاربون ، ومن هو المهاجم – كما انهم لايعرفون شيئاً عن السبب ، وهكذا تستمر الحرب بحركة دائمة الى ان يلحق الدمار آخر مخبر من مخابر الذرة فاذا كان لم يزل بعض الاحيـــاء ، اجتمعوا على شكل مؤتمر ليقرروا من هم المنتصرون ، ومن هم المغلوبون ، يقضي الاولون على الآخرين معتبرين اياهم مجرمي حرب .

قد تأخذ الحرب الذرية اشكالا اخرى ، ولا يهم كثيراً الشكل الذي تظهر به هذه الحرب ، والمهم هو ان جميـع الامم ستكون على استعداد للاشتراك فيها ، فالدول الصغرى لاتقل قوة عن الكبرى في العصر الذري . إنها مصلتة فوق العالم ، كسيف داموكليس ، وقد ينقطع الخيط المشدود اليه هذا السيف المصلت على الرؤوس طوعاً فيهوي السيف ، او قد يكون انقطاعه طارئاً بسبب

التوتر الذي يعيش فيه العالم : فقد يضغط مجنون على الزر او يسبب عطل في الصمام انفجاراً شاملاً يؤدي الى الطامة الكبرى .

ان مخالفة هذا الوضع المنطق امر واضح ، واذا لم يوقظ هذا الضلال عقل الانسان ، فسيأتي يوم يضحك فيه الانسان منه . فالسعي لاقامة الحضارة على اسس من قوى الحرب المدمرة لا يقل غباء عن اقامة الصحة على اسس جراحية. ولقد يشعر المرء شعوراً غامضاً منذ قرون خلت بهذا الضلال ، واخذ يتلمس الحلول التي تؤدي الى احلال السلام في العالم ، ومع ان هذه المحاولات قد باءت بالفشل الا انها تسترعي الانتباه . فابليس الحرب يأبى ان يصرف كيده بهذه النوايا الحسنة .

واول مشروع يسترعي الانتباه هو مشروع سوللي . فهو يقترح اتحاداً اوربياً من خمس عشرة دولة مع جيش وبحرية توضعان تحت تصرف مجلس شيوخ الاتحاد . « وتحقيق هذا المشروع يجب الا يكتنفه صعوبات » يقول سوللي متفائلا « اذا افترضنا ان جميع الامراء المسيحيين يتعاونون في هذا الصدد . » ثم قدم المشروع الثاني من قبل ويليام بن ، بعد انتهاء حرب الثلاثين عاماً بقليل. وهو كجمعية الامم يستند الى المؤيدات الاخلاقيـــة وليس فيه مجال لقوى الضابطة . ثم تبع هذه المشروع في سنة ١٧٣١ « مشروع السلم الدائم » الذي قدمه سان بيير ، والذي قال عنه فريدريك الكبير انه « ممكن تماماً ، ولكن ينقص شيء واحد ، وهو موافقة اوربا مع بعض الأشيـــاء الثانوية . » ثم أتت مشاريع كثيرة بعد ذلك لروسو وكانت ، وفي ١٨١٥ أتى التحـالف المقدس وهو اول تجربة واقعية ، وان كانت غير عملية ـ في تنظيم السلم ، والتي اسماها مترتنيخ بأنها « عدم رنان (١) » . وفي ١٩١٩ ولدت جمعية الأمم ، وقد اخفقت هي ايضاً .

(١) Un néant retentissant

الا أن الأمل الذي يداعب الانســـان تتمخض عن مشـــاريع أخرى كسان فرانسيسكو

فكانت الجماهير تتخيل امكان ايجاد دولة فوق الدول. تكون وظيفتهـــا مراقبة خطر الذرة ، فخوف انفجارها سيجعل الاسد يلعب مع الحمل ، ويوقف عواء ذئب الحرب .

قد تثمر هذه المحاولات اذا تمكن العقلاء من ازالة اسباب الحرب ؛ وقـد لاتثمر اذا اهملوا ذلك ، اذ ان اغلب الحروب الخارجية تقع لتحول دون وقوع ثورات داخلية أو حروب اهلية . فإذا اخفق العقلاء في ابطال دواعي الحرب فسيحل نوع جديـد من النزاع محل النزاع القديم ، نزاع يكون شر ما عرفـه الناس فبدلاً من أن ينفجر العالم البشري انفجار البركان ، فسوف تمزقه الهزات الاجتماعية وتكون الرشيشات ، وقبضات اليد الامريكية ، وامواس الحلاقـة والعصي الغليظـة ، أقرب الى الاستعمال ـ وان كانت نتائجها التدميرية أضعف من القنبلة الذرية . فقد يأتي ظروف يعتبر استعمال القنبلة الذرية فيه نعمة لا نقمة .

من هنا يبدو بوضوح أن السعى لايجاد دولة عالميـة تقوم على اساس القوة فحسب ليس بحل للمشكلة وهكذا نعود الى نقطة انطلاقنا الاولى ، لأن الحرب هي وليدة من نوع خاص ، فلا يمكن التخلص منها بسهولة .

ليس مما يستدعى الدهشة في عالم يبدو فيه المهندس الأكبر للكون «كرياضي محض » (١) ، أن نرى مفاهيم الكمية ، والمساحـــة ، والمقاييس والحجوم تساور فكر الانسان وبالأحرى أن يتأثر تفكيره بعظائم الأمور الهائلة المخيفة .

فقد اعتاد خلال سنى الحرب الست أن يقيس النصر بتعابير الأشياء الماديـة رأى بالطنـــات أو الدولارات ـ فهو اليوم يعتبر الفناء المادى هدف الحرب الأوحد . وهكذا نشأت فكرة «الاستسلام بلا قيد أو شرط » ، هذه العبارة تستتبع فكرة إبادة العدو .

---

(١) Mathematiciin pur

هذا هو الاطار الشعبي المشهود للحروب الحالية ؛ في حين أن اطارها التاريخي يختلف اختلافاً كبيراً ، لأنه يأخذ في حسابه الأهداف والأسباب لا مجرد أرقام ومقاييس . لقد كانت جميع الحروب الى يومنا هذا ، باستثناء البعض منها ، عى أي شكل كانت ، إنما تقع سعياً وراء احلال السلم يكون اكثر فائدة من سابقه الذي خرقته الحرب . والمقصود « بالفائدة يتوقف على عهد بعينه او الوضع الاجتماعي . ففي مجتمع بربري تماماً ، كالشعوب البدائية من الصيادين ، كان الهدف العسكري استئصال العدو ، والهدف السياسي احتلال اراضيه . وفي المجتمع الأقل بربرية ، اي المجتمعات البدائية الزراعية مثلاً ، كان الهدف الاول أسر العدو ، (اما القتل فقد كانت عملية طارئة يجب تحاشيها) وكان الهدف الثاني استعباده . وهكذا نرى ان الأسباب الأساسية للحرب في الحالتين هي من نوع اقتصادي : فهي في الحالة الأولى ، ضرورة ايجاد أراض للصيد ، وهي في الاخرى الحاجة الى اليد العاملة لاستخدامها في الزراعة . هكذا كان الوضع دوماً ، ومع ان هناك عوامل اخرى كثيرة ، الا ان الاسباب الاقتصادية هي دوماً مصدر هذه الحروب .

لقد تطور مشكل الصراع تطوراً عظيماً في مجتمعنا الصناعي المعقد . فمن اسبابه الرئيسية الحاجة الى المواد الخام ، والاسواق الخارجية والمسيطرون عليها ، والتعريفات الجمركية ، والحظر ، وبند الامة الاكثر رعاية ، هذا دون أن ننسى العوامل الثانوية : كعجز الموازين التجارية ، والديون والبطالة .

فغاية الحرب اذن هي دوماً كسب الاموال ، مع هذا الفارق وهو ان الاموال في الحضارات الزراعية من مصدر وطني بحت ، في حين أنها في الحضارة الصناعية ذات تأثير متبادل ، اذ ان ثروة احدى الامم تتوقف على ثروات باقي الامم الاخرى ، فمن العبث إذن أن نبغي اتلاف ثروات العدو كما ان من العبث

ان نقتله اذا كنا بحاجة الى الايدي العاملة ، او ان نتهاون في احتلال اراضيه اذا كنا بحاجة اليها للصيد .

لو سلمنا جدلاً بصورة قبلية (١) ان القنبلة الذرية يمكن ان تربح الحرب ، فلا بد من ان نسلم ايضاً بأنها في الحضارة التي تقوم على الآلة لاتستطيع ان تكسب سلماً مفيداً الا اذا استسلم العدو حالاً ، وهذا امر بعيد الاحتمال اذا كان تسلح العدو مماثل لتسلح الجانب الثاني . وبوسعنا ان نقول ان الحرب في جوهرها لايمكن ان تؤدي الى سلم كهذا الا اذا اعتبرت كالعملية الجراحية وليس مجرد مذبحة . فبينما هدف الجراح ازالة الدمل (٢) ، وغيره ... (اي سبب الحرب) إزالة لاتفقد المريض (وهو العدو) الا الاقل من دمه وحيويته (ثرواته) ، فغاية الجزار هو قتل الحيوان (العدو) بأسرع وقت ممكن (٣) دمه وحيويته بكاملها . ولكن الجزار اذا اوقع بحيوانه بصورة يستحيل فيها هذا الى ذرات ، فانه يعتبر في هذه الحالة معتوهاً لان النتيجة (وهي النصر) بدلاً من ان تكون شواء حسناً (سلماً مفيداً) تكون فقداً تاماً للحم الحيوان (اي سلم لاطائل تحته) . وهذا هو تماماً الوضع الذي يجابهه العالم اليوم .

لو كلف رجال الدولة انفسهم عناء استشارة كلاوزويتز لما وقعوا في خطأ الخلط بين الوسائل العسكرية والأهداف السياسية ، فكلاوزويتز يعتبر حرب رجل الدولة مختلفةعن حرب الرجل العسكري . فهي بالنسبة للسياسي « متابعة سياسة الدولة بوسائل جـــديدة » وهي بالنسبة لرجال الحرب ليست « سوى مبارزة (٤) على مقياس واسع » . فالحرب في الحالة الأولى هي : استمرار للاعمال السياسية » ، أما في الحالة الثانية ، « فان هدف المعارك هو تحطيم قوات العدو

---

(١) à priori

(٢) Tumeur

(٣) Récuperer

(٤) Duel

العسكرية . » ومع أن مظاهر الحرب هذه يتمم بعضها بعضا ، الا ان اهدافها تتعارض : فهدف الأولى Modération في حين أن العنف هو هدف الثانية . وبالأحرى ، اذا حجبت الثانية الأولى ، لم تعد أداتها بل سيدها ، وهكذا يصبح الذي يتطلبه السلم مستحيلاً .

وقد عبر كلوزويتز عن ذلك بوضوح اذ قال : « في اللحظة التي تندلع فيها نار الحرب ، لا يمكن أن تغفل تماماً وجهة النظر السياسية لوجهة النظر السياسية إلا اذا كان الأمر موضوع صراع عنيف متأت عن البغضاء . فالحروب في الواقع ليست سوى تعبيراً أو مظاهر للسياسة ، فاخضاع وجهة النظر السياسية لوجهة النظر العسكرية هي مجرد عبث لأن العامل السياسي هو الذي يقرر الحرب . فهو الخاصة العاقلة ، والحرب هي اداتها فقط ، ولا يمكن العكس . فاخضاع الناحية العسكرية للنواحي السياسية هي الصواب بعينه .

كانت السياسة العسكرية البريطانية حتى عـــام ١٩١٤ تقوم على رابطة الخضوع هذه .

فحروب انكلترا قبل ذلك التاريخ كانت تقوم على سياسة التوازن التي تهدف الى منع أي دولة قارية أخرى من بسط سيطرتها على اوربا . لذا كانت بريطانيا تحالف أقوى الدول الأخرى أو تحالف جماعة من هذه الدول ، ولا ترمى من وراء ذلك ابادة خصمها ، الأمر الذي يودي بالتوازن نهـائياً ، بل تهدف الى اضعـاف قوته الى الدرجة التي يعود فيها التوازن الدولي الى سابق عهده . فمتى تحقق هذا الهدف عرضت على خصمها المفاوضة على السلم .

ومما يجدر ملاحظته ان حروب انكلترا وحروب باقي الدول الأخرى حتى ١٩١٤ كانت عبـارة عن ادوات سياسية ، اذ كانت غاية كل منها سلماً أكثر فائدة للظافر ، وحتى في الحروب ذات الصفة العدوانية البحتة ، لم يكن هدف المعتدي ابادة عدوه ، وطرده من بلاده . فالسؤال الذي يتطلب الآن حلاً هو

الثـــاني : هل يمكن الافادة من استعمال القنبلة الذرية في حرب على « طريقة كاوزويتز » ، التي هي ضد « طريقة تشرشل » من حيث المبدأ ؟

اذا استمر « العـــامل التعبوي الثابت » يلعب دوره ، اي اذا امكن اكتشاف ترياق ثمين بابطال مفعول القوة التدميرية للقنبلة كلياً او جزئياً ، كان الجواب ايجاباً .

أما اذا رجع المتحاربون الى مفهوم الحرب كأداة سياسية ، فان الدمـار الذي سينجم عن استعمال القنبلة الذرية يبلغ جداً لا يبرر استعمالها في عمليات النزاع المحدودة . وهذا يبدو بوضوح لدى تأملنا هذا النوع من الحروب .

فلـكي يرد البلد المهاجم العدوان عن بلاده ، يضطر أن يحيـل بلاده وشعبه الى رماد تذروه الرياح ، فاذا أبيد المدافع ، لايجد المعتدي شيئاً يحظى به سوى قبضة من الرماد .

وقد يعقل أن نفترض أنه حتى في الحالة التي تتفق فيهـا الأمم على عـــدم استعمال القنبلة الذرية في الحرب المقبلة ، الا أنهـــا ستكون على استعداد لاستخدامهـا ، كما كانت الحال بالنسبة للغازات السامة خلال النزاع الأخير . زد على هذا أنه مادام الاستهتار بمباديء الأخلاق والدعاية على ماهي عليه الآن ، فان الطـاقة الذرية ستستعمل ، على مقياس واسع متى أصبح الوضع حرجاً ، رغم التصريحـات السلمية والعهود الرسمية بعدم استعمالهـا . واذا اعتقدنا خلاف ذلك فنكون قد اغفلنا تجارب الماضي .

فبقدر ماتمنى العودة « المفهوم الكلاوزويتزي » عن الحرب ، يجب أن لاننكر أن العالم الآن يقف أمام « المفهوم التشرشلي » ، امام المذابح الدامية ، والدمار والتخريب وابادة الحرث والنسل : وهذا جنون وعبث لاطائل تحته ، ولكنه امر واقع . وخير مايمكن عمله هو تقبل العالم كما هو : فهو مأوى كبير للمجانين والمعتوهين ، يمشي الهوينا فيه بعض المفكرين من ذوي العقول السليمة .

وهم بمثابة علماء التشريح المرضى ، واطباء علم النفس المرضي في البيمارستانات ، واذا كانت المختبرات الفيزيائية الكيمائية هي مصدر القوة على شن الحرب الشاملة، فان ابطـال مفعولها يجب البحث عنه في مختبر الامراض النفسية المقـابل . ينبغي وضع الانسانية بكاملهـا على طاولة العمليات وفحص أسباب الأزمات الدولية بالمجتهر .

ينبغي ان تكون هذه المحاولة ممكنة ، لأن جميع العلوم الممكنة والجائز تصورها موجودة اليوم ، باستثناء علم امراض الحرب . واذا كان علماء الحيـاة وعلمـاء طبائع البشر ، علمـاء النفس قد عكفوا على دراسة طبيعة الانسان لاكتشاف الاسباب التي تدفعه للقتال ، فهم مايزالون يغفلون الاجـابة على السؤال التالي وهو لم تقتتل الأمم في عصر العلم والنور ؟ ليس سبب ذلك هوان الامم مكونة من افراد ذوي غرائز حربية بدائية ، اذ قبل الحرب الاخيرة بقليل مرت موجة من العزاء والطمأنينة على اوربا - بما فيها المانيا - حين رجع شمبرلن من مونيخ يحمل رسالة السلام . لم تكن أي أمـة ترغب في الحرب ، ومـع ذلك فقد وقعت الحرب ، وقعت لأنه لا يمكن « لقصـاصة ورق أن تزيل بسحرهـا أمراض السلم ، كما انهـا لاتستطيع أن توقف وباء التيفوس والكوليرا .

لقد عالجت هذه المسألة في مدخل الكتاب ، ثم في بحثي لشرائط الحرب في القرن الثامن عشر ، وقد لفت النظر الى ان البحث عن بذور الحرب في قلب حضارتنا ، فقد يمكن الوقوف عليها بمجموعها في سيطرة الآلة على الانسان . فكما قال الرئيس ب كونانت ، رئيس جامعة هارفرد : « على العلم أن يسبر اعماق البنية الاقتصادية واسرارها ، كما يسبر اسرار الذرة . »

تلك هي اول مسألة جوهرية ، فإنه وان تكن اسباب الحرب عديدة ترجع معاً الى علم الحياة ، وعلم النفس ، والتربية ، والسوق ، والتقاليد ، الخ ... الا

الاسباب الاساسية ، في حضـــارة كالتي نعيش فيهـا ، هي من نوع مالي واقتصادي . (١) والاحداث الاخيرة التي تؤيد هذا القول :

فسبب عودة هتلر والوطنية الاشتراكية ، هو التدهور الاقتصادي الذي هوت فيه المانيا بنتيجة معاهدة فرساي ، والازمة المالية العالمية التي استفحلت من ١٩١٩ الى ١٩٣١ ، فأسباب هذه لازمة ترجع الى حد كبير الى ان الامم المنتصرة قد وضعت الاساس الذهبي للنقد فسببت بذلك بطالة ملايين من العمال فما كادت هذه الازمة توصل هتلر الى الحكم حتى أزال الاساس الذهبي ، وأقام النظم المالية الالمانية على الانتــــاج ، والتجارة الخارجية ، على مبدأ المقايضة والقروض والمساعدات . نجحت هذه السياسة التي استنها هتلر نجاحاً كبيراً اصبح معه من الواضح للكتلة التي تتخذ الذهب اساساً لنقدها بان استمرار الحالة على ماهي عليه سيؤدي الى انهيار نظامها الاقتصادي الخاص .

وقد صرح سكرتير التجارة الخارجية البريطانية في ٣ كانون اول ١٩٣٨ ، بان : « الطرق التي سلكتها المانيا أوشكت ان تهدم التجارة وتقلب نظام التبادل السائد في العالم ولذا يجب محاربة هذه الطرق . » ثم أيد ذلك مدير مصرف وستمينستر في ٢٥ كانون ثاني ١٩٣٩ بقوله : « اذا بقيت المانيـا ومن نسج على غرارها تستخدم هذه الطرق غير المألوفة ، فيجب علينا حينئذ أن نحاربها بسلاحها ولابد حينئذ من أن ننتصر عليها »

خشي هتلر تطويقاً اقتصـــاديا فزاد في تسارع سياسة « المجال الحيوي » مستهدفاً توطيد اسس سيطرة المانيا الأقتصادية على اوربا . وبما انه قد ضرب بذلك التجارة الخارجية لولايات المتحدة وبريطانية ، فكان لابد من وقوع الصدام ، الذي بدأ في ايلول ١٩٣٩ ، بعد ان اجتاح هتلر بولونيا في ١ ايلول .

ماذا جرى في صيف ١٩٤١ ، حين كانت المانيا تظهر بمظهر المنتصر ؟ وقع ميثاق الأطلسي بنقاطه الثمانية التي لو طبقت لساعدت الى حد ما على الحد من

AvènEmenh (١)

الأسباب الاقتصادية للحرب . وبعد ثلاث سنوات ، حين كانت المانيا في اوج تراجعها اعلن في مناسبات عدة بان الأسباب ذاتها التي ادت الى الحرب يجب ان تشكل اسس السلم ، بدلاً من ان تدعم نقاط الميثاق المشار اليه . فاتت اتفاقية بريتون دودز واساسها الذهبي ، ونظرية مورجانتو في تدمير الاقتصاد الألماني .

ثم اعقب ذلك مؤتمرات سان فرانسيسكو وبوتسدام التي وضعت أسس مايسمى (بسلم مورجانتو) ، اذ اقتبست منه اكثر المقترحات المتبناة .

وكان ذلك يقضي جغرافياً بأن تفقد المانيا ثلث اراضيها ، وان يحصر من (٦٠ ـ ٧٠) مليون نسمة في رقعة اضيق من انكلتر ، وبعد أن حلت الصناعة الالمانية ، واصبحت عاجزة عن اعاشة هذه الكثافة من السكان .

وقد وصفت مجلة الأيكونومست هذه الحالة بقولها :

« سوف لاتدوم اتفاقات بوتسدام عشر سنوات ، ومتى هوجمت نصوصها ، لايبقى بين الحضارة والقنبلة الذرية سوى السلاح ذو الحدين وهو الفوضى الدولية . »

وهكذا تغلبت « العصبة المالية » (١) فبعد ان هزمت اشد أخصامها الاقتصاديين خطراً ؛ وهم الألمان واليابان ، دأبت منذ الآن بنشاط على اعادة تجارتها القديمة الى سابق عهدها . واليكم مثل واحد من كثير على هذا الطب الجراحي المخيف .

لاحظت اللجنة الفرعية للتجارة الخارجية التابعة لوزارة التجارة في الولايات المتحدة ، لاحظت مؤخراً ان الولايات المتحدة تملك الآن نصف القدرة الصناعية العالمية ، لذا يجب ان تصدر من البضائع ماقيمته (١٠) مليارات من الدولارات اذا ارادت تجنب البطالة . وبما أن السوق الخارجية الامريكية لايمكن أن تستوعب اكثر من ٧ مليارات من الاستيرادات فسيكون هناك زيادة في

---

(١) Coterie financière

الصادرات تعادل / ٣ / مليارات من الدولارات . وبما أن هذه الزيادة لاتمثل بضائع متبادلة ، بل هي مورد لتشغيل اليد العاملة في الولايات المتحدة ، فستؤدي الى بطالة خطرة معادلة في البلاد الأجنبية التي ستستورد هذه البضائع . فستضطر هذه الدول الى الاستدانة لدفع أثمانها ، فلا يكون لديها عمال عاطلون عن العمل فحسب ، بل إنها ستعقد ديوناً مع الولايات المتحدة يستحيل عليها تسديدهـا في المستقبل .

هذا الشكل من الاستغلال كان أحد اسباب الحرب الأخيرة الرئيسية ، ولا يستبعد أن يكون أحد اسباب الحرب المقبلة الرئيسية .

لقد اعيتنـا الأسباب في تشجيع علم امراض الحرب ، فإذا وجد مثل هذا العلم ، امكن شراء ضمائر علمـائه ، واغفـالهم وتهويدهم ، والأمر الأقرب الى الاحتمال هو أن هذه « العصبية المالية » هي التي ستختار هؤلاء الأطباء ، لتخفي بذلك بدلاً من أن تبدي أسباب الحرب الاقتصادية .

أسمى الفصل الأخير من فصول « إدارة السيطرة » « بارادة الانتحـار » ؟ وهل ستكون أقوال لويس مامفور التي ذكرناها في الفصل السابق هي الكلمـة الأخيرة في تاريخ التسلح ؟ «أن المجتمع الذي يفقد قيم الحياة يعتنق ديانة الموت؟» وهل سيبقى الهدف الأخير للتعبئة والسوق هو الارهاب والابادة ؟ فأوربا التي ولدت من شجاعـــة الأقدمين ، وفروسية المؤمنين ، هل ستفنى في أوحال المذابح ، وتنطفىء شعلتها في دياجير الضلال ؟

وفي اعتقادي أن « تدجين » الطاقة الذرية سيخلص الحضارة من القلق المالي والاقتصادي ، عند ئذ تزول الغشاوة عن العيون ويدرك النـاس « أن هناك دعاية قوية تحاول اقناعنا بأن الحرب هي أحد اشكال الكفاح من أجل البقـاء وأن مردها تلك العواطف العدائيـــة الميالة الى الحرب ، الفطرية في الانسان وأن الحرب كعامل انتقالي كانت وستبقى لاغنى عنها بقدر ما فيها من احسان

فهل هذا صحيح ، أعطني نوعا من حروب الأمس ، فسأكون من اشد أنصار الحرب تحمساً كما لو كنت عضواً عاملاً في منظمة الدعاية العسكرية ... فقد كانت حرب الامس متفقة تماماً مع مبدأ بقاء الاصلح » أما الحرب الحديثة « فليست سوى تعبيراً أبله عن السيطرة التي تمارسها الآلة على الانسان ... ليس للانسان أن يلهج بالثناء على الحرب الحديثة الا اذا تعامى عن حقائقها ... فلقد أصبحت الحرب أمراً ينذر بالدمار ، وأداة لا ضرورة لها ، وتدبيراً للضابطة الدولية قليل الجدوى عملياً ، تبذيراً منقطع النظير لأحسن ماتمخضت عنه الحضارة الغربية . »

وليس من قبيل المبالغة ان المبالغة أن نقول إن الطاقة الذرية قد فتحت الباب لعهد جديد ، لأن مبدأ انقسام الذرة قد أصبح معروفاً ، ولم يعد سراً مستغلقاً . ولم يكتف العلماء الآن بتحويل عنصر الى آخر ، بل اكتشفوا طريقة لتحرير الطاقة الذرية بشكل آخر غير الشكل الانفجاري الخالص . بوسعنا إذن أن نتنبأ بدون تخوف من الوقوع في الخطأ أن قد اقترب اليوم الذي يقدم فيه العلم للانسانية لا قوة محركة (١) لاحد لها فحسب ، بل الحجر الفلسفي الذي طالما بحث عنه الانسان .

فاذا ماوجدنا في هذا العصر ، الذي يأتي فيه الرزق رغداً من كل مكان ، فأي محل فيه للأساس الذهبي ، وللقروض ، والديون ، والأسواق الخارجية ، والتعريفات الجمركية ، والحظر (٣) ، والبطالة ، وباقي سفاسف عصر الجشع ، والتكالب ؟ اذ تستطيع كل أمة ان تحصل على اكثر الأشياء المادية التي ترغبها

---

(١) Force de locomotion

(٢) Pierre philosophale

(٣) Embargo

بقليل من الجهد البشري ، بحيث تصبح حديقة هيسبريد (١) حقيقة واقعة ، لامجرد اسطورة . فالذرة القادرة ، هركول الجديد ، ستقضي على تنين التعب والنصب البشري .

ثم ماذا سيكون من أمر الحرب في النهاية ؟

كما سبق أن برهنت ، إن العهد الحالي « لارادة القوة » بدأ باكتشاف البارود لا لأن البارود هو أقدر من الفولاذ لوحده على أن السلاح الناري قد غير مجرى التاريخ ، باستبداله بمفهوم القرون الوسطى عن الحرب ، كصراع بين الخير والشر ، مفهوم صراع بين خصمين صمم كل منهما على الحصول على مايعتبره هو سلماً أكثر فائدة (٢) فبينما الحرب هي بالنسبة للكنيسة هي نزاع من نوع روحي ، فهي نزاع سياسي بالنسبة للسلطة الزمنية . ولكن الحرب القائمة على انقسام الذرة ، كما هي مفهومة الآن ، هي صراع فني خالص — ومبارزة بين مخبرين خصمين هدفهما المشترك هو الفناء : فناء مطلقاً يدك جميع دعائم السياسة الحالية بجعله القوة شديدة الجبروت ، وبوضعها فوق السياسة ، لأن جميع السياسات التي كانت معروفة حتى الآن ، لم يعد لها مكان بعد الآن .

فاذا قلنا بأن الرجوع الى الحرب لم يعد مجدياً في الحضارة الصناعية ، فهل يعني هذا أن تاريخ التسلح قد بلغ غايته ، وأن الاسلحة قد وصلت اقصى حدود التطور ، وأنها توشك أن تحطم نفسها بنفسها بانفجار «العامل التعبوي الثابت (٣)» ؟

الجواب رهن بالمستقبل ، وكاني اعتقـــد بأن الجواب سيكون بالايجاب وذلك للأسباب التالية :

---

(١) الهيسبيريد هن بنات أطلس الثلاث ، ولهن حديقة تثمر اشجارها تفاحات ذهبية ولكن هذه التفاحات موضوعة تحت حراسة تنين (Dragon) له مائة رأس ، الى ان أتى هركول ذات يوم فقتل التنين وقطف التفاحات الذهبيه .

(٢) Une pax plus avantageux

(٣) Le Facteur Tactique Constant

ا) وكما أن البارود والمدفع ، بتاسيسه الدولة الزمنيـــة كان من اقوى الاسباب في الاسباب الدينية للحرب ، فكذلك « تدجين » الطاقة الذرية الذي سيحذ بقدر كبير من الاسباب الاقتصادية للحرب ، ستنتهي بوضع أسس دولة فنية أو علمية يكون فيها الدمار المادي كهدف للحرب أقل فائدة من الدمار الروحي الذي كان يقع باسم الدين .

ب) بينما بارود المدافع ليس الا عامل انفجار ، فإن الطاقـة الذرية لها قوة ناقلة ، اذ يمكن استخدامها كوسيلة هامة في النقل كما هي أداة هامة في التدمير .

ج) وكما أن الاجهزة الاليكترونية ستسخدم في توجيه القذائف ، فهى بلا ريب ستستخدم في رصد اقترابها ، وفي تغيير مسارها وابعادها عن هدفها .

هذه المظاهر الثلاثة : تحاشى الدمار الاقتصـادي واستخدام الطاقة الذرية كقوة دافعة ، والاجهزة الاكترونيـة كوسائل دفاعية ، كل هذا يدعو الى التفكير في أن العـامل التعبوي الثـابت سيبقى يلعب دوره . فلنبحث هذه الامكانية عن كثب . فإذا قورنت القنبلة الذريـة بالقذائف التي تقدمها ، كان الفارق كبيراً : فقوة تدميرها عظيمـة لدرجة لايمكن الحد منها بأي وسيلة من وسائل الحماية المباشرة المعروفة . فالتصفيح لايجدي ، والخنادق كذلك ، واذا امكن تشييد مدن بكاملها تحت الارض ، لتحاشي نتائجها المبيدة

هذه الطريقة الدفاعية لايمكن تحقيقها عملياً ، لا بسبب اليد العاملة والنفقات التي تتطلبها ، بل لان هناك حدود لمثل هذا السوأ في التراب . يضاف الى هذا أن قوة انفجار القنبلة الذرية عظيمة لدرجة تصبح فيها وسائل الحماية غير المباشرة كتغير المسار غير كافيـــة . مثلاً لو ألقى مائـــة صاروخ ذري فوق لندن وامكن تغيير مسار / ٩٩/ منها ، فان الصاروخ الذري الواحد الذي يخترق دفاعات الالكترون يكفي لتدمير القسم الاكبر من المدنيـة ، في حين أنه لو

(١) Trojectoire

القيت مائة قنبلة من اكبر طراز معروف فوق المدينة ، ولم ينفجر سوى قنبلة واحدة منها ، فالاضرار التي تحدثها تافهة .

فهذا اذن هو حادث جديد ، إذ كل ما كان يؤمل في الماضي من استعمال طرق الدفاع غير المباشرة هو تخفيف الخطر لا الغاؤه .

فاذا كانت الوسائل الدفاعية ناقصة ، فعلينا بالبحث عن (١) هجومي ، واذا اردنا ان نتحاشى دماراً لا فائدة منه ، فلا ينبغي ان نبحث عن هذا بين الوسائل ذات القوة التدميرية الكبرى ، كالقنبلة الذرية التي هي اشد خطراً من القنبلة الحالية ، بل احرى بنا ان يكون رائدنا سرعة الحركة التي تسمح بسرعة احتلال بلاد العدو ، لا سرعة افنائها . فالذي ينقص الآن هو التمكن من احتلال الاراضي بعد القصف الجوي مباشرة ، أو الاستغناء بالكلية عن هذا القصف .

وبما ان هذا الاحتلال لبلاد العدو يجب ان يتم خلال بضعة ايام أو بضع ساعات – وليس بعد اشهر او سنين كما كانت الحال في الحرب الاخيرة ، فاشكال الطائرات الحالية ذات المحرك لا تتفق وهذه الغاية . ويقضي ذلك بوجود وسيلة نقل جوية تقطع آلاف الكيلو مترات في الساعة ، تحمل آلاف الاطنان . هذا الجهاز ليس سوى طائرة المستقبل الصاروخية التي تسير بالطاقة الذرية .

وظهور هذه الطائرة سوف يعيد الحرب الى شرائطها العادية : فيعود الاحتلال هدفاً سوقياً ، وتكون الذريعة للوصول الى هذا الهدف هي تحطيم قوة مقاومة العدو . ولا يتم هذا التحطيم بواسطة قنابل ذرية كبيرة ، بل بأسلحة مختلفة الانواع ومتنوعة القوى ، مصنوعة بشكل يسمح للجيوش المنقولة بالطائرات الصاروخية أن تنجز ما تقضي به الضرورات التعبوية : وهو فرض إرادة على إرادة أخرى وليس فرض قوة على قوة أخرى ، أو قوة تدمير على قوة تدمير أخرى ، في

---

(١) Parade

قصر فاصل زمني ممكن ، وبأقل مايمكن من الخسائر والأضرار المادية ، لكي يصبح السلم في مصلحة المنتصر .

ولو تم احتلال المانيا خلال الحرب الأخـــيرة دون تخريب مدنها وتدمير صناعتها ، اذن لكان السلم اكثر افادة للمنتصرين مما كان عليه . وفي الواقع ، لقد اصبح الوضع اليوم أمام انكلترا والولايات المتحدة من جميع الجهات ، ليس اقتصادياً بل سياسياً وستراتيجياً أقل ملاءمـة مما كان عليه وضع هاتين الدولتين قبل الحرب . فالحرب الهوجاء لايمكن ان تؤدي الى سلم بالمعنى السليم. ودخول حرب بهـــذا الشكل بحيث تؤدي بالنتيجة الى سلم لاطائل تحته هو حماقة مطبقة .

هذه الحماقة المتبدية خلال التاريخ جعلت الروح العسكرية خطرة ، لأن المحارب لايرتاح إلا بالتدمير كالسمكة في الماء : والتدمير والتخريب هو أمر سهل ، لأن ذلك لايتطلب سوى القليل من الخيال المبدع : والصناعيون يأتون بعد المحاربين لأنهم كثيراً مايعتبرون البناء دعاية في ذاته . في حين ان العامل الاساسي في السلم والحرب ليس هو البناء ، ولا الدمار – ، بل الخدمات النافعة فاذا كانت الحاجة تقضي ببناء ناطحات سحاب مؤلفة من مائة طابق ، فلا داعي لبناء ناطحات سحاب مؤلفة من الف طابق ، وإذا قضت الضرورة بصنع قنبلة ذرية لتدمير قلعة ، فلا داعي لصنع أخرى تدمر بلداً بكامله . وذلك لأن البيت يبنى ليسكن ، والحرب في الحالة الثانيـــة هي صراع بين الأحياء ، والموتى لايستطيعون إبادة العدو تؤدي الى انهاء الحرب ، ولكن ذلك لايؤول الى سلم نافع .

هناك سبيل وسط في كل شيء ، وهو سبيل الرشاد ، فاذا تنكبه المرء هام على وجهه في دياجير الحماقة ، تواكبه فيها الاشباح المخيفة . والضخامة الهائلة هي ايذان بالزوال المرتقب لنوع أو حضارة من الحضارات . ان سر الحرب لايكمن

في ضخامة القامة . ولقد كان الفيلسوف اليوناني لوكريس منذ ٢٠٠٠ سنة «ان الذكاء والمهارة والشجاعة او السرعة هي العامل في حفظ انواع تلك الحيوانات التي مازالت تتنفس تحت الشمس . » والسرعة هي المبدأ الجوهري المسيطر في عصر الطاقة الذرية الذي علينا اليوم .

فاذا تقبلنا هذا المبدأ ، أصبح العالم يواجه قضيتين رئيسيتين في التسلح :

آ) تدجين الطاقة الذرية

ب) اختراع ادوات حربية جديدة ، تقوم على اساس قدرتها الحركية .

لاداعي لالغاء الحرب ، ومادامت حاجة القتال متأصلة في الطبيعة البشرية فيحسن ان تفرض ارادة المنتصر على المغلوب باقل مايمكن من الاضرار بالنسبة لكليهما ، لان الدمار ليس في ذاته سوى وسيلة لغاية . ولنردد في عصر العنف الذي نعيش فيه ماقاله توماس فولر :

« اذا انهارت الآمال فتذرعوا بالصبر ! » « واذا ارسل الانسان نظرة عميقة في الاشياء ، وجد عنصر الخير في صميم الشر . »

دار اليقظة العربيّة للتأليف والترجمة والنشر بسوريّة

تقدم

الكولونيل لورنس

في كتابه

أعمدة



يتناول البحث ثورة العرب ضد الاتراك وتمكن
الانكليز من السيطرة على البلاد العربية بعد
أن استحصلوا على أصدقاء لهم أقوياء
وأعداء أقوياء

يقع الكتاب في زهاء الف وخمسمائة صفحة من القطع
الكبير وعلى ورق أبيض صقيل
مع عدة رسوم مختلفة

في

سلسلة عيون التاريخ العالمي

٤